

جامعة أم القرى

قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

$\pi \cdot 10^6 \dots 0.75$

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث

أمانى بنت جعفر بن صالح الغاري

إشراف الأستاذ الدكتور
يوسف بن علي بن رابع الثقفي

٥١٤٢٥ / ٢٠٠٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص المادة

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين .
وبعد ...

هذه الرسالة بعنوان ((دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية)) تشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، إضافة إلى عدد من الملاحق وقائمة المصادر والمراجع .
تضمنت المقدمة على بيان بأهمية الدراسة ومصادرها وتوضيح مراحل إنجازها ، واختص التمهيد بتعريف مصطلح الإنكشارية وأصل الكلمة مع توضيح لمعنى كل مقطع فيها .
أما الفصل الأول فقد ركز على نشأة الإنكشارية في ثلاث مباحث ، الأول منها :
خصص لمعالجة الأوضاع العسكرية في أوائل العهد العثماني ، بينما خصص المبحث الثاني لموضوع تأسيس الإنكشارية ، أما المبحث الثالث فقد ركز على مناقشة آراء المستشرقين الذين هاجموا الإنكشارية والرد عليهم بالأدلة والبراهين .

وعالجت الدراسة في الفصل الثاني موضوع ((تسلط الإنكشارية وجبروتهم)) وفيه ثلاث مباحث ، الأول منها ناقش أساليب تمرد الإنكشارية وزيادة ثوراتها مع مرور الزمن ، وعالج المبحث الثاني موضوع نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني وعزلهم للسلطين والوزراء بل وقتلهم للبعض منهم ، بينما ركز المبحث الثالث على تدخل الإنكشارية في مسائل السياسة العليا .

وفي الفصل الثالث ركزت الدراسة على موضوع ((تفاقم خطر الإنكشارية)) وأفرد لذلك مبحثين الأول منها يتعلق بموقف الإنكشارية من النظم العسكرية الحديثة ، والثاني خلص بإلغاء فيالق الإنكشارية كما ناقش وجهات النظر حول إلغاء الإنكشارية ومدى مصداقية ذلك .
وفي الخاتمة ركزت الدراسة على تقديم أهم النتائج التي تمثل خلاصة محتويات فصول البحث .

وذيلت الرسالة في الأخير ببعض الملاحق وقائمة المصادر والمراجع والله الموفق .

الطالبة	المشرف	عميد الكلية
أمانى جعفر الغازي	أ.د. يوسف بن علي الثقفي	الشرعية والدراسات الإسلامية
		د. عابد بن محمد السفيناتي

Abstract

Praise is to Almighty Allah, Peace and Prayers may be upon his messenger, Mohammed, the son of Abdullah, and upon his follower as all.

This research is titled "the impact of Inkshari troops in Othman state's decay" The research is divided into an introduction , preface, three chapters, conclusion , additional appendix, and references .

The introduction discusses the importance of the study, its references and the stages of fulfilling the study . The preface shows the meaning of Inkshari term, the word origins.

The first chapter concentrates on the beginnings of the Inkshari troops. It is divided into three topics. The first is dedicated to deal with the military situations in the early time of the Othman State . The second is about the establishing the Inkshari troops, while the third topic is about the western scholars points of view about the Inkshari establishment and refusing their views by showing the required proofs .

The second chapter with the "demonstration of the Inkshari troops and their mightiness over the Othman state" . This chapter was divided into three topics, the first one is about the Inkshari disobedience and their increasing revolution . The second topic is about their demonstrations upon the Royal court of the Othman state. They controlled the disappointment of the Othman Sultans and ministers. In sometimes, they killed some of them. The third topic is about the Inkshari interference in the high rank political points .

The third chapter is about the decreasing of the of Inkshari troops on the Othman state . The researcher dedicates two topics in that chapter , the first one is about the Inksharis points of view towards the modern military systems in that time . The second topic is about eliminating the Inkshar legions and deals with the different points of views about canceling of Inkshari troops, also and the validity of this decision .

The conclusion concentrates on introducing the main results and commendations which represents the outline of the researchs chapters. By the end of the research, there are some appendixes and the researchs references .

Student Supervisor The Dean of Shara'a College

Amani. J. AL-Ghazi Full Prof. Yousef AL-Thakafi Dr. Abed M. Assofiyani

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيد المرسلين وأشرف خلق
العالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة
وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون) [سورة المائدة آية ٣٥]

وقال تعالى (أنفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في
سبيل الله ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون) . [سورة التوبة آية ٤١]

وقال تعالى (وجاهدوا في الله حق جهاده) [سورة الحج آية ٧٨]

ومن هذا المنطلق التشريعي في نشر الإسلام ، قامت الدولة
العثمانية بفتوحات عظيمة وصلت بها في التاريخ الحديث إلى أن أصبحت
من أعظم الدول وأكثرها اتساعاً . ومن هنا تكمن متعة دراسة تاريخ
الدولة العثمانية ، وما حققته من إنجازات في عدة مجالات.

وكان لفرقة الإنكشارية الدور الفاعل في الفتوحات الإسلامية
العثمانية ، ثم تداخلت عدة أسباب أدت إلى أن يكون لها أثر في ضعف
الدولة وسقوطها في النهاية ، ولهذا كانت الإنكشارية في نظر معظم
المؤرخين من العوامل الرئيسة التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية ،
ونظراً لعدم وجود دراسة مستقلة لإثبات هذه الحقيقة من عدمها فقد أشار
علي المشرف سعادة أ.د. يوسف علي الثقفي باختيار هذا الموضوع
ليكون عنواناً لرسالتي لمرحلة الماجستير .

وإن كانت الإنكشارية أحد أهم المؤسسات التي لعبت دوراً مهماً في
تأسيس الدولة العثمانية وارتفاع نجمها إلى عنان السماء بالانتصارات

التي حققتها في كثير من الحروب . فإن هذا يجعلها جديرة بأن تأتي على رأس العناصر المستهدفة في هدم الدولة العثمانية ، فلا نستغرب إذا وجدنا أن كثيراً من الأوردة الخارجية غدت هذه الفرقة لإفسادها .

ومن هنا جاءت أهمية الدراسة حيث تجمع خيوط وجذور الصراع ما بين الإنكشارية والسلاطين مع التعمق في أسباب هذا الصراع الذي تخللته كثير من صور الصدام العنيف الدامي ، حتى انتهى المطاف بالقضاء على هذه الفرقة بطريقة عنيفة فيما سمي بالوقعة الخيرية .

والدراسة تلقى الضوء على خلفيات وآفاق هذا الصراع بحيث تكشف حقائق جديدة في الكتابة التاريخية العثمانية .

وقد حرصت على استقاء المادة العلمية لهذه الدراسة من مصادرها الأصلية ، حيث تمكنت بفضل من الله وتوفيقه من القيام برحلتين علميتين الأولى إلى القاهرة ، حيث تمكنت من الحصول على بعض المصادر والمراجع من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، والتي كونت قاعدة معلومات البحث ، أما الرحلة الثانية فكانت إلى إستانبول حيث زرت أرشيف رئاسة الوزراء وقمت باستخراج الوثائق ذات الصلة الوثيقة بالموضوع ، كما زرت أرشيف توب قابي سراي ، وأسفدت من الوثائق والفرمانات الموجودة في الأرشيف ونقلت من هذه الوثائق المعلومات التي تخص موضوع الدراسة .

كما قمتُ بجمع بعض الكتب القديمة التي كُتبت بالخط العثماني من المكتبات العامة . والتي أفادت في إثراء معلومات البحث . وكانت رحلة إستانبول مفيدة جداً في جمع المادة العلمية للدراسة .

على أن أهم الصعوبات التي واجهتني هي عدم إتقاني للغة التركية. مما أثر على عدم الحصول على الوثائق المطلوبة بسهولة ، واستلزم الأمر الانتظار وقتاً طويلاً حتى يتم ترجمتها في مركز للترجمة في إستانبول ، ثم يتم إرسالها عن طريق البريد .

كذلك عانيت الأمرين لكي أتمكن من الدخول للإرشيف العثماني نفسه فالأمر يتطلب إجراءات طويلة تمتد إلى عدة شهور حتى يتم استخراج إذن الدخول ، فبداية الإجراءات في القنصلية التركية في جدة ، وينتهي المطاف باستخراج الإذن من أنقرة لدخول الإرشيف واستخدام الوثائق في نطاق زمن محدد يوضع مسبقاً ، كما أن طلب أرشيف طوب قابي سراي له إجراءات أخرى ويحتاج إلى أذن خاص به وهذا ما زاد الأمر تعقيداً .

ومن الأمور التي لاحظتها أثناء جمع المعلومات هو ندرة المراجع الدقيقة الحياضية ، فعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين والمفكرين السياسيين كتبوا عن الدولة العثمانية إلا أن كتاباتهم جاءت مكررة لما سبق تدوينه وينقصها الدقة ، في أغلب الأحيان . ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الكتب طبعت منذ فترة طويلة ونفذت من الأسواق ولم يعاد طبعها وبالتالي يصعب الحصول عليها .

أما عن أهم المصادر التي استقيت منها المادة العلمية للدراسة ، فقد اعتمدت على وثائق غير منشورة من أرشيف رئاسة الوزراء وأرشيف توب قابي سراي ، وقد ترجمت خصيصاً للدراسة ، كما رجعت إلى

مخطوطات تركية تحدثت وعاصرت الوقعة الخيرية وإلغاء فيالق الإنكشارية . ومن أهمها مخطوط أس ظفر لمحمد أسعد .

أما عن المصادر والمراجع التي استعنت بها فقد كانت في الأغلب تركية غير مترجمة مثل علي رشاد ، عبد الرحمن شرف ، كامل باشا ، تاريخ أبي الفاروق ، إسماعيل حقي أوزن جارشيل .

أما المصادر العربية فأهمها محمد فريد المحامي ويلمازا وزتونا ، أحمد جودت ، إسماعيل سرهنك .

وهناك بعض المراجع التي أفادت البحث ولا يمكن إنكار فضلها على الدراسة . وبالنسبة للكتب التي أخرجها المستشرقون عن الدولة العثمانية ، ومن سار على نهجهم ، فقد أخذت بعين الاعتبار وهي بلا شك تمثل وجهة نظر معينة ، كما أن معلوماتها في أغلب الأحيان لا تتصف بالصدق والحيادية والموضوعية ، إلا أنها على أي حال حملت في طيات صفحاتها الكثير من المعلومات المفيدة والتي أخضعتها للتحليل والاستنتاج والخروج بكثير من المعلومات التي تخدم موضوع الرسالة .

أما فيما يتعلق بالخطة التي سار عليها البحث فهي تتضمن تمهيداً وثلاثة فصول إضافة إلى الخاتمة والملاحق وقائمة المصادر والمراجع .

تضمن التمهيد تعريف وشرح لمصطلح الإنكشارية وأصل الكلمة مع توضيح لمعنى كل مقطع فيها ، إضافة إلى تعريف لكلمة دوشرمة .

أما الفصل الأول فقد اشتمل في البداية على التشكيل العسكري السائد في أوائل العهد العثماني قبيل تأسيس الإنكشارية ، وحيث اعتمدت الدولة العثمانية في فترة مبكرة من تاريخها على المجاهدين الذين

يجتمعون وقت الجهاد ، ثم اعتمدت على فرقة المشاة ، ولكن تطور الحركة الجهادية في الدولة العثمانية أوجب تأسيس فرقة مشاة دائمة مهمتها الجهاد في سبيل الله أطلق عليها فيما بعد " الإنكشارية " .

ثم تطرق الفصل إلى إنشاء وتأسيس هذه الفرقة وأهم الأنظمة التي وضعت لها ، مع مناقشة أهم آراء المستشرقين ، الذين هاجموا الإنكشارية ووصموا فرقته بالعار عن طريق ما أسموه بضريبة الغلمان ، والرد عليهم بالأدلة والبراهين لإثبات أنها مجرد ترهات وتشويه لهذه الفرقة المجاهدة في سبيل الله .

أما الفصل الثاني فقد اختص بشرح أسباب تمرد الإنكشارية وزيادة ثوراتهم مع مرور الزمن ، مع دراسة لأهم الأسباب سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ونفسية . كما تضمن هذا الفصل ثورات الإنكشارية داخل القصر السلطاني ، وعزلهم للسلطين والوزراء بل وقتلهم للبعض منهم وذلك من منطلق سيطرتهم وتحكمهم في سياسة القصر الداخلية ، حتى تم القضاء عليهم .

كما عالج هذا الفصل دورهم الواضح في إيقاف بعض الفتوحات والمعارك ، وتعديهم على حرمة أهالي البلاد المفتوحة ، ونهبهم وسلبهم للأموال والأعراض ، ونقضهم لكثير من المعاهدات ، إضافة إلى تبرمهم الواضح والدائم من الحرب .

أما الفصل الثالث فقد تناول محاولات الإصلاح الحديثة التي قام بها السلطين وجاءت ضد رغبات الإنكشارية فوقفت منها موقفاً عدائياً ، واعتبرت التعلم على الأسلحة الحديثة ضللاً وكفراً ورفضته تماماً ،

وينتهي الفصل بمناقشة الآراء التي دارت حول القضاء على الإنكشارية، ومدى صحة هذه الخطوة الجريئة التي قام بها محمود الثاني.

وفي الخاتمة تعالج الدراسة أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج وحقائق تاريخية تثبت دورهم الفعال في إضعاف الدولة العثمانية .

وأخيراً : أود الإشارة إلى أن ما قمت به من عمل فهو محاولة علمية لطالبة علم مبتدئة في مشوار البحث العلمي فإن أصبت فيما قمت به فهو توفيق من الله تعالى وإن أخطأت فأستغفر الله تعالى من الخطأ وجلّ من لا يخطئ .

وإنني بعد هذا الجهد أشكر الله تعالى أن وفقني للقيام بهذا العمل ، ومن باب الوفاء والتقدير أشكر كل من له علاقة في إنجاز هذا العمل ، وأبدأ ذلك بوالدي الكريمين فلهما الشكر والتقدير لتشجيعهما لي بمواصلة الدراسة ودعائهما الدائم لي بالتوفيق والهداية ، ودعمهما المتواصل الذي لا حدود له .

والشكر موصول إلى أستاذي المشرف سعادة الأستاذ الدكتور يوسف بن علي الثقفي الذي تابع مسيرة البحث من بدايتها ولم يبخل علي بالتوجيه والمراجعة والنصح والتقويم فله مني الشكر ، كما لا يفوتني أن أشكر منسوبي قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية وعلى رأسهم أ.د عبد الله سعيد الغامدي على دعمهم وتشجيعهم في كل ما يخدم مصلحة طلاب وطالبات القسم . ولا أنسى أن أتقدم بجزيل الشكر لأخوتي على دعمهم لي ومساعدتي على اجتياز الصعاب والعقبات ، كما أود أن أتقدم بالشكر الجزيل للدكتورة أميره بنت علي مداح على نصائحها المهمة

التي أنارت طريقي في البحث ، وأشكر كلاً من أرشيف رئاسة الوزراء
بأستانبول وأرشيف توب كابي سراي ، ومركز الفرقان بإستانبول
ومركز بحوث آسيا بالقاهرة ، والهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
بالقاهرة ، كما أتقدم بجزيل الشكر لمكتبة الملك فهد الوطنية ومركز الملك
فيصل الإسلامي ودارة الملك عبد العزيز ومكتبة جامعة الملك عبدالعزيز
بجدة على تقديم المادة العلمية اللازمة للبحث.

كما أتوجه بالشكر إلى الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة الفحص
والمناقشة . راجية من الله تعالى أن يكون هذا العمل المتواضع إسهاماً
علمياً ويستفيد منه المتخصصون في مجال التاريخ الحديث وغيرهم ممن
يهتم بتاريخ الأمم والشعوب الإسلامية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

تعريف مصطلح الإنكشارية

التمهيد :

تعريف مصطلح الإنكشارية :

لقد اعتمد العثمانيون منذ نشأتهم على القوة العسكرية وذلك على اعتبار أنها القوة المؤثرة ، والعامل الرئيسي في نشر الإسلام وبهذا أصبح الجيش في الدولة العثمانية شرياناً رئيسياً ، أولى كل الإهتمام والرعاية حتى غدا اليد الأولى في المحافظة على الدولة وكيانها، وهكذا تمكنت الدولة العثمانية من تنشئة جيش قوي فتح البلاد، وضرب بيد من حديد على الخارجين والطامعين ، وكان له دوره المميز في الفتوحات العثمانية وإتساعها في ثلاث قارات عالمية في أوروبا وأسيا وأفريقيا .

وكان العنصر الرئيسي في الجيش العثماني هو ما عرف بالانكشارية، وهي هيئة عسكرية فريدة حظيت من الدولة العثمانية بإهتمام بالغ لم تحظ به أي هيئة حكومية أخرى.^(١)

والإنكشارية هي كلمة عربية وقد حرفت عن الكلمة التركية عند ترجمتها وهي " يني تشاري" وترسم بالتركية "يكيجري" وهنا نرى أن الكاف في اللغة التركية تنطق نوناً وتكتب يكجري ولكن تنطق "يني تشاري"^(٢).

(١) عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، د.ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م، ج ١، ص ٤٧٠.

(٢) محمد فريد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، الطبعة السابعة ، بيروت : دار النفائس، ١٤١٤هـ - ١٩٩٧م، ص ١٢٣.

وهكذا نجد أن الكلمة مكونة من مقطعين الأول يكي yeni بالنون
الخيثومييه بمعنى جديد ، جري cery بالجيم المشوبة بمعنى العسكر ،
فيأتي المعنى الكامل العسكر الجديد. أي الجيش الجديد^(١)، وتأتي أيضاً
بمعنى الجند الجدد.^(٢)

وإذا كان حرف الكاف في اللغة التركية ينطق نوناً فإنه في اللغة
الفارسية يلفظ تاء وشيناً ، وكذلك كلمة يكي تأتي بمعنى حديث لهذا يطلق
عليهم أيضاً العسكر الحديث^(٣).

وهكذا نجد أن "يكجري" حسب النطق التركي ، و "يني جري"
حسب النطق العربي^(٤). "جري" تعني جندي ، ولكن هناك كلمة أخرى
في اللغة التركية القديمة وهي صو su، لكن "جري" أصدق في المعنى
وكذلك كلمة "أوردوه" تعني جيش ، ولكن كلتا الكلمتين لا تستعملان في
اللغة التركية منذ عدة عصور^(٥).

وقد أكد حلیم بك أن العثمانيين أنشأوا جيشاً من المسلمين يدعى

(١) زين العابدين شمس الدين نجم: الوظائف العسكرية والتنشكيلات القتالية في العهد المملوكي والعهد العثماني ، مجلة كلية خالد العسكرية، العدد ٣٩، السنة العاشرة، ١٤١٣هـ ، ص ٢٩.

(٢) فون هامر: التاريخ العثماني الكبير، م ١ ، د.ط ، استانبول: دار نشر مج دال ، ١٩٨٩ ، ص ٩٩.

(٣) عبد العزيز محمد عوض: بحوث في تاريخ العرب الحديث، الطبعة الأولى، عمان: مكتبة المحتسب، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م ، ص ٦٤.

(٤) الصفصافي أحمد المرسي : إستانبول عقب التاريخ روعة الحضارة ، الطبعة الأولى، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م ، ص ٥٥.

(٥) يلمازا وزتونبا: تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، استانبول، مؤسسة فيصل للتمويل ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج ٢، ص ٣٨٩.

"يكي جري" وهم العسكر الجدد.^(١)

وعليه فإن كلمة الإنكشارية هي يكي جري بالتركية ولكنها حرفت عندما ترجمت للعربية، وقد يكون هذا التحريف جاء نتيجة إختلاف نطق الحروف العربية في اللغة التركية عنها في اللغة العربية.

ونجد أن كلمة الإنكشارية أطلقت على نوع من الجنود الجديدة ، أي مجموعة من فرق المشاة النظاميين والتي كونها السلطان أورخان العثماني في القرن الرابع عشر الميلادي^(٢)، وهم مجموعة من الجنود المدربين تدريب على أعلى مستوى من التقدم - بالنسبة لزمانهم - وقد دربوا على أسلحة ووسائل حربية حديثة ، كما تعلموا اللغة التركية ، إضافة إلى أنهم جنود محترفين،^(٣) أي متفرغين للحرب متفانين في فتح البلاد ونشر الإسلام. وكانوا من أكبر عوامل نجاحهم في الفتوحات التي قاموا بها في القرن الرابع عشر الميلادي والقرون التي تليه.^(٤)

وقد جاء لفظ الإنكشارية yeniceri في بعض المصادر بمعنى مصطلح عسكري ، أطلق على الجنود الموظفين في الدولة العثمانية، فيما قبل سنة ١٢٤١هـ / ١٨٢٦م . وكانوا يتبعون السلطان مباشرة

(١) إبراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بكتاب التحفة الحليمة، الطبعة الأولى، بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص٣٦. راجع عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ، ج١، ص٤٧٤.

(٢) شمس الدين سامي : قاموس تركي ، إقدام مطبعة سي : إستانبول ١٣١٧هـ مادة " يكي جري " : ص ١٥٥١ - ١٥٥٢ . سليمان صالح الخراشي: كيف سقطت الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، الرياض: دار القاسم، ١٤٢٠هـ ، ص١٤.

(٣) Mehmet Zeki Pakalin Osmanli Deyimliri ve Terimleri Sozlugu, Istanbul ١٩٧٧, cilt III ., S, ٦١٧ - ٦٣٤

الموسوعة العربية العالمية: ج٣، الطبعة الأولى ، مؤسسة أعمال الموسوعة، مادة الانكشارية ص٢٨١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: مكتبة الشعب، المجلد الخامس، مادة الإنكشارية ، ص١١١.

ومرتبطون به شخصياً يأتمرون بأمره ولا يعرفون أب سواه و من هذا المنطلق جاء لقب عبيد الباب^(١) أي باب السلطان.

أما عن معنى لفظ الجيش الجديد، فإن القدم والجده في شيء معين مسألة نسبية، فعندما أطلق على يكي جري جيشاً جديداً، فهذا يعني أن هناك نظاماً حربياً كان سائداً قبله وأقدم منه، وهذا هو التجمع الاختياري، وقد تغير هذا المفهوم بعد أن قام السلطان محمود الثاني بإنشاء العساكر المنصورة المحمدية والتي أطلق عليها مسمى "الجيش الجديد" أو "النظام الجديد".^(٢) وكذلك فقد حدث في عهد السلطان سليم الثالث أثناء محاولات إصلاح الهيكل العسكري للدولة العثمانية، أن قام بإنشاء فرقة جيش مدربة على الطريقة الحديثة وأطلق عليها النظام الجديد، وهكذا أطلقت الكلمة حتى بوجود الإنكشارية لأنه لم يكن قد قضي عليها.

هناك مصطلح آخر له علاقة بالإنكشارية وهو "دوشرمه" وهي كلمة تركية تكتب هكذا Dos,orme ، وفيما سبق كانت تكتب دوشرمه بزيادة الفاء، ولكن الأصح أنها تكتب بدون الفاء.^(٣) وقد أطلق عليها المستشرقون وأعداء الدولة العثمانية هذا المسمى وذلك بهدف تشويه هذا النظام كما سيتضح بعد ذلك.

(١) جاءت مثلاً في تاريخ الإسفاقي ، تاريخ إين زنبيل ، وزيني حلان . الصفصافي أحمد المرسى: مرجع سابق ، ص ٥٥.

(٢) محمد عبد اللطيف البجراوي: من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة ١٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٢٠٤.

(٣) زياد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، الطبعة الثانية، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٢٦.

Dersime هي أيضاً مصطلح عسكري، وقد أطلق على أبناء المسيحيين المشردين في الشوارع، وكانوا يجمعون من شوارع البلدان المسيحية التي تم فتحها حديثاً، وخاصة من بلاد البلقان وذلك بهدف الالتحاق بالإنكشارية أو للعمل في السراي.^(١)

وفسر زياد أبو غنيمه مصطلح الدوشرمه بأنها تعني الإسقاط أو السقوط، وهي كلمتان فالأولى تعني عندما تسقط الأم جنينها قبل إتمام شهور الحمل التسعة وهي لا تطلق على المواليد الذين تكتب لهم الحياة وإنما الذين يموتون في الشهور الأولى من الحمل.^(٢) أما السقوط فهو يعني سقوط شيء من على علو سواء كان إنسان أو جماد ، وتطلق على الشيء المعنوي كالسقوط في هاوية الرذيلة أو ما شابه ذلك من تعبيرات.^(٣)

كذلك تطلق على الأطفال اللقطاء والذين تلدهم أمهاتهم في السر، فيصبحوا مشردين في الشوارع، أو يوضعوا في الطرقات أو على أبواب المساجد وأبواب الملاجئ، ثم أصبحت تطلق على كل طفل لقيط أو حتى مشرد في الشارع لأي سبب آخر. وقد ساد في بلاد العرب إطلاق كلمة داشر على الرجل الذي لا يعرف له ولي أمر يرجع إليه في شؤونه ، كذلك الحال في المرأة فيقال عليها "إمرأة داشرة" أي لا يعرف لها ولي أمر ترجع له في شؤونها.^(٤)

(١) الصفصافي أحمد المرسى: المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢) زياد أبو غنيمه : المرجع السابق، ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٤) المرجع السابق، ص ١٢٧ .

وكلمة دأشر لا تزال متعارف عليها في المجتمعات العربية حتى اليوم على أساس أنها تعني ذلك النوع من البشر ممن لا يلتزم بالمسؤولية وانجرف عن جادة الطريق دون الإلتزام بالتقاليد والعادات الإيجابية في مجتمعه وهذا النوع ينطبق على الجنسين من الذكور والإناث.

كما تأتي كلمة ديوشر بمعنى جمع الثمار والتقاطها في اللغة الفارسية.^(١)

(١) محمد الأرناؤوط : دراسات ووثائق حول الدوشرمة ، الطبعة الأولى ، الاردن:دار قدسية، ١٩٩١م، ص ٣٥

الفصل الأول

نشأة الإنكشارية

المبحث الأول :

الأوضاع العسكرية في أوائل العهد العثماني

المبحث الثاني :

تأسيس الإنكشارية .

المبحث الثالث :

آراء المستشرقين ومن شايعهم حول
الإنكشارية والرد على هذه الآراء .

المبحث الأول :

الأوضاع العسكرية في أوائل العهد العثماني:

منذ ظهور الدولة العثمانية وفكرة بعث الحركة الجهادية من جديد كانت أولى إهتماماتهم وبالتالي كانت القوة الحربية وتطوير الجيش من أولى إهتمامات السلاطين العثمانيين خاصة وأنها تمثل الركيزة الأولى لإنطلاق الفتوحات العثمانية.

ومنذ بداية الدولة العثمانية إعتد السلاطين على المتطوعين للحرب والجهاد، و لم ينتظروا حتى يُنشئوا جيشا خاصا بهم، لأنه لم يكن هناك أي شكل للقوة العسكرية إلا المجاهدين والذين أسهموا في تثبيت أركان الدولة وإرساء قواعدها لذلك إعتدوا على المتطوعين للحرب .

وكان لظهور العثمانيين أثر في تجديد فكرة الجهاد الإسلامي بعد أن انطفأت وتوقفت فترة طويلة من الزمن، وتراجعت على أثر تلك الفتوحات الإسلامية ، ومرت بحالة ركود، فقيض الله الدولة العثمانية لحمل راية الجهاد، ضد أعداء الإسلام وعلى رأسهم الدولة البيزنطية ، التي كانت حدودها متاخمة للعثمانيين في آسيا الصغرى، ثم ظهرت الدول الأوروبية وأعلنت عداؤها للدولة العثمانية، كما كان لظهور البرتغاليين في البحر الأحمر ومحاولتهم إحتلال الأماكن المقدسة الإسلامية ومحاوله الدولة الصفوية نشر المذهب الشيعي دور في ظهور حركة الجهاد العثمانية .

هذا الوضع حتم عليهم الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وهنا تظهر على الساحة حقيقة مهمة فرضت نفسها عليهم إذ كانوا

يندفعون بكل قوة في سبيل الجهاد الإسلامي، ولم تكن حياة الدعة والرفاهية والقصور قد نالت منهم بعد، فحماسهم الديني كان مشتتلاً وضوءه وهاج لم يخبو بعد.^(١)

ولقد تمكن العثمانيون من تحقيق هذا الهدف بفضل الله ثم بفضل تطبيقهم للنظرة الإسلامية والتي تجعل بلاد الكفر هي دار الحرب وبلاد المسلمين هي دار السلام، وبهذه النظرة خاضوا حروب كثيرة لنشر الإسلام، وعلى هذا فإننا نجد ان الدولة العثمانية بقيت على الدوام دولة محاربة وجهادية.^(٢)

وهكذا تبرز أهمية القوة العسكرية ودورها البارز في الفتوحات، فقد حظي الجيش بمكانة عالية الأهمية في حياة الدولة العثمانية، كانت وسيلتهم في الحرب والحكم معاً، ويرى أحد المؤرخين أن الدولة العثمانية كانت عبارة عن جيش قبل أي شيء آخر، وأعتمد في رأيه هذا على أن كبار موظفين الدولة أنفسهم كانوا قادة الجيش.^(٣)

وحقيقة الأمر أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية قبل كل شيء، ولكنها استخدمت القوة العسكرية لمقاومة أعداء الإسلام من

(١) علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى ، دمشق: منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ١٩٩١م ، ص٢٣.

(٢) سيد مصطفى : الإصلاح العثماني في ق ١٨م نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية، تحقيق خالد زيادة، الطبعة الأولى، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م ، ص١٠.

(٣) إسماعيل أحمد ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الثانية، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٩ هـ / ١٩٨٩م ، ص٢٣.

البيزنطيين المجاورين لها في الفترة المبكرة، من جهة الحدود الغربية وأستمرت فتوحاتها في مناطق أوروبا على مر السنين. ولا يمكن أن يفسر أحداً أن الدولة العثمانية أعتمدت على القوة العسكرية كمحرك أول للفتوحات وإقامة الدولة، ولاسيما وأن الجيش العثماني كان على مستوى من الكفاءة الحربية والمقدرة كفرسان بارعين يمتلكون الجرأة والشجاعة التي قد تصل بهم في بعض الأحيان إلى حد التهور، ولكن كان المحرك الأول للفتوحات هو الجهاد الإسلامي ونشر الإسلام في أصقاع جديدة.

والعثمانيون عندما قدموا إلى آسيا الصغرى كانت سمات البداوة من أصالة وشجاعة تظهر عليهم، يجاهدون تحت راية واحدة وهي راية أميرهم، وعند إنتهاء المعركة يدخلون ساحة القتال ويجمعون الغنائم ويقتسمونها، وإذا انتهت الحرب عادوا إلى شؤونهم.^(١)

ويصف أحد مؤرخي الدولة العثمانية أنها نشأت في بادئ أمرها كإمارة غزاة، وشغلها الشاغل هو الغزو العسكري و ذلك للتوسع الإقليمي، وكان الطابع العسكري من خصائصها الرئيسية.^(٢)

ولكن يبدو من الواضح أن الدولة العثمانية في نشأتها كانت إمارة إسلامية عملت على نشر الإسلام في البلاد المفتوحة وبناء

(١) خلف دبلان الوديناني: الدولة العثمانية والغزو الفكري، د.ط ، رسالة دكتوراه مطبوعة ، مكة المكرمة: مكتبة أم القرى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ٩٠. انظر جورجى زيدان: تاريخ الجند العثماني، مجلة الهلال، العدد الثامن، السنة السابعة عشر، ١٩٠٩م / ١٣٢٦هـ ، ص ٤٥٧ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧١، ٤٧٢.

المساجد، وإتخذت سياسة التسامح الديني حتى لا تفرض إعتاق الإسلام على الأهالي، من الجائز أن يكون التوسع هو أحد أهداف الدولة ولكنه لم يكن الشغل الشاغل أو أولى أهدافها، ومن المعروف أن الدولة إذا غلب عليها الطابع العسكري، أنتهت بسرعة ، لأن العقلية العسكرية تفشل في حكم دولة واسعة الأطراف. وهذا ما حدث للدولة العثمانية في نهاية عهدها وليس منذ نشأتها.

وكانت الفتوحات العثمانية نتيجة طبيعية، لأنها أمتلك مجاهدين فرسان في وقت أفقدت فيه الدول المعاصرة للجيش المنظمة^(١). لقد اتخذت الدولة العثمانية أسلوب الفتوحات معتمدة على قوتها العسكرية مثل أي دولة إسلامية مرت في التاريخ فلم تأت بنظام أو عرف جديد وإنما سارت على نفس خطوات الدولة الأموية في الفتوحات الإسلامية.

وقد أضاف مؤرخ آخر ، أن الدولة العثمانية دولة غزاة، وأن الغزو والفتح هما دستورهما ، وأضاف أن الجيش كان الأساس والدولة كانت قاعدة له، والبلاد تسخر لخدمته وحدد أن الجيش كان يقوم بمهمتين: الحرب والحكم، فإن رجال الدولة في نظره يقومون بمناصب الدولة ماعدا القضاء والوظائف الدينية إضافة إلى خوض الحروب.^(٢)

وحقيقة الأمر أن الدين الإسلامي كان الأساس والمحرك الأول للفتوحات، وليس الجيش ، صحيح أنه لا يمكن إنكار أهمية

(١) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧١.

(٢) عبد الوهاب بكر: الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من ق ١٨م ، الطبعة الاولى، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢، ص ٥٧.

الجيش في الدولة العثمانية، ولكن هذه الأهمية جاءت لتحقيق الأساس الأول وهو نشر الإسلام.

كما أن البلاد المفتوحة والتي أصبحت تحت الحكم العثماني لم تكن مسخرة للجيش ، وإنما كان حكم العثمانيين لها حكماً عادياً مثل حكم الدولة الأموية والدولة والعباسية وغيرها من الدول الإسلامية، وإذا حدثت بعض التجاوزات في الفترات المتأخرة من عهد الدولة العثمانية ، فقد كانت من الولاة المحليين ودون علم السلاطين.

أما عن بدايتهم الحقيقية في التاريخ الحديث، فقد ذكر أحد المؤرخين أنه منذ نيف وستة قرون هاجرت جماعة من حوض نهر الفرات العليا ووجهتهم الجهات الغربية وكان يرافقهم قوة مسلحة قوامها مالا يزيد عن ٤٤٤ فارساً بقيادة زعيمهم أرطغرل^(*).

وقد قيل بأن هذه القوة كانت عبارة عن جموع مسلحة من المتطوعين الذين كانوا يهرعون على ظهور خيولهم لتلبية دعوة زعيمهم وإذا أنتهت الحرب ووضعت أوزارها تفرقوا أو أنفرط عقد إجتماعهم وأنصرفوا إلى حيث أتوا.^(١)

وعندما وضع عثمان الأول (٦٩٩ هـ - ٧٢٦ هـ / ١٢٩٩م - ١٣٢٥م) الأساس لدولته الناشئة كانت على أنقاض دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وكان لابد له أن يبحث على من يعاونه في المحاربة والجهاد لبناء دولة إسلامية كبرى، تكون بمثابة حصن

(*) معناه الرجل السليم القلب. لمزيد من المعلومات مؤلف مجهول : تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة حسين ليبب ، د. ط ، القاهرة : مطبعة الواعظ ، د. ت ، ج ١ ، ص ٣-١٠ .

(١) مرجع سابق، ص ٣-١٠ .

يدافع عن الإسلام والمسلمين، وقد جاءت فكرة تجميع المتطوعين الذين يرغبون في الفتح والجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام، جاءت تلقائية نتيجة لحياة البداوة والتنقل التي كانوا يعيشونها^(١).

وكانت هذه فكرة جديدة فعند ظهور الدولة العثمانية كان أكثر الجند في الدول الأخرى، على شكل مرتزقة ومماليك يباعون ويشترىون بالمال أو المقايضة أو جنود من أسرى الحروب^(٢)، وبما أن السلطان العثماني عثمان الأول كان لا يفضل الإعتماد على الجنود المرتزقة لنشر الإسلام، فقد اعتمد على أبناء قبيلة آل عثمان الذين يتجمعون للحرب ثم ينصرفون لقضاء شؤونهم مثل سائر القبائل كما أشير إلى ذلك سابقاً .

وقد كانت أكثر العساكر في عهد السلطان عثمان الأول من فرسان التركمان، الذين كانوا من البدو ليس لهم خبرة في الضبط والربط العسكري ولا الانتظام في القتال^(٣)، ولم يكونوا جنوداً منتظمة تحمل السلاح بشكل مستمر وإنما كانوا يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم^(٤).

وكان الرجال من أبناء قبيلة آل عثمان "قابي خان" كلهم قادرون على الحرب وحمل السلاح حتى أن النساء كن يساعدن

(١) خلف الوديناني: مرجع سابق، ص ٩٠.

(٢) مجلة الهلال: جورج زيدان، ص ٤٥٧.

(٣) أحمد الأنصاري الطرابلسي: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، دط، طرابلس :

مكتبة الفرجاني، دت، ص ٣٣٣.

(٤) مجلة الهلال : جورج زيدان، ص ٤٥٧.

الرجال في المعارك كجميع القبائل البدوية الأخرى^(١)، وكان السلطان عثمان يحارب على رأس الفرسان التركمان والذين يمتشقون حسام المعركة فإذا انتصروا تفرقوا بعد أخذ الغنيمة وعادوا لأشغالهم المعتادة^(٢). كما أنهم لم يلتزموا برداء معين أو لباس خاص ذا طراز محدد لهم ولكنهم يرتدون ما يرغبون به.^(٣)

وعلى هذا النحو فالجيش الذي كونه عثمان لم يأخذ صفة الجيش النظامي الذي تعتمد عليه الدول وقت الحاجة، وإنما كان أفراده يتجمعون وقت الإعلان عن الحرب عند إنتشار المنادين بين قِـوـات العشائر الأخرى^(٤)، فيجتمع آلاف المجاهدين من مختلف المناطق المجاورة ومن القبائل التركية راغبين في المشاركة في الجهاد متلهفين عليه^(٥).

وقد أطلق عليها اسم المرابطين في الحدود " مجاهدي النفير"^(*) وكان يطلق عليهم أهل النفرة وهم الذين يستجيبون لنداء الجهاد

(١) محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني - أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها، د.ط، د.م، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٢) حبيب السيوفي: الإتكشافية في الدولة العثمانية، د.ط.، بيروت: صيدا مطبعة الرحمانية، ١٩٤٠م، ص ١٣.

(٣) مجلة الهلال: جورجى زيدان، ص ٤٥٧.

(٤) أكمل الدين إحسان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تعريب صالح السعداوي، د.ط، إستانبول، ١٩٩٩م، ج ١، ص ٢٨١.

(٥) عبد اللطيف عبد الله بن دهيش: قيام الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، مكة المكرمة: النهضة الحديثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ص ٢٨، ٢٩.

(*) ويطلق عليهم بالتركية Akincilar أي المندفعون. أنظر خلف الوديناني : مرجع سابق ، ص ٩٠.

إِمْتِثَالاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى (أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) (*) وَهُمْ فِي حَقِيقَتِهِمْ لَيْسُوا جَيْشاً نِظَامِيّاً وَإِنَّمَا مِئَاتٌ مِنْ فَرَسَانٍ عَشِيرَتِهِ وَمِنْ الْمَجَاهِدِينَ وَأَمْرَاءِ الرُّومِ وَجُنُودِهِمُ الَّذِينَ دَخَلُوا الْإِسْلَامَ بَعْدَ الْفَتْوحَاتِ الْعُثْمَانِيَّةِ، وَعِنْدَمَا يُطْلَقُ النَّفِيرُ بِقَوْلِهِ "حَيَّ عَلَى الْجِهَادِ". تَتَوَافَدُ عَلَيْهِ الْأَعْدَادُ الْكَثِيرَةُ مِنْ كُلِّ حُدُبٍ وَصُوبٍ، فَإِذَا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا عَادَ الْمَجَاهِدُونَ إِلَى قَرَاهِمِ وَمِنْ حَيْثُ أَتَوْا فِي إِنْتِظَارِ دَعْوَةٍ أُخْرَى. (١)

هُؤُلَاءِ أَتَبَعُوا عُثْمَانَ كَظْلَهُ فِي الْغَزَوَاتِ طَمَعاً فِي الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ وَفِي الْأَجْرَةِ أَيِ الْغَنِيمَةِ (٢).

لَقَدْ كَانُوا فَرَسَاناً مَجَاهِدِينَ رَحَلَ قَضُوا عَمْرَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ مُتَنَقِّلِينَ مِنْ مَعْرَكَةٍ إِلَى أُخْرَى، وَطَالَمَا أَنَّ الْعَمْرَ يَمْضِي بِالْمَجَاهِدِ وَهُوَ مَمْتَطِي خَيْلِهِ، فَإِنَّ أَغْلَبَ إِجْتِمَاعَاتِهِمْ كَانَتْ تَعْقِدُ وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ يَتَبَادَلُونَ خِلَالَهَا الْأَرَاءَ وَالْقَرَارَاتِ الشَّفْهِيَّةِ، وَهُمْ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ فَرَقَةٌ مَدْجُجَةٌ بِالسَّلَاحِ، وَكَانَ بَنُو عُثْمَانَ يَشْكُلُونَ أُمَّةً عَسْكَرِيَّةً يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ "الْأَلْبِي" الْفَارَسُ الْمَجَاهِدُ " وَكَانَ يَحْمِلُ السَّيْفَ (**) مَعَهُ دَائِماً. هُمْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ سَارُوا عَلَى

(*) سُورَةُ التَّوْبَةِ آيَةُ ٤١.

(١) خَلْفُ الْوُزْنَانِي: مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص ٩٠.

(٢) مُحَمَّدٌ جَمِيلٌ بِيهِمْ: فِلَسْفَةُ التَّارِيخِ الْعُثْمَانِي، ص ١٢٥.

(**) كَانُوا يَحْمِلُونَ السَّيُوفَ الَّتِي يَعْتَرُونَ بِهَا، وَلَا تَسْتَطِيعُ تَمْيِيزُ وَاحِدٍ عَلَى الْآخَرِ لِأَنَّهُمْ جَمِيعاً أَطْلَقَ إِسْمَ السَّيْفِيَّةِ عَلَى نَفْسِهِ. أَنْظِرْ عَلَى سُلْطَانٍ: مَرْجِعُ سَابِقٍ، ص ٢٤.

خطى العرب في حب الخيل وإعزازه^(١). وإستخدامه كوسيلة أولى للتتقل والمجاهدة .

وكان هؤلاء المجاهدون يطلق عليهم أكنجي (*) و كانوا يتدربون على الحركات العسكرية تدريباً جيداً، كما أنهم اشتهروا بحسن إنتظامهم في الصفوف، وكانوا إذا سار فرسانهم كونوا صفّاً واحداً مثل الحائط ، وإذا أراد عثمان الحرب بعث المنادين في القرى والبلاد ليجتمع شمل المجاهدين في معسكر الأمير، وإذا أراد عثمان الحرب سراً بعث للمنادي سراً لدعوة من يريد الإشتراك في الجهاد^(٢).

وكان المجاهدون يبدأون خططهم العسكرية بفتح الأراضي المستوية بسرعة، ثم فتح القرى، التي تليها ثم ينشؤون الأبراج الصغيرة حول القلاع ثم يحاصرونها حتى تضطر إلى الإستسلام، وبهذا نجحوا في فتح كثير من المدن مثل إزنيق وإزميد ، وبورصة تلك المدينة التي استغرق فتحها عشر سنوات^(٣).

وفاجأ العثمانيون البيزنطيين بهذا الأسلوب البارع وأثبتوا تفوقهم على القوات البيزنطية لأنهم وقفوا مدافعين عن أراضيهم مجاهدين في سبيل الله ، وكانوا في هجومهم لا يستغرقون وقتاً في

(١) علي سلطان : مرجع سابق، ص ٢٤.

(٢) في بعض الكتب والمصادر أطلق عليها أكنجي بالقاف ، معناها "الفرسان الخفاف" دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، ص ١١١.

(٣) مجلة الهلال : جورجي زيدان، ص ٤٥٧. أنظر خلف الونيناني: مرجع سابق ، ص ٩٠.

(٣) أكمل الدين إحسان أوغلي : المصدر السابق، ص ٣٨١.

تحضير الهجوم، مما أربك الجيش البيزنطي، الذي كان يستخدم أسلوبه المعتاد في ممارسة خطة عسكرية منظمة يسير عليها القائد والجند من بعده، وكانوا فرساناً يحاربون على ظهور خيولهم بخفة وسرعة كالبرق، وإذا انتصروا ربحوا كل الغنيمة، وإذا أنهزموا لم يخسروا شيئاً لأنهم لا يحملون معهم شيء، ولا يمتلكون في أرض المعركة إلا الخيل، وكان شعارهم "ليس هناك خط دفاعي بل سطح دفاعي" وهذا يدل على أنهم كانوا يهجمون بشكل أفقي، وكانت هجماتهم متواصلة صيفاً وشتاءً، مما أربك أعدائهم البيزنطيين. وكانوا يأخذون الأسرى ويضمون البلاد والممتلكات^(١).

وبهذا التنظيم الفني الجيد بالنسبة للإمكانيات المتوفرة لديهم فإن هذه القوة الإسلامية الناشئة استطاعت الوصول إلى أهدافها وتمكنت من إرباك البيزنطيين وإدخال الفرع على قلوبهم من هذه القوة الإسلامية الناشئة.

وهذا يدحض آراء المستشرقين القائلة بأن هذه القوة الأولى كانت تفتقر لمعنى التنظيم الفني وأن العثمانيين لا يفقهون فيه شيء، فهذا يثبت أنهم استطاعوا التفوق على البيزنطيين الذين يدعون العراقة في فن الحرب ولكن جيشهم في الواقع يتألف من جنود منحالين متفسخين، معروف عنهم الهروب من أرض المعركة^(٢). ويدحض أيضاً من يقول بأن كل عثماني مُجنّد في الجيش العثماني كان يُنسب إلى أحد شيوخ الطرق الصوفية وإلى

(١) علي سلطان: المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون وحضارتهم، الطبعة ١٢، بيروت: دار العلم، ١٩٩٣، ص ٤١٠.

أحد التكايا(*)^(١). بهدف التقليل من شأن الجنود العثمانيين وحماسهم وشجاعتهم الإسلامية. ويدحض أيضاً من يقول بأن الدولة العثمانية استعانت في فتوحاتها بجماعات الدراويش .^(٢) إذ أن الدولة العثمانية حرصت على أخذ مشورة العلماء وشيوخ الإسلام في كل أمورها .

ومع هذه الانتصارات وهذه النجاحات المتتالية ومع استمرار حركة الفتح الإسلامي ومجابهة العثمانيين مع البيزنطيين، فقد طفت على السطح فكرة ضرورة وجود قوة مشاة قادرة على حرب الحصون. وذلك لأن حرب الحصون المنيعة كانت تتطلب مقدرة عسكرية غير التي كانت تتمتع بها هذه القوة البدوية، وظهرت الحاجة أمس ما تكون إلى إنشاء جيش مشاة^(٣).

ومع مرور الزمن أصبح إنشاء "قوة المشاة" أمراً ضرورياً لأن القوات المؤقتة لا تأتي إلى الحروب إلا في وقت محدد ولا تتحمل القيام بعمليات حصار طويلة، فأصبح تأسيس قوة المشاة أمراً لا بد منه.^(٤) وعلى سبيل المثال فقد استغرق حصار "بورصة" عشر سنوات لعدم وجود قوة المشاة بينما لو كانت هذه القوة الدائمة

(*) لم يرد ذكر هذا الرأي في كثير من المراجع ولكن إن ذكرت في بعضها فهذا يدل على تغلغل الفكر الصوفي في المنطقة وليس هم من ابتدعه كما يصور بعض المؤرخين.

(١) يلماز أوزتونا، مصدر سابق، ج ١، ص ٨٨.

(٢) أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ص ٣٨١.

(٣) كارل بروكلمان: مرجع سابق، ص ٤١٤.

(٤) أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق، ص ٣٨١.

متوفرة لما استغرق فتحها تلك المدة الطويلة.^(١) أضف إلى هذا وذاك أن استمرار القتال بهذه الفئة القليلة قد يؤدي إلى فناءها وتضاءلها ، وهي أصلها من قبيلة الأتراك العثمانية.^(٢)

كما أن الإحتكاك بالأوروبيين قد أوجد هذه الضرورة، إذ أن الأوروبيين قد تعلموا من حروبهم الطويلة في العصور الوسطى ألواناً من التنظيمات التي أوجدتها تجاربهم العسكرية.^(٣)

وأخيراً فإن هناك نقطة مهمة وهي أن الوقت الذي تتجمع فيه هذه القوة يستغرق مدة طويلة مما يؤدي إلى ضياع الفرصة في فتح المدن، ويُمكن العدو من تنظيم صفوفه وتعزيز مواقعه. كما أن بقاء المحاربين مع قبائلهم يجعلهم أكثر إرتباطاً بها مما يؤدي إلى انفصام عرى الوحدة العثمانية بين الجند، والتي تسعى الدولة العثمانية جاهدة لتحقيقها.^(٤) وبما أن الهدف من الفتوحات العثمانية كان الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، خاصة وأن تهديد الدولة البيزنطية للمسلمين قد زاد، فكان لابد من اتخاذ موقف صارم، وإذا ما أضيف صعوبة تجميع المحاربين، كل هذه الأمور شغلت بال السلطان أورخان وجعلته يفكر ملياً في طرح الحلول،^(٥) هذا

(١) عبد الرحمن شرف : تاريخ دولة عثمانية ، الطبعة الأولى ، إستانبول : معارف نظارات جلية ، مطبعة سي ، ١٣٠٩هـ ، مجلد ١ ، ص ٦٥ . علي سلطان : مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٢) أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، الطائف : دار الحارثي ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ١٩ .

(٣) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، الطبعة الثامنة، القاهرة: مكتبة دار النهضة المصرية، ١٩٩٠م ، ج ٥ ، ص ٨٤٩ .

(٤) خلف الوندناني : مرجع سابق، ص ٩٠ .

(٥) مرجع السابق، ص ٩١ .

بالإضافة إلى أن أورخان كان يعرف أنه لا يمكن لدولة إسلامية تطبيق النظم الإسلامية، أن يكون جيشها من المرتزقة (*)، لأن هذا لا يحقق معنى الجهاد، ولهذا فكر في التجميع الاختياري (**). فهذا يدل على أنه نظام موجود قديماً أو على الأقل نظام أتبعته أي دولة سابقاً. (١)

ومن خلال هذا العرض يتضح أن الجهاد الإسلامي أوجد الحاجة إلى تكوين جيش من قبائل التركمان للفتح و نشر الإسلام. هذه الأسباب جميعاً اجتمعت لتخرج للسلطان أورخان وأخيه علاء الدين (***) فكرة ضرورة إنشاء قوة مشاة، لأن أورخان عندما ورث السلطنة عن والده عثمان كان يعتمد على الفرسان التركمان الذين كونوا نواة الجندية أي فرقة الخيالة، ولكن بحس أورخان الحربي أدرك ضرورة إنشاء قوة المشاة لكي يستطيع من خلالها فتح القلاع والحصون والأسوار المنيعة التي أشتهرت بها بلاد

(*) المرتزقة : جنود بالأجرة، يقاتلون لمن يدفع أكثر ، ولا يقاتلون لمبدأ أو عقيدة دينية.

(**) فكرة الجهاد الإسلامي السائدة منذ بدء الدولة العثمانية كانت تتم عن طريق المناداة للجهاد الإسلامي وينضم كل من يكون قادر على حمل السلاح.

(١) أمير مداح : مرجع سابق، ص ١٩.

(***) إن الأمير علاء الدين هو الأخ الأكبر للسلطان أورخان ، ولكنه تنازل عن الحكم لأخيه الأصغر ، وهذا يعتبر ظاهرة نادرة وفريدة في التاريخ ، ليس على المستوى الإسلامي بل على المستوي العالمي ، لأن هذا يدل على أنه فضل مصلحة السلطنة الناشئة على مصلحته الشخصية ، لقد وجد أن أخيه أفضل في قيادة الدولة فتنازل عن طيب خاطر لأخيه ، بل وأعانه على الحكم .

البلقان بشكل خاص.^(١)

ولأن أورخان وقع على عاتقه مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ونشر الإسلام ، فقد حفل عهده بعدة تنظيمات، خاصة في الجيش حيث وضع نظاماً خاصاً له ^(٢) ساعده على ذلك أخوه علاء الدين الذي وضع نظاماً خاصاً للجيش العثمانية، حيث جعلها بشكل دائم ^(٣) وقد رأى هذا الأخير أن يؤكد إنتصارات العثمانيين القادمة بإنشاء فرقة مشاة مأجورة أطلق عليها اسم (بيادة) وكانوا يسكنون الثكنات العسكرية في إستعداد دائم للحرب ، وقسمت إلى عشرات ومئات وألوف، وعلى رأس كل فرقة من فئة الألف ضابط عظيم الشأن ومن فئة المائة ضابط أقل منه شأنًا وللفرقة العشرة زعيم صغير وأصبحت فرقة عظيمة الشأن ^(٤) وفي بعض الأحيان تكون الوحدة أصغر من عشرة أشخاص ^(٥)، وأطلقوا على ضباطهم أسماء تركية، حيث أنه في الدولة العباسية أطلق عليهم اسم "عريف" في حين أنه في الدولة العثمانية سمي "أونباشي" أي رئيس العشرة،

(١) محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، الطبعة الأولى، بيروت: دار بيروت المحروسة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص ٢٥.

(٢) عاصم تاريخي : عاصم باشا ، ص ٣٤ . أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، الطائف : دار الحارثي ، ١٩٩٨م / ١٤١٩هـ ، ص ١٩ .

(٣) مخطوط: باضيه حاصر ليان : مبدأ قانون يكيجري أو جاغي تاريخي ، ترجمة أیدن أوك سوزي ، ورقة أ ٥ ، محمد فريد المحامي: مصدر سابق، ص ١٢٢.

(٤) حسين لببيب: تاريخ الأتراك العثمانيين، ص ١٠ ، انظر أميره مداح: مرجع سابق، ص ١٩.

(٥) محمد كمال الدسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، د.ط، القاهرة، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦م، ص ١٧.

ورئيس المئة سمي "يوزباشي" وكان عند العباسيين "نقيب" أما رئيس الألف فسمي "بكباشي" وكان اسمه "قائد"^(١). وكان جيش المشاة في بادئ الامر من الأتراك أنفسهم ، ثم بدأت تدخل عناصر أخرى، أدت إلى تحزب كل عنصر لأخيه مما أدى إلى فشل هذا النظام كما سنرى^(٢) ومن الواضح هنا أنهم اعتمدوا في جيشهم على القبيلة التركنية نفسها وتنظيمه حسب الطريقة السائدة في الجيوش الإسلامية. كما أنه أصبح لهم زي عسكري خاص بهم^(*) تعلوه زركشة استمدوا طريقة حياكته من زي القبيلة الأصلي^(٣).

وقد خصصت لهؤلاء أماكن خاصة بهم، يقيمون فيها على استعداد تام للحرب، وخصص لكل فرد منهم راتباً يومياً قدره ربع درهم من الفضة ، ويعتبر مثل هذا المبلغ في ذلك الزمن الغابر كبير جداً بالنسبة لرخص الأسعار وقتها^(٤). وهو ما يعادل أقجة يومياً طوال أيام الحملة حتى يؤمنوا من الإقطاعات جنود المشاة^(٥)، كما أنهم كانوا يعفون من ضريبة الزراعة عند عودتهم إلى

(١) مجلة الهلال : جورجى زيدان ، ص ٤٦٥.

(٢) محمد كمال الدسوقي : مرجع سابق، ص ١٧.

(*) كان الجيش الوحيد المنظم الذي له زي مميز هو جيش الرومان، حيث يرتدي ملابس حمراء، أثناء الحرب. انظر محمود شوكت: التشيكلات و الأزياء العسكرية العثمانية، ترجمة يوسف نعيسه ، محمود عامر، الطبعة الأولى، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨ ، ص ٦٧.

(٣) مرجع سابق ، ص ٦٨.

(٤) حبيب السيوفي: مرجع سابق، ص ٣ ، راجع أحمد محمد الحموي: فضائل سلاطين بني عثمان، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ص ٧٥.

(٥) كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ١٧.

أراضيهم، ويحصلون على أجور أيام الحرب، وقد سميت فرقة المشاة هذه بـ "اليايا" (*) (١) وهذه الوحدة كانت مقصورة على الأناضول فقط (٢).

وقد خصص خمس الغنائم للإنفاق على هذا الجيش، وكان لا يجتمع إلا وقت إعلان الحرب. (٣) ويتصف هؤلاء بالخشونة، وكانوا رجالاً أشداء، ولهم إحساس غريب بعيداً عن الإحساس بالجندية، حيث كانوا يرون لأنفسهم الحق في أن يصبحوا سادة (٤)، وبدأوا إظهار أنهم لا يستطيعون البقاء مشاة. وأخذوا في التمرد (٥)، كما أنهم لا ينفقون بسهولة وكان صعباً إيعاده في فتوحات بعيدة عن إقطاعاتهم ، خوفاً من تمردهم على السلطان، فكان طبيعي أن يفكر السلاطين في استبدالهم متى سنحت الفرصة لذلك. (٦) وبهذا قوي شأنها وزاد طغيانها وأصبحت موضع قلق السلطان أورخان وخوفه (٧).

(*) بالتركية بياذة . انظر دائرة المعارف الاسلامية، ص ٤٦٥.

(١) علي سلطان: مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية، بيروت: دار العلم

للملايين، ١٩٦٠م ، ص ٧٧.

(٣) أميره مداح: مرجع سابق، ص ١٩.

(٤) أحمد شلبي: مرجع سابق ، ص ٨٤٩.

(٥) علي سلطان: مرجع سابق، ص ٢٧.

(٦) ساطع الحصري :مرجع سابق، ص ٧٧.

(٧) حسين لبيب : مرجع سابق، ج ١ ، ص ١٠ ، ١١ .

وهذا لا يدل على فشل العثمانيين في تكوين جيش مشاة نظامي، وإنما يدل على قلة خبرة العثمانيين في مجال المشاة، حيث كانت خبرتهم منصبة على الخيالة، وفشلت تجربة أورخان في تحويل الفارس التركي إلى جندي مشاة، أضف إلى ذلك أن تكتل كل فرقة في الجند لقبائلها أدى إلى إنفراط عقد التحالف الذي كان يسعى إليه أورخان دائماً، كما أدى إلى وجود تناحر بين الجند وتحزبت كل فئة إلى قبيلتها التي تنتسب لها فتجزأ الجيش، كما أن الحرب ضد البيزنطيين كانت تتطلب وجود جيش دائم وجاهز^(١)، مما جعل فكرة القضاء عليهم يشكل خطراً ونقصاً في عدد المحاربين^(٢).

كما أنهم تمادوا في مطالبهم المالية، وغالوا في مزاعمهم مما جعل أورخان يفكر جدياً في الاستغناء عنهم وإحلال غيرهم ممن يسهل قيادتهم، و لهم فائدة أكثر^(٣) خاصة وأن هذا التنظيم لم يصمد للتجارب^(٤).

وبدأت فرقة المشاة في التراجع، وأثبتوا مع مرور الزمن عدم جدارتهم، فكان لابد من التحول إلى فكرة جديدة وهي إنشاء الإنكشارية.

(١) محمد سهيل طقوش: مرجع سابق، ص ٢٥. انظر محمد فريد المحامي: مصدر سابق، ص ١٢٢.

(٢) علي سلطان: مرجع سابق، ص ٢٧.

(٣) حبيب السيوفي: مرجع سابق، ص ١٣.

(٤) كارل بروكلمان: مرجع سابق، ص ٤١.

ولا شك أن القبائل التركمانية وهم البدو الرحل الذين جاءوا من أقصى شرق آسيا الوسطى إلى آسيا الصغرى والأناضول وهم من قام بالفتوحات الأولى ونشر بذور الإسلام هناك، وأكملوا ما كان يقوم به السلاجقة قبلهم، وقد علمتهم حياة البداوة والترحال والشدة فنون القتال ، ولم يكن جل غايتهم من الفتوحات السلب والنهب، كما ذكر المستشرقون المغرضون^(١)، لأن السلب والنهب من دون سبب هو صفة قطاع الطرق والعصابات، ولكن الجدير بالذكر أن هؤلاء المحاربون كانوا يطبقون ما نصت عليه الشريعة الإسلامية في توزيع الغنائم بعد إنتصارهم ، وبذلك يختلفون عن الأوربيين الذين تجاهلته أعلام المستشرقين إذ كانوا يحرقون المدن تماماً بعد إحتلالها ويقومون بسرقة أهلها ويستبيحوا نساءها.^(٢)

أما عن كلمة "إقطاع" فقد تحدث المؤرخون عن ذلك وأولوه إهتمامهم فهاهو المستشرق هاملتون جب يورد قوله " أن نظام الإقطاع قد أصطنعه العثمانيون منذ ظهورهم على ساحة التاريخ، وذلك لتأمين مورد ثابت للجيش يغنيهم عن إنشاء جيش نظامي دائم، ويوفر لهم النفقات، وجاء بشكل مطابق لما في أوروبا" (*) ،

(١) هاملتون جب هارولد بون: المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة عبد المجيد حسين القيسي، الطبعة الأولى، دمشق : دار المدني، ١٩٩٧م ، ج١، القسم الأول ، ص١٠٢.

(٢) مرجع السابق ، ص١٠٢.

(*) في أوروبا نظام الإقطاع منح المحاربين جزءاً من المقاطعات الزراعية مقابل الإلتزام بأن يكونوا دوماً على إستعداد للسير إلى الحرب متى يدعون إليها، لا بأشخاصهم فحسب بل وأن يتولوا أيضاً إعداد عدد من الفرسان والمحاربين من أتباعهم يتناسب عددهم ومساحة الإقطاع الممنوح لكل منهم وأن يجهزوهم بكل ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح وكان هذا النظام الإقطاعي يقوم في أساسه على الملتزم أي صاحب الإقطاع والفلاحين الساكنين في الأرض =

كما صنّفه إلى ثلاثة أصناف " الخاص - الزعامة - التيمار " . وأن العثمانيين سمحوا في وقت متأخر بأن لا يذهب أصحاب الإقطاع للحروب ويكتفوا بدفع المال ولكنه عاد فأوضح أن شروط الخدمة لم تكن واحدة للجميع بل كان بعضهم مفروض عليه الإلتحاق بالجيش^(١) .

ولكن الفتوحات الأولى تمت على يد المجاهدين المتحمسين لنشر الإسلام ، ولقد سبق التنويه إلى أن القبائل التركمانية أخذت على عاتقها أمر الفتوحات الإسلامية لكنهم فئة قليلة ستفنى مع إستمارة القتال ، مما اضطر السلاطين إلى إنشاء جيش المشاه ، وبعد فترة من الزمن بدأوا في إقطاعهم جزء من الأراضي في مقابل الخدمة العسكرية ، وهذا يدل على أن جيش "المشاه" جاء بعد فترة من نشوء الدولة وليس من بداية ظهورها كما أدعى هاملتون ، كما أنه لم يكن يشبه في محتواه إقطاع أوروبا المليء بالعبيد الذين يعملون بالسخرة ، إذ أن صاحب الإقطاع يخرج بنفسه للحرب ، وكان هذا أحد أسباب ضعفهم وتقاعسهم عن الخروج للحروب في فترة متأخرة من إنشاء جيش المشاه في عهد أورخان ، لذا لا يمكن مقارنة نظام الإقطاع في الدولة العثمانية بالإقطاع الأوروبي ، لأن الإقطاع في الدولة العثمانية كان يخضع للدين الإسلامي وأحكامه

= يقوم الفلاحون بزراعة الأرض وحصادها وينفون لأصحاب الإقطاع ما يكفل لهم مورداً من العيش على شكل حصص عينية من المحاصيل الزراعية أو على شكل رسوم وأعشار. للاستزادة عن النظام الإقطاعي في الدولة العثمانية الرجوع إلى محمد عبد اللطيف البحراني: حركة الإصلاح العثماني ، مرجع سابق : ص ٩ .

(١) هاملتون جب : مرجع سابق، ص ١٠٢ .

وليس لتسلط صاحب الإقطاع وجبروته وهذا يناقض آراء المستشرقين ، فإذا كان أصحاب الإقطاع يدربوا فرساناً ليرسلوهم إلى الحرب بدلاً عنهم ، فلما يريدوا الرجوع من المعارك بسرعة من أجل أراضيتهم^(١).

وهكذا نجد أن الجهاد الإسلامي للدولة العثمانية كان يتطلب أفكار متطورة بالنسبة للجيش ، والدولة العثمانية أخذت على عاتقها مسؤولية نشر الإسلام، مما يجعل الدولة في أمس الحاجة إلى جيش حاضر ومستعد للحرب ، وفتح المدن، فكانت بداية الجيوش في الفترة المتقدمة من تاريخ الدولة العثمانية هي الأرضية الصلبة التي مهدت لظهور جيش فريد غريب من نوعه في التكوين وهو جيش الإنكشارية، الذي حول العثمانيين إلى دولة قوية، وحول الجيش من النظام القبلي، إلى النظام الحربي المنظم.

(١) هاملتون جب : مرجع سابق، ص ٩٢ .

المبحث الثاني :- تأسيس الإنكشارية

لقد وقع على عاتق الدولة العثمانية منذ نشأتها ، نشر الإسلام والقيام بالفتوحات الإسلامية ، وحمل راية الجهاد ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، بدأ العثمانيون ممارسة سياسة عسكرية قائمة على الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام ، والقيام بفتوحات أدت إلى جذب القبائل التركمانية للإشتراك في الفتوحات والحصول على الغنائم ، ولكن بعد مرور فترة من الزمن ، أثبتت القبائل التركمانية عدم جدواها في الحروب والفتوحات التي كانت آخذت في التزايد ، وعلى هذا كان لابد من التفكير في إنشاء فرقة قوية تستطع خوض غمار المعارك.

لقد كان الطابع العسكري من خصائص الدولة العثمانية ^(١) ، حيث أشتهر الأتراك بأنهم فرسان بارعون جريئون إلى حد التهور ، على الرغم من أنهم أثبتوا قوتهم على المرتزقة البيزنطية في ميدان القتال ، إلا أن حرب الحصون والمراكز المنيعه تتطلب مقدرات عسكرية أخرى ، والحق أن الحاجة كانت أمس ما تكون إلى إنشاء جيش من المشاة ، ولقد عمل السلطان أورخان بادئ الأمر على تأليف ذلك الجيش من الأتراك أنفسهم ، على غرار الجيوش الفارسية في ذلك الوقت ، وقد كانوا من أصحاب الإقطاعات العسكرية أصلاً ، فكانت الدولة تدفع للمنتخبين منهم أجرة ^(*) واحدة

(١) عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(*) أجرة : تعني لغة الضارب إلى البياض ، وأصلها مغولية معناها نقد أبيض وهي قطعة صغيرة من الفضة ضربت لأول مرة في عهد أورخان عام ٧٢٩هـ وترن أربعة جرامات تقريبا ، ولم=

كل يوم طوال أيام الحملة .^(١)

كما لاحظ الأمير علاء الدين أخو السلطان أورخان الأول وساعده الأيمن في إدارة السلطنة ، لاحظ تحزب كل فئة من هذا الجيش للقبيلة التي ينسب إليها ، ولذلك تم حل هذه القوة بعد وقت قصير وبدأ التفكير في تنظيم جند آخر لا خوف من تحزبه لعشيرته على أن يكون غريباً عن الرعية لا يمت لهم بصله .^(٢) ويكون الهدف الرئيسي من وراء تشكيل هذا الجيش هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ، وفتح المزيد من أراضيهم ، والفتح في البلقان لنشر الإسلام في تلك البقاع ، والاستفادة من البيزنطيين الذين يدخلون في الإسلام ، وذلك لنشر الدين الإسلامي في مجتمعهم بعد أن يكونوا قد تلقوا تربية إسلامية خاصة .

وباشر أورخان إنشاء هذا الجيش في عام ٧٣١ هـ / ١٣٣٠م إلا أن تنظيمه لم يكتمل إلا في عهد السلطان محمد الثاني ثم في عهد السلطان سليمان القانوني .^(٣) ومن ثم كانت الدولة العثمانية أول دولة عرفها بداية التاريخ الحديث أقامت جيشاً عظيماً^(٤) منظماً حسن التدريب ميسور النفقة من المشاه والخياله ،^(٥) في فترة كانت

= تضرب بعد عام ١٢٣٤ هـ . سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، د. ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ، ص ٢٠ .

(١) كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ٤١٠ . أنظر دائرة المعارف الإسلامية : ج ٥ ، ص ١١١

(٢) مخطوط متن باضيه حاصرليان : مبدأ قانون يكجري أوجاغي تاريخي ، ورقة أ ٥ . محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٤) حسين ليبب : تاريخ المسألة الشرقية ، د. ط ، القاهرة : مطبعة الهلال ، ١٩٢١ م ، ص ٢١ - ٢٢

(٥) المرجع السابق ، ص ١٠

الدولة في طور النشأة ، وفي عهد الفتوحات التي هيئات حصول هذه الفرقة الجديدة على خير الغذاء والملبس والهدايا والعطايا ، (١) وقد سبقت بذلك الدولة العثمانية بقرن من الزمان شارل السابع ملك فرنسا الذي أنشأ أول فرقة من الجنود المنظمة عرفتها أوروبا في التاريخ الحديث . (٢) وقبل إنشاء فرقة الرماة بالسهام ببريطانيا ، والذين سادوا بطريقة ونظام في جمع أفراد هذه الفرقة بشكل مختلف عن سابقه ، حتى جاء نظام الجنود الإنكشارية بشكل لا نظير له في التاريخ (٣) .

وعلى أية حال فقد أستطاع العثمانيون عن طريق هذا الجيش أن يحققوا الفتوحات الواسعة التي قاموا بها ، في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وفي القرون التي تلتها . (٤) حيث اعتمدوا عليه في تلك الفتوحات وفي الصمود أمام التحالفات الأوروبية التي واجهتهم . (٥) وبفضل الله ثم هؤلاء انتصرت الدولة العثمانية على فرسان أوروبا وأحرزت أعظم إنتصاراتها وخطت أمجادها التاريخية (٦) وبذلك احتلت الإنكشارية مركزاً ممتازاً بين فرق الجيش العثماني .

وحقيقة الأمر أن السلطان أورخان الغازي ورث عن والده دولة ليست لها قوانين أو عملة ، أو حدود واضحة ويحيط بها

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٥٠ .

(٢) حسين ليبب : تاريخ المسألة الشرقية ، ص ١٠

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : ج ٥ ، ص ١١١

(٤) عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

(٥) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٤٨ - ٢٤٩

(٦) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ١٥ .

جيران أقوى منها . وكان عليه أن يقيم دولة راسخة الأقدام ، والتوسع على حساب جيرانه ، وتحويل اتباعه إلى أمة ، فالتفت أورخان في بداية حكمه إلى سن القوانين ، وإحداث التنظيمات الضرورية لحماية إمارته وأدرك أن الأعباء الملقاه على إمارته الصغيرة أكبر من إمكانياتها خاصة بعد أن أضحت الدولة البيزنطية تنظر إليها بعين الخوف ، ولهذا عني أولاً بإعادة تنظيم الجيش .^(١)

وكان أورخان قد قرأ كتاب لنظام الملك الوزير السلجوقي وهو سفر نامة وهو كتاب في فن الحكم ، وتجاربه ، والأنظمة والدواوين ، وقد وضع نظام الملك تفصيلاً عن الطريقة المثالية لإيجاد قوة محاربة ، إذ أشار إلى اختيار عدد من الأولاد في سن مبكرة ، وتقوم الدولة بتعليمهم والعناية بهم ، وتعليمهم الإسلام وفنون الحرب واللغات والتاريخ والمنطق ، وهكذا بدأ أورخان في البحث عن مصادر جديدة للقوة المحاربة^(٢).

وقد استحسن هو وأخيه علاء الدين^(٣) هذا النظام وشرعوا في إنشاء جيش نظامي من المشاة يسمى الإنكشارية.^(٤)

(١) عبد الرحمن شرف : تاريخ دولة عثمانية ، ج ١ ، ص ٧٠ ، محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٤ ، ٢٥ . خلف الوثيناني : مرجع سابق ، ص ٨٢ . أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م ، مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٢) عبد الرحمن شرف : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٢ ، أميرة مداح : مرجع سابق ، ص ٢٠ .

(٣) تعزو الروايات المتداولة أن التشريع العثماني الأول ، وتنظيم الجيش إلى الأمير علاء الدين . الذي كان رجل سلام ، أعتزل العالم ، وهو في سن الصبا ، ولم يشترك في قتال قط ، فرض إقتسام أراضي عثمان ، ثم عينه أورخان صديقاً أعظم ، ولقبه بالباشا ، وقام بسن القوانين ، وتنظيم الجيش ، أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص ٣٨ .

(٤) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٤٧م ، ص ٣٥ .

وقد رأى أورخان أن يستفيد من أسرى الحرب في المعارك الدائرة على حدود العالم المسيحي ، ثم تطور الأمر وصارت تقدم الأسر المسيحية أبناءها لإلحاقهم بهذه القوة الجديدة مستفيداً من خمس الغنائم التي يحصل عليها السلطان كحق شرعي له في الإنفاق على هذا الجيش .

وبدا أورخان منذ عام ٧٣١ هـ / ١٣٣٠م في تكوين الجيش النظامي الجديد " يني جري أو يكي جري " الذي عرف محرفاً بالإنكشارية .^(١)

ولأن الدولة العثمانية دولة إسلامية منذ نشأتها فقد ارتبطت بالطرف الصوفي^(*) كمظهر إسلامي ، لذلك صحب أورخان الأطفال في نفس اليوم إلى الشيخ بكتاش^(**) صاحب الطريقة المشهورة البكتاشية التي كانت منتشرة في المنطقة آنذاك وطلب منه

(١) على سلطان : مرجع سابق ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(*) يؤخذ على الدولة العثمانية أنها آزرت الطرق الصوفية منذ نشأتها ، فقد أولتهم برعاية وبالمال وجعلت فرقة في الجيش تابعه لهم ، وأنتسب السلاطين للطرق الصوفية . وانتشرت في البلقان مثل المولوية والنقشبندية والبكتاشية والرفاعية . أنظر الصفصافي أحمد المرسى : الدولة العثمانية والولايات العربية ، مجلة الدار ، العدد ٤ ، السنة ٨ ، رجب ١٤٠٣ هـ - إبريل ١٩٨٣م ، ص ٧٢ .

(**) ولد الحاج بكتاش في نيسابور سنة ٦٤٥ هـ ، وفي سنة ٦٨٠ هـ ، أشار عليه الشيخ أحمد يسوي بالتوجه إلى الأناضول ، وسافر إليها واستقر بمكان بالقرب من قبر شهير وتوفي في ٧٣٨ هـ في حين تشير الرواية الأخرى أنه كان رجلاً من خرسان في بلاد فارس عاش في منتصف ق ١٤م وكان لديه كرامات ، كما أنه كان ولي من أولياء الله ، أغدق بركاته على الإنكشارية . أنظر الصفصافي أحمد مرسى : مرجع سابق ، ص ٥٦ . انظر إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، دط ، القاهرة ، ١٩٤٦م ، ج ٢ ، ص ٦٧٩ . انظر دائرة المعارف الإسلامية : ج ٢٧ ، ص ٤٦٧ ، ٤٦٨ . كما أن حاجي بكتاش عُرف بإسم سيد محمد أفندي في زمن السلطان أورخان ولكن خلفاء الحاج بكتاش أدخلوا في الشريعة ما ليس منها . محمد عبد اللطيف البحر اوي : مرجع سابق ، ص ٥١ .

أن يبارك الجيش الجديد ، فأعطى كل واحد منهم قطعة من طرف عباءته فعلقها الضابط على رؤوسهم تبركاً بها ، فكانوا ينسبوا قطع اللباد الموجودة في أغطية رؤوسهم إلى القصة السابقة . (١)

وقال " سيدعى هؤلاء الجنود يني شري فيكون وجههم أبيض بهياً ، وساعدهم مريعاً قوياً ، وسيوفهم مؤسلة ماضية . فالنصر يلزمهم في الحروب التي يخوضونها ، ولا يرجعون أبداً من ساحة القتال إلا وراية الظفر معقودة لهم " . (٢) وبعد هذه المقابلة بدأوا يلبسون قلنوسة من اللباد الأبيض كالتي كان يلبسها الشيخ بكتاش ، مضافاً إليها من الخلف قطعة قماش تدلى خلفهم ، تذكراً من الشيخ ، وكانوا يعلقون بطرفها ملعقة خشب ، ومنذ تلك الزيارة أتبعوا الطريقة البكتاشية حتى أن قائدهم الأعلى كان شيخ تلك الطريقة . (٣) وعلى عكس تلك الرواية هناك فريق من المؤرخين والباحثين يتشككون في صحتها ، بل ينفونها نفياً باتاً تأسيساً على أن الحاج

(١) عاشق زاده : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، د. ط ، ١٣٣٢هـ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ ، محمد عبد اللطيف البحراوي ، من خصائص تاريخ العثمانيين ، مجلة الدار ، العدد ٤ السنة ١٣ رجب ١٤٠٨ هـ - فبراير ١٩٨٨م ، ص ٢٠٤ ، محمد عبد اللطيف البحراوي : مرجع سابق ، ص ٥١ ، . ، زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ٣٤ ، عرفان كوندوز : الدولة العثمانية والتصوف ، د. ط ، إستانبول ، ١٩٨٤م ، ص ١٣٣ ، أحمد جودت : تاريخ جودت : بيروت ، ١٣٠٨هـ ، ج ١ ، ص ٣٩ . أنظر أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الصادر ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

(٢) محمد جميل بيهيم ، فلسفه التاريخ العثماني ، ص ١٢٥ - ١٢٦ . أنظر حبيب السيوفي ، مرجع سابق ص ٤ ، ٥ . حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج ١ ، ص ١١ ، ١٢ .

(٣) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٤٨٨ ، ٤٩١ . أنظر أيضاً محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

بكتاش كان قد جاز إلى ربه قبل إنشاء أو جاق الإنكشارية بقرن من الزمان .^(١)

على أية حال ترى الدراسة أن الإنكشارية ارتبطت إرتباطاً وثيقاً منذ نشأتها بالطريقة البكتاشية سواء كانت قصة مقابلة الشيخ بكتاش بهولاء الأطفال صحيحة أم لا ، فإن إرتباطهم جاء مبكراً جداً ، والدليل على ذلك أن جميع حركات العصيان التي كانت تقوم بها الإنكشارية نجد أن شيوخ البكتاشية كانوا يساندونهم فيها ، وفي بعض الأحيان يشتركوا معهم ، كما أننا نجد أنه في أعقاب القضاء على الإنكشارية ، يأمر السلطان محمود الثاني بإلغاء هذه الطريقة وإغلاق تكاياها .

وقد كان الإنكشاريون ملتصقون إلتصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشية وعلى اتصال وثيق بهم ، ويظهرون نحو شيوخها طاعة تامة وصلت إلى حد الولاء العميق ، ولذلك كان يطلق على الإنكشارية أحياناً "عسكري بكتاشية" أي أبناء الحاج بكتاش ، والواقع أن الأهمية السياسية التي اكتسبتها الطريقة البكتاشية إنما يرجع إلى إرتباطها الوثيق بالإنكشارية الذين كانوا ينظرون إلى شيوخ هذه الطريقة بمثابة أئمة لهم^(٢)

ومن ثم نجد أن الإنكشارية قد انضموا تحت الطريقة البكتاشية، ويقال أن الأورطة العثمانية قد أعترف بإرتباطها

(١) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٦ ، ٢٧

(٢) عاشق باشا زاده : مصدر سابق ، ص ٢٠٤ ، ٢٥٠ . عبد العزيز الشاوي: ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٤٨٠ ، ٤٨١ : أنظر دائرة المعارف الإسلامية: ج ٧ ، ص ٤٧٠ .

بالبكتاشية رسمياً عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م ، وكان عدد الشيوخ ثمانية ممن سكنوا ثكنات الإنكشارية . وارتبط الطرفان بعلاقات شخصية حميمة متبادلة . (١)

نظام الد وشرمة :

بعد أن أُنْتُقِل الأتراك إلى الأراضي الأوروبية ، وتضاعفت فتوحاتهم في منطقة الروملي زادت حاجتهم إلى الجنود ، فاتجهوا لأجل هذا إلى الإستفادة من أسرى الحرب بموجب قانون عرف بإسم " ينجيك قانوني " أي قانون الخمس الذي يحتل أنه صدر عام ٧٦٥هـ / ١٣٦٣م . فكان ينص على أن تحصل الدولة على خمس أسرى الحرب حسب الشريعة الإسلامية . وكان يجري في البداية إلحاقهم بأوجاق الإنكشارية بعد مرحلة تدريب قصيرة ، فلما رأوا بعض المحاذير في ذلك قرروا أن يسلم هؤلاء الفتيان من أسرى الحرب للأسر التركية في الأناضول ، بذلك يمكن للأسرى أن يعملوا بالزراعة لقاء أجر زهيد ، ويتعلموا في الوقت ذاته العادات والتقاليد الإسلامية والتركية ، وكانوا يتلقون التعليم العسكري الأساسي في أوجاق العجمية الذي ينتقلون له حيث يتم تحويلهم إلى أوجاق الإنكشارية - وهو ما سأحدث عنه . فيما بعد - الذي تشكل في غاليبولي على أيام السلطان مراد الأول . (٢)

وهذه كانت أول وسيلة للحصول على الأطفال المسيحيين ، كما كانت هناك وسائل أخرى منها الهدايا أو شرائهم من النخاسين

(١) على سلطان : مرجع سابق ، ١٦٧ .

(٢) تاريخ أبو الفاروق : تاريخ عثمانيد ٥ ، ج ١ ، ص ٧١ ، أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٨٢ .

وهم تجار الرقيق والجواري ^(١) غير أنه كانت أهم وسيلة هي جمع الأطفال الذين فقدوا أهلهم في الحروب وتعليمهم الدين الإسلامي.

بعد أن ينتهوا من جمع الأطفال يجري تنظيمهم في قوافل يتراوح عدد أفرادها بين مائه إلى مائتي غلام ، ثم يتم فحصهم لأخر مره ، قبل إرسالهم إلى المركز ، وبعد ذلك تُجري لهم عملية الختان - على إعتبار أنهم أصلاً من المسيحيين ثم يؤخذ البعض منهم لأجل السراي. ^(٢) ثم يربوا تربية إسلامية عسكرية وفكرية ، ويعتلقوا الإسلام ، ويتعلموا اللغة التركية ، ويعيشون في ثكنات خاصة بهم ، لا يختلطوا بالمجتمع ، وإنما وهبوا أنفسهم للدفاع عن الدين الإسلامي والسلطان . ^(٣)

كذلك يتم تدريبهم على الفنون الحربية فهم ليس لديهم عملاً غير الجندية ، ولا دين غير الإسلام ، كانوا في غاية الطاعة والثبات في المعارك . ^(٤) وهكذا نجد أن أورخان أنشأ جيشاً اعتمد فيه على أبناء النصارى الذين لا أهل لهم ، وتنشئتهم على الإسلام . ^(٥) وقد

(١) عمر عبد العزيز عمر : محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية ، د . ط ، القاهرة : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٢) أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٣ .

(٣) عبد العزيز نوار : تاريخ الشعوب الإسلامية العصر الحديث ، د . ط ، القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ص ٦٣ . أحمد جودت ، ورقه ٩ .

(٤) جورجى زيدان : مصر العثمانية ، تحقيق محمد حرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الهلال ، إبريل ١٩٩٧ م ، ص ٦٥ .

(٥) زين العابدين شمس الدين نجم : الوظائف العسكرية والتنشكيلات القتالية في العهد المملوكي والعهد العثماني ، ص ٢٩ .

أخذ أورخان يشجع تحويل الرعايا المسيحيين إلى رعايا عثمانيين مسلمين . (١)

وقد إتبع أورخان في ذلك المبدأ الإسلامي " لا إكراه في الدين " . وقد دُرِّبوا هؤلاء الغلمان تدريباً جسمانياً وعقلياً حتى تظهر مواهبهم ، ثم قُسموا إلى قسمين :-

القسم الأول : يختارون من تظهر عليه علامات الذكاء والفتنة ، ويطلق عليهم " أوج أوغلان " وهؤلاء يرحلوا^(٢) لينشأوا في دور الحجاب الأربع ، في أدرنه ، وفي بيره . وكانوا يصنفون أصنافاً خمسة . (٣) ومن الصنف الخامس كان يؤخذ المرشحون إلى سراي القصر ، ويدربون في مدرسة يتخرج منهم مرشحون يتولون أعلى مناصب الدولة ، فيصلون إلى مناصب الوزراء والصدور العظام ، وكانوا جميعاً يدربون تدريباً إنسانياً رغم صرامته ، وكانت الغاية من تلك الصرامة خلق رجال شجعاناً أكفاء ، وكان سليمان القانوني ٩٢٦هـ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠م - ١٥٦٦م نفسه يتفقد أطفال مدرسة القصر ليلاً ليطمئن على أحوالهم . (٤)

القسم الثاني :- إرسال باقي الأطفال لينضموا إلى أوجاق العجمية لمدة سبعة أو ثمانية أعوام كخطوة مبدئية لينتقلوا بعدها إلى أوجاق

(١) محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين ، ص ٢٠٤ .

(٢) محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٩٣م ، ص ٧٧ . أحمد محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ٥٨ .

(٣) كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ٤٦٥ .

(٤) محمود السيد : تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ، الطبعة الأولى ، جده : مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٩٩م ، ص ١٩٩ .

الإنكشارية، أو إلى أحد الفرق الأخرى ، حيث يتم تسجيل أسماء وأوصاف الأطفال الداخلين إليه في دفتر يقال له كوتوك أي "السجل" وهي عملية يطلقون عليها اصطلاح " قيويه جيقمه " أو " نذكر كاه " أي الخروج إلى الباب أو التخرج . وعندئذ تزداد لهم الرواتب ، وأستمر أوجاق العجمية يقوم بهذه الوظيفة حتى عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م^(١) وهنا يجدر الحديث عن الغلمان الأعاجم.

ويراد بالغلمان الأعاجم الصبيان الذين يقيمون في الثكنات للتمرن على الحركات العسكرية استعدادا للدخول في الوجاقات وكانوا على زمن أورخان ألف غلام من النصارى ، ثم أخذ السلاطين يستكثرون منهم ، ويبينون لهم الثكنات ، أو القلاع لإقامتهم . وكان لهم في إختيارهم شروط من جملتها أن يكونوا صواح الأبدان والعقول فلا عجب إذ تألف منهم جند كاد يفتح أوروبا ، ويكتسح العالم المسيحي.

ويجمع أولئك الغلمان من خمس السلطان في الغنائم ، ثم صاروا يجمعونهم بالشراء ولهم ديوان تقيد فيه أسماؤهم ، ومدارس يتعلمون فيها الحركات العسكرية ، وأساتذة يعلمونهم كل ما يلزم للجنديه ، وهؤلاء غير الذين كانوا ينتظمون في الجندية الإنكشارية. كانوا يقومون أيضاً بأعمال أخرى مثل الإشتغال بالنجاره لإصطناع

(١) أكمل الدين إحسان الدين أوغلي : مصدر سابق ، ج١ ، ص ٣٨٤. أنظر أحمد جودت : تاريخ جودت ، تحقيق : عبد اللطيف محمد الحميد ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م ، ص ١٧١ ، ١٧٢ . أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول " BOA " تصنيف مهمة دفترى رقم ٣١٢/٧.

السفن ، ولهم ثكنات خاصة بذلك . ومنهم فئة قليلة يلحقون بأغا^(*) الإنكشارية لخدمته في الحلاقة وغيرها ، ويسيرون وراءه إذا مشى في المدينة ، والذين يعرفون التركية منهم كانوا يلحقونهم بالقصر السلطاني للخدمة في المطابخ.

هذا يدل على مدى القوة التي وصل إليها أغا الإنكشارية ، والمكانة التي أحتلها في الدولة العثمانية ، حتى أنه كان يجعل الجند الصغار يسيرون خلفه .

وكان الغلمان أخلاطاً من الألبان ، والبوسنة ، واليونان ، والبلغار ، والأرمن ، سكان الروملي ، فهم على الغالب من سكان تركيا وأروبا : فكانوا يرسلون القواد لجميع أولئك الغلمان من ضفاف الدانوب وغيرها ، وكلهم مسيحيون ، ويظهر أنهم مازالوا يجمعونهم من أبناء المسيحيين إلى أواسط القرن الحادي عشر الهجري ، ثم صاروا يدخلون فيهم أولاد الأجناد ، أو غيرهم من المسلمين^(١).

وكان للغلمان الأعاجم هبات ، وأطعمة ، وألبسة ، خاصة بهم، وكانوا يقسمون إلى أوطه قد يصل عددها أحياناً إلى خمسين

(*) عند مازاد الاعتماد على الإنكشارية ، زاد نفوذ الأغا وتمركز في العاصمة ، وصار مسؤولاً عن تعيين أغا حامية الإنكشارية في مركز كل ولاية . وهذه الحامية تقيم في القلعة ووظيفتها حراسة أبواب المدينة وأسوارها ، وفي بعض الأحيان الإشتراك في حملات الوالي المحلية أو حملات السلطان على الجهات الرئيسية . أنظر الصفصافي أحمد المرسى : الدولة العثمانية والولايات العربية، ص ٨١ .

(١) جورجى زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٥ .

أورطه ولكل أورطة ثلاثة ضباط يسمون "جوربجي" و"ميدان كخليا" و"القوبجي".^(١)

وكانت أول ثكنة للإنكشارية في أدرنه ، ثم زاد هذا العدد في إستانبول وكان أكبر ضباط في أوجاق العجمية يسمى غاليبولي وكان ينقسم الأوجاق إلى ثمانية بلوكات " المشاة - يايا " يترأس كل واحد منها ضابط يعرف بإسم " بلوكباشي"، ويضم الأوجاق أربعمئة جندي ، ولم تلبث أهمية هذه الأوجاق أن تضاعلت بعد فتح القسطنطينية أواسط القرن الخامس عشر الميلادي وتحويلها إلى إستانبول، إذ جرى فيها تشكيل أوجاق جديد للعجمية أكبر وأكثر نظاماً. أما المشاة الذين يُعرفون باسم "جماعت" الجماعة ، وينقسمون إلى مئة وواحد بلوك.^(٢)

هذا عن الغلمان الأعاجم ، أما الإنكشارية فكانت تدريباتهم تختلف ونظامهم مختلف :

فعلي النسق المتبع في الجيوش العثمانية ، فإن جنود الإنكشارية كانوا يدرّبون على الولاء والانضباط الكامل ، وكانت قواتهم تسكن في ثكنات خاصة بهم ، وحسب نظام دقيق فيما بينهم، ويجري الحفاظ على الحماس الديني لديهم.^(٣)

(١) جورجى زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٦ .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول (BOA) تصنيف مهمة دفترى رقم ٧/ ص ٣١٢ رقم ٢٦/ ص ٩١ . أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق ، ص ٣٨٣ ، عاشق زادة : تواريخ آل عثمان ، ص ١٢٠-١٦٠ .

(٣) الصفصافي أحمد المرسي : إستانبول عقب التاريخ ، ص ٥٦

وحسب الأنظمة التي وضعها السلطان سليمان القانوني كانت هذه الثكنات ، في العاصمة وهي مما كانت تضم فيلقاً مكوناً من مائة ألف إنكشاري يعملون بشكل دائم على التدريب وعلى الفنون العسكرية . (١)

وقد كان قائد الفوج رقم أربعة وخمسون هو الذي يترأس هذه التدريبات بصفته رئيس التدريب العسكري ، وفي أوقات التدريب، فإن رئيس كتاب الفوج مع ستة مأمورين يحضرون التدريبات ، التي تشارك فيها أربعة طواوير دفعة واحدة ، والمكان المخصص لذلك يعرف بإسم ساغرديم محله ، ومكانه خارج طوب قابي التي هي إحدى بوابات المدينة القديمة . ويتدربوا في كل سنة من الرابع من مايو إلى أول نوفمبر ، حيث يتدربوا على استخدام البنادق مرتين في الأسبوع ، مره في سعد آباد " حقل المياه العذبة " ومرة في ساغرديم محله . وفي الشتاء أيضاً يجب أن يستغلوا كل الأيام المشرقة ليكونوا في أماكن التدريب ، وهكذا يكونوا دائماً عاكفين على العمل والدولة هي التي تؤمن البارود والرصاص لهم .

هذه القوانين المتعلقة بالتدريب تسري على كل الإنكشاريين الموجودين في المقاطعات أيضاً ، وليس في العاصمة فقط ، فجميع الإنكشارية خاضعون للتجنيد . (٢) وكانوا على ثلاثة أنواع:

(١) محمود رئيس أفندي : التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية ، تعريب خالد زياده ، دط ، دم،

النوع الأول :جنود الخدمة الفعلية أو الإشكندجي (Eschkindjis)
النوع الثاني : الأفراد المسجلون للإنخراط بهذا الجيش ، ليمأوا
الفراغ فيه عند الضرورة ، أي في زمن الحرب ، بينما يتابعون في
الافوقات العادية أعمالهم ومهنتهم ، ولا يقبضوا أجرهم إلا عن الفترة
التي ينخرطون خلالها في الجيش ، وكان عدد هؤلاء يربو عن
المائة والخمسين ألف رجل .

النوع الثالث :- هم العثمانيون ، على إختلافهم ، وكان عددهم
كبيراً ، وكان هؤلاء يفتخرون بأن ينتسبوا إلى هذا الجيش العريق
في دولتهم ، فيحملون إسم الإنكشاري ويلبسون زيّه ، ويسمون
المرشحون " Tessracdjis " . (١)

أما عن قوانين الإنكشارية ، فهي تتلخص في الآتي :-

- ١- الطاعة العمياء لقوادهم ، وضباطهم ، أو من ينوب عنهم .
- ٢- تبادل الإتحاد بين الفرق ، كأنها فرقة واحدة ، وتكون مساكنها
مقاربه .
- ٣- التجافي عن كل ما لا يليق بالجندي الباسل من الإسراف ، أو
الانغماس في الملذات مع التعود على روح البساطة في كل
شئ .
- ٤- الإخلاص في الإنتماء إلى الحاج بكتاش ، من حيث الطريقة
مع القيام بفروض الإسلام .

(١) ياسين سويد : التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين الإمارة المعنينة ١٥١٦م
- ١٦٩٧م ، الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات ، ١٩٨٠م ، ص ٩٣ .

٥- إن الحكم عليهم بالإعدام ينفذ بشكل خاص - سيأتي الحديث عنه فيما بعد .

٦- يكون الترقى في المراتب حسب الأقدمية .

٧- لا يجوز أن يوبخ الإنكشارية ، ولا يعاقبهم غير ضباطهم .

٨- إذا عجز أحدهم عن العمل يحال على المعاش .

٩- لا يجوز لهم أن يتزوجوا .

١٠- لا يجوز لهم إطالة لحاهم .

١١- لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم .

١٢- لا يجوز لهم أن يتعاطوا عملاً غير الجندي .

١٣- يقضون أوقاتهم بالرياضة البدنية والتمرين على الحركات العسكرية .^(١)

وإذا تدبرنا هذه القوانين وعلمنا مدى الأعمال العظيمة التي قام بها هؤلاء الجند من فتوح عظيمه لمصلحة الدولة العثمانية .^{(*) (٢)}

(١) جورجى زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٥٩ .

(*) يروي أن السلطان سليم أحتاج في اثناء فتوحه بين حلب ومصر إلى المال ، فأقترض دفتر داره مبلغ ٦٠,٠٠٠ ريال من أحد التجار اليهود ريثما تصل الحملة ومعها النقود . فلما وصلت بعث الدفتردار إلى التاجر أن يأتي لقبض المال فأتي الرجل ، وقال له أنه يريد أن يتخلى عن المال مقابل ادخال إبنه في جند الإنكشارية فرفع الدفتر دار الأمر إلى السلطان سليم . فأكبر السلطان ذلك وبالغ في توبيخ الدفتردار حتى أنه قال له " لو لا أن يقول الناس أن السلطان سليماً قتل تاجراً طمعاً في ماله لأمرت بقتلك وقتل كل اليهود حفاظاً على قدسية وخصوصية الإنكشارية وأمر بنفع المال إلى صاحبه، على أن لا يعود لهذا مرة أخرى ، فلا يتجاسر غربياً على الدخول في الإنكشارية إلا ونصيبه القتل " . أنظر جورجى زيدان ، تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٥٩ وقد أكد هذا الأخير أن سليم قتل اليهودي برغم أنه في الرواية أكد سليم أنه لن يقتل اليهودي وأنه أعاد له المال . راجع سليمان قوجسه باش : التدخل الأجنبي في الثورات العثمانية ، د. ط ، إستانبول ، ١٩٩٣م ، ص ١٢ .

(٢) جورجى زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٠ .

أما عن تقسيمات الإنكشارية : كان الجيش الإنكشاري يسمى أوجاق وكانت الترقية تحدث بحصول الإنكشارية على الرتبة الأعلى بعد رتبته بشكل عام ^(١) وأوجاق معناها موقد النار ^(٢)، وكان مؤلفا من أربعة أنواع من الفرق تتألف كل منها من عدد من الوحدات التي تدعى أورطة ، وهي الوحدة الأساسية في هذه الفرق جميعها، ويتراوح عددها بين مائة وخمسمائة رجل ، أي بين سرية وكتيبة من خمسمائة رجل ، ولم يكن عدد الأورطة موحداً بين مختلف الفرق في الجيش الإنكشاري كما كانت هذه الوحدات موزعة بين العاصمة إستانبول ، والأقاليم، ومواقع الحدود. ^(٣)

وقد كان يوجد في عصر السلطان سليمان القانوني مائة وخمسة وستين أورطة ، وكل أورطة من تلك الأورط تتولى تربية الغلمان وتنشأهم حتى يتخرج منهم الضباط ، وكان هؤلاء الضباط تحت مسؤولية أو إشراف أحد أغوات الإنكشارية ، أو أحد القادة الباشوات. ^(٤)

ويلي الأورطة من حيث الأهمية ما يلي :

١- السكمان أو السكبات وهي تعني خادم الكلاب ، أو حارسها ،

^(١) Abdulkadir Rzcan : fatin'in Tes kilat kanunnamesi ve Nizam -1 Alem icin kade s Katli meselesi , istanul 1973 . TD . s, 33.31

^(٢) على سلطان : مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

^(٣) ياسين سويد : مرجع سابق ج ١ ، ص ٩١-٩٢ . أنظر عبد الكريم رافق ، ص ٤٨ .

^(٤) ألبرت هويرلبير : إدارة الإمبراطورية العثمانية في عهد القانوني ، الطبعة الأولى ، إستانبول : دار نشر سورج ، ١٩٨٧م ، ص ٩٥ . أنظر محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٧٧ .

وسموا كذلك لأنهم كانوا يقودون الكلاب أمام أمرائهم عند مسيرهم للصيد ، وقد كانت بلوكات السكبانية مستقلة في البداية ، ثم ألحقت بأوجاق الإنكشارية في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي - سوف يتم الحديث عنها فيما بعد -

٢- أبناء الأعاجم ، وهم الذين سبق الحديث عنهم .^(١)

٣- المشاة "يايا" وكانوا يعرفون بإسم "الجماعة" وكانت موزعة بين العاصمة أستانبول، ومواقع الحدود.^(٢)

أهم الرتب والوظائف في الجيش الإنكشاري :-
١- أغا^(٣) الإنكشارية :-

"يني جري أغاسي" هو القائد الأعلى للجيش الإنكشاري بإعتباره أعلى ضباط هذا الجيش رتبة .^(٣) وكان للواء الإنكشارية ضباط آخرين ذوي رتب عالية، مثل السكبان باشي وكتخدا العبيد ورئيس فرقة الألغام ، وكاتب الإنكشارية وكان يطلق على هؤلاء الضباط قديماً أغوات القطار ثم أطلق عليهم بعد ذلك أغوات الإنكشارية .^(٤) وأغا الإنكشارية يعد شخصية بارزة في الدولة العثمانية والقصر السلطاني ، وكانت القوات التي تحت قيادته تعد من أهم الفرق فهي سلاح المشاة ودائماً تحت تصرف السلطان ، كما أنه بحكم منصبه ومكانته شغل وظيفتين أخرتين ، هما: رئيس قوات

(١) مخطوط متن باضيه حاصر لايان : مبدأ قانون بكيجري ، ورقة ٢٥ ، ٢٦ ، انظر ص ٤١ . ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٢) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص ٣٨٤ .

(٣) الأغا :- صار معناها الرجل الذي تم إخصاءه بعملية جراحية وهو طفل صغير .

(٤) مخطوط متن باضيه حاصر لايان : ورقة ٢٥ ، ٢٦ . شمس الدين سامي : قاموس مادة يكجري ،

ص ١٥٥١ ، ١٥٥٢ ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٢ .

(٤) عبد الرحمن شرف ، مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

الشرطة في العاصمة أستانبول ، وعضوية مجلس الدولة وإن كانت مثل هذه العضوية لا تعد وظيفة بالمعنى العام^(١)

وأغا الإنكشارية هو الشخص الوحيد الأمر الناهي لجنود الإنكشارية وهو يعد بمثابة قائد القوات البرية ، ولأغا مكانة خاصة في القصر السلطاني ، حيث له محلاً مخصوص وباب وديوان يجتمع فيه وينظر في كل الأمور العسكرية ، ومن هنا جاءت خطورة هذا المنصب ، فقد كان يمتلك إمتيازات خاصة وصلاحيات جسيمة منها تحديد مقدار وعدد الجنود الموجودين في القلاع والأماكن الإستراتيجية.^(٢)

وعلى هذا الأساس كان لهم تأثير مباشر على الإنكشارية ، فقد حرصوهم في اغلب تمرداتهم ، مستندين على صلاحياتهم الواسعة على الإنكشارية خاصة وعلى السلطان والدولة عامة وبعد فساد الإنكشارية ، أصبحوا المتحكمين في كل الأمور .

وكان يجري إختيار أغا الإنكشارية للتعين في هذا المنصب من قبل السلطان مباشرة ويختاروا من ضباط الأوجاق حتى القرن العاشر الهجري، أوائل القرن السادس عشر الميلادي ويجري تنصيبه في القصر السلطاني ويكسى خلعة الأغا^(٣)، أما بعد عودة السلطان سليم الأول من حملة إيران، فقد تغير نظام إختيار أغوات الإنكشارية فكان يجري إختياره من بين رؤساء السكبانية بوجه عام، ولما بدأ يشارك رؤساء السكبانية في بعض التمردات شرعت الدولة

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٢ .

(٢) عبد الرحمن شرف : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول : وثيقة رقم ١٧٢٣٧ HATH .

في تعيين أغا الإنكشارية من بين ضباط السراي أي الجنود السلطانية ، وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني حتى يحد من طغيانهم وجبروتهم ، وابتداء من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي حدث تغيير في تعيين أغوات الإنكشارية حيث رُؤي أن يختار من بين الضباط أصحاب رتب وكيل الأغا " قوكتخداسي " والزغارجية ، بل ومن بعض السعاة المعروفين بإسم " جوخه دار " ، كما كان أغا الإنكشارية في الوقت نفسه كبير ضباط أوجاق العجمية .^(١)

والأغوات أعضاء في ديوان هماليوني " مجلس الوزراء " برتبة بكربك " فريق أول " أي على رتبة وزير ، ويمكنهم التكلم والتصويت في الديوان حول الموضوعات التي تهم حاميههم ، الجيش والحرب فقط فلا يمكنهم التصويت كالوزراء في كل الموضوعات ، كما أنه ينتظر حتى نهاية الاجتماع ليدخل غرفة العرض " عرض أوطه سي " ويعرض على السلطان أمور الأوجاق . أي أن الأغا ناظر من الدرجة الثانية ، وأكثر هؤلاء الأغوات متخرجون من الأندرون^(٢) مقربون إلى السراي ، سياسيون أكثر مما هم عسكريون.^(٣) وأغا الإنكشارية فضلاً عن مهامه العسكرية ، كان

(١) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ج ١ ، ص ٣٨٤ ، أنظر عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ج ١ ، ص ٤٨٢ . أنظر أيضاً عبد الرحمن شرف ، مرجع سابق ، ج ١ ص ٣٠١ . أرشيف رئاسة مجلس الوزراء : خط هماليوني H.H . وثيقة رقمها ١٥٨٣٧ .

(٢) الأندرون :- مدرسة القصر السلطاني . عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، ص ٤٨٢

(٣) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

Eyyub Efendi : Kanunnamesi . I . u . Ktp . Ty . ٧٣٤ . s . ١٤ a - b .

مسؤولاً عن الأمن في قسم كبير من استانبول ، وحفظ النظام وحماية الأملاك ، ولذلك يبدو وكأن أعماله بعيدة عن اهتمامات القصر السلطاني إلا أنه بصفته الرئيس الأعلى للإنكشارية فقد كان دائم التحريض لأتباعه داخل القصر وكان أتباعه سريعي الإستجابة له . كما كان مسؤولاً أيضاً عن إطفاء الحرائق التي تشب في العاصمة بجانب الصدر الأعظم . وله ديوان يعقد تحت رئاسته يشكل مع قادة الإنكشارية ، ويعرف بإسم " ديوان الأغا " " أغا ديواني " يناقش فيه أمور الأوجاق ويستمع إلى القضايا المتعلقة به ، وإصدار القرارات الخاصة بالحامية مثل أمور العزل والتعيين داخل الأوجاق ، أما القضايا التي تختص بكاتب الإنكشارية تتم بعرض طلب منه ، والمسائل التي تتجاوز صلاحياته ، فكان الأغا يحولها إلى الديوان الهمايوني ، وكان له مهمة التجول مرتين أو ثلاثة مرات في الأسبوع صباحاً ومساءً ليتفقد حالة الأهالي والطرق ، وله حق معاقبة المخالف .^(١) وكان الأغوات يسكنون في قصور كبيرة تسمى " أغا سراي " ويوجهون الحامية من هناك .^(٢) وفي بعض الأحيان يحصل الأغا على رتبة وزير حيث يتم تعيينه على هذه الرتبة من قبل السلطان مباشرة ، ويمنح الوزارة ويكسى الخلعة من الباب العالي ، ويطلق على الأغا في هذه الحالة

(١) عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٠١ . يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

(٢) Eyyub Efendi : Kanunnamesi . i . u . ktp . Ty . 734 . s , 14 a -b .

إسم " أغاباشي " وكان يقيم في الحي المعروف بإسم " باب الأغا " أغاقا بيسي " في إستانبول. (١)

وطبقاً للمراسم السلطانية العثمانية فقد كان الأغا الذي بدرجة وزير يتقدم من تقل رتبته عن وزير ، يتقدم أيضاً جميع القادة العسكريين (*) مهما كانت رتبهم خصوصاً في أيام الأعياد ، والإحتفالات الرسمية، وكان له مقر خاص في عاصمة الدولة ومكاتب في المناطق التي تتواجد فيها الفرقة ، وكان لا يتقدم إلا القائد للإنكشارية في ميدان القتال . (٢)

وأول أغا للإنكشارية مُنح رتبة وزير هو سليمان كنعان أغا باشا في عام ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣م وبعض الأغوات أعتلى هذا المقام مرتين ، وأعتلاه الواحد منهم عدة مرات ، وحصل تسعة وعشرون أغا على مرتبة وزير ، ثلاثة منهم ظلّوا في هذا المقام أطول مدة ، ما يقارب من ست إلى تسع سنوات ، ووصل خمسة وعشرون من الأغوات إلى مراتب الصدور العظام . بعضهم توفي بعضهم أثناء الخدمة ، والبعض الآخر استشهد ، وأولهم شجاع الدين أغا الذي استشهد في فتح المجر . (٣)

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ١٦٤٠٤ . أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص ٣٨٦ .

(٢) وكانت الأسبقية عليه لقادة فرق السباهية وبولوكات السلحدار ، لأن هذين السلاحين أقدم عهداً من سلاح الإنكشارية . أنظر عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٨٢ .

(٣) مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٢ .

(٣) يلماز أوزتونا: مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

وفرض القانون على الشخص الذي يعين أغا للإنكشارية أن يقدم للصدر الأعظم هدايا أو تعرف بإسم " جائزة " كان يتلقاها هو الآخر من ضباط الأوجاق الآخرين ، وإذا تدنت مكانة أغا الإنكشارية أو عزل وأخرج من الأوجاق كانت العادة أن يعين في الغالب أميراً على سنجق قسطنطيني ، أما إذا أستحق الترقية ، فهو يتحول إلى " بكركي " أمير الأمراء أو يصبح قائداً للأسطول العثماني " قبطان دريا " وكان عزل الأغا بيد السلطان واستمر ذلك حتى ، عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م . ثم أصبح من صلاحيات الصدر الأعظم بعد هذا التاريخ . (١)

حتى نهاية القرن السادس عشر الميلادي بالتحديد عام ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م كان أغا الإنكشارية يخرج إلى الحملة مع السلطان " البادشاه " فقط ، وإذا كانت قيادة الجيش لدى الصدر الأعظم ، يشترك الإنكشارية في الحملة بقيادة سكبانباشي . ويبقى أغا الإنكشارية برفقة السلطان في إستانبول . وبسبب قلة خروج السلاطين إلى الحملات بعد القرن السادس عشر الميلادي أصبح أغاوات الإنكشارية يشتركون في الحملات مع الصدر العظام . (٢) مما زاد في نفوذ الأغوات بدرجة كبيرة في أعقاب القرن الحادي عشر الهجري على إعتبار أنهم صاروا يختارون من بين رجال القصر وكبار ضباطه خاصة بعدما زاد نفوذهم داخل القصر بحكم وضعهم .

(١) S. ١٤ a-b. Ty. ٧٣٤. Eyyub Efendi : kanunnamisi i.u. ktp . أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع

سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٢) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

وفي وقت الحرب كان يلتف حول أغا الإنكشارية مجموعة من الجنود يطلق على الواحد منهم لفظ شاطر ولهم علماً مخصوصاً بهم ابيض اللون ويمتطون جياداً ويتعقبون أغا الإنكشارية بالموسيقى العسكرية ، ويصاحبونه عند ذهابه إلى الديوان . (١)

أما عن لباس أغا الإنكشارية فقد تميز بزي خاص حيث كان زيه الرسمي من المخمل، أو الستان الموشى ، ويضع على رأسه غطاء رأس يعرف بإسم " مُجَوَزة " أثناء توجهه إلى الديوان ، أما في الأيام المعتادة فكان يرتدي معطفاً من الفراء " الشمور " مكسواً بالمخمل الأحمر ، ويضع على رأسه عمامة حمراء اللون وبيضاوية الشكل . (٢)

٢- سكبانباشي :-

كان يساعد الأغا في قيادة فرقة السكمان ، ويدعى " سكبانباشي " أو سكبانباشي الذي كان بالإضافة إلى وظيفته كمساعد أول للأغا ، وكقائد لفرقة السكمان، كان ينوب عن الأغا في قيادة الجيش أثناء الحرب، وفي قيادة العاصمة. (٣)

ورئيس السكبانبانية هو قائد بلوكات السكبان ، أي القائمة على تربية الكلاب التي تشكلت في البداية لأجل رحلات الصيد ، وهو تابع لأغا الإنكشارية ، وصارت فرقة السكبان تحت إدارة أغا الإنكشارية وصار موقعة الضابط الثاني في أوجاق الإنكشارية بعد

(١) عبد الرحمن شرف : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٣٠١ .

(٢) " Yeni Ceri " maddesi ١٩٩٠ Ankara ١٤، Islam Ansiklopedisi أكمل الدين إحسان

أوغلي : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٣٨٦ . لمزيد من المعلومات عن لباس أغا الإنكشارية الرجوع إلى محمود شوكت : مرجع سابق ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٣) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٨٢ .

أن جرى إلحاق تلك البلوكات به على أيام السلطان محمد الثاني الفاتح وكان يصبح السكان عند الترقية أغا للإنكشارية في الغالب ، أما في حالة خروجه من الأوجاق ، فكان يعين أميراً على أحد السناجق، أوضابطاً من ضباط الفرق . (١)

ويقوم السكان باشي مقام أغوات الإنكشارية في حالة واحدة فقط ، وهي الحرب وذلك عندما يكون أغوات الإنكشارية مع الجيش، فيبقوا رؤساء السكان في إستانبول قائمون مقام الأغا . (٢) كان السكان باشي بدرجة سنجق بل " لواء " وفي حالة ترقية يصج بك على لواء كبير ، وبعد القرن السابع عشر الميلادي رقي إلى بكربك . لقد ظهر من بين السكان باشي قادة حرب مقتدرين بعضهم شغل فيما بعد منصب الصدارة العظمى ، والسكان باشي يدير الحامية من الناحية العسكرية بصورة مباشرة بسبب كون " أغا الإنكشارية" و " قول كتخداسي" - الذي سيأتي ذكره - شخصيتين سياسيتين (٣)

وقد بدأ يفقد أهميته ابتداءً من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي حتى حل محله وكيل الأغا . أو وكيل الجند " قول كتخداسي " . (٤)

٣- قول كخيا أو كخيا بك نائب الأغا. (٥)

(١) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٦ .

(٢) عبد الرحمن شرف : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

(٣) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٤) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٧ .

(٥) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول " BOA " : تصنيف مهمة دفتر رقم ٢٦/ص ٩١ . جورجى زيدان: تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٥٨ . أنظر جوزجي زيدان : مصر العثمانية ، تحقيق محمد حرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الهلال ، ١٩٩٧م ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

وهو الرجل الثالث للحامية ، ووكيل الجنود أو وكيل الأغا ومعاون لأغا الإنكشارية وخلال بعض الفترات تقدم على سكبان باشي ، وأصبح الشخص الثاني ، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي ، وهو برتبة لواء ، وفي حالة علو شأنه يصبح بكربك، وكان مسؤولاً عن ثكنات الإنكشارية الموجودة في إستانبول وعن حاميتها ، وكذلك عن أمن المدينة . (١)

٤- ينبي جري كاتبي " كاتب الإنكشارية :- (٢)

يطلق عليه بلغة الشعب ينبي جري أفند يسي " أفندي الإنكشارية "وهو الرجل الرابع للحامية ، لكنه ليس إنكشارياً ، وليس عسكرياً " وهو لواء مالي يعينه الصدر الأعظم ويختار عادة من أمناء المخازن السابقين . وميزانية الحامية العظمي والمصروفات والرواتب كلها في عهدة هذا اللواء المالي ، أصبح عمله خطيراً بعد أن صارت حامية الإنكشارية وكرراً لسوء التصرفات إعتباراً من أواخر القرن السادس عشر الميلادي ، وقد كان تحت إشرافه مائة من الكتبة . (٣)

٥- قورنا جيباشي :-

هو الرجل الخامس للحامية ، وكان في الحقيقة قائد الأورطة " سرية الإنكشارية " الثامنة والستين ، إلا أن هذه السرية يديرها

(١) يلمازا وزتوننا : مصدر سابق ج ٢ ، ٣٩٢ لمزيد من المعلومات الرجوع محمد شوكت ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٢) جوزجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٥٩ .

(٣) يلمازا وزتوننا: مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٢. أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول ، تصنيف

أحد الرواد نيابة عنه ، ويعمل القورنا جيباشي في المقر . (١)
٦- صولا قباشي :-

هو الرجل السادس في الحامية ، وأحد قواد الخاصة التابعين لشخص السلطان ، والصولا قباشي هو قائد سرايا الإنكشارية رقم ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، وكان حملة ألقاب صولاق يرتدون الملابس المزينة بالجواهر ، ويرافقون السلطان ، ويشتركون في القتال بصورة فعلية ، وهؤلاء يجب أن يكونوا ذوي مظهر خارجي أنيق ، ومهرة في استعمال الأسلحة ، ومن مهامهم الأساسية في الحروب حماية السلطان والحفاظ على حياته ، إذ لم يكن بإمكان أي شخص الإقتراب من السلطان قبل أن يقتل جميع هؤلاء الصولاق ، وكان هؤلاء يضعون على رؤوسهم " صور غوج " وهي شارات مزينة بالرياش النادرة ، وكان لباس راس الصولاق كذلك مزينا بهذه الشارات " صول " يسار ، " صولات " معنى أعسر ، وقد سُموا بهذا الاسم لتمكنهم من استعمال السلاح بأيديهم اليسرى . (٢)

٧- سمو نجي باشي : هو قائد الأورطة نمرة ٧١ . (٣)

٨- زغرجي باشي : قائد الأورطة نمرة ٦٤ . (٤) ضمن أورطات (*) الجماعة ، وتأتي درجته بعد وكيل الجند ، وقد تشكلت تلك الأورطة لتربية كلاب الصيد ، واستمر وجودها

(١) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٢ .

(٢) مصدر سابق : ج ٢ ص ٣٩٣ .

(٣) جوزجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٠ . أنظر هاملتون جب : مرجع سابق ، ص ٣٨٧

(٤) زغار : هو كلب الصيد الخفيف الحركة ، وكان هؤلاء الزغارجية ، مكلفين بتربية هذا النوع من الكلاب والحفاظ عليها ، لمزيد من التفاصيل شمس الدين سامي : قاموس تركي ، د. ط ، إستانبول مطبعة سي ، ١٣١٧هـ ، ٦٦٨ . جوزجي زيدان : مصر العثمانية ، ص ٦٧ .

(٥) لمزيد من التفاصيل : أنظر شمس الدين سامي : المصدر السابق ، ص ٦٨٥ .

حتى بعد أن ترك السلاطين هذه الرياضة .^(١) كما وجد رئيس
الصكسونجيه .^{(٢)(*)}

٩- **محضر أغا :-** وهو المقدم الثالث للحامية ، ويعمل في الخدمة
المباشرة للصدر الأعظم مع ٦٠ إنكشاري يسمون " محضر "
وهو العسكري الحارس " حرس " له ، وفي الوقت نفسه ينفذ
أوامره^(٣) وكانت وظيفة المحضر الأساسية هي تولي عملية
الإرتباط بين الباب العالي والأوجاق .^(٤)

١٠- **خصكي أوبا شخصكي :** وهو قائد الوحدات الرابعة عشرة
والتاسعة والأربعين المؤلفة من جنود الحرس السلطاني الذين
يسمون " خاصكي "^(٥) وكان ينوب عن الأغا في القيادة على
الحدود^(٦).

١١- **باشجاويش " الباش تشاووش " :-** وهو قائد الأورطة
الخامسة ، ورئيس مجموع التشاووشات المكلفين بنقل
الأوامر ، والذي يحل في نهاية الأمر محل الكيتخابك
والمهزر أغا ، الذي هو أيضاً قائد إحدى وحدات الأغا ، كما
أنه الوسيط ما بين الأغا والديوان السلطاني^(٧).

(١) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٧ .

(٢) هكسون نوع من الكلاب المستخدمة في القبض على المجرمين ، وهؤلاء الصكسونجية كانوا
يقومون على تربيتها ورعايتها .

(٣) شمس الدين سامي : المصدر السابق ، ص ٨٢٩ .

(٤) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ج ٢ ، ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ .

(٥) أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق ، ص ٣٨٨ .

(٦) شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص ٥٦٨ هاملتون جب : مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

(٧) جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٩٩ .

(٨) هاملتون جب : مرجع سابق ، ص ٢٨٩ .

١٢- كخيابري : وهو ينوب عن الأوجاق لدى الإغا . (١) وهو

معاون قول كتحدا ، وعندما يعلو شأنه يصبح محضر

باشي (٢)

١٣- ديوه جيباشي : - ويسمى كذلك " باشا ديوه جي " أي الجمال

الأول. (٣) ويسمى بالفارسية " سرشتربان " وقد كان رئيساً

ل ٢٥ أورطة يقومون بنقل حاجيات الإنكشارية من أسلحة

وذخيرة ومؤنة بالجمال إلى المناطق التي سيتوجه لها

الإنكشارية . (٤)

١٤- باشيا ياجي :- وهو قائد السرية ١٠١ ، وكان يشرف على

معامل البنادق الخاصة بالحامية .

١٥- عسى باشي : قائد الانضباط للحامية ، ورئيس الشرطة

العسكرية .

١٦- بيك باشي :- قائد جماعة " البيك " وهم جنود الخاصة

للبادشاه أي السلطان .

١٧- باشبولو كباشي : قائد سرايا الإنكشارية الخيالة .

١٨- زمير كجيباشي : أوزنير كجي باشي :- وهو قائد سرية

الزمبركجي ال ٨٢ ، والزمبرك عبارة عن مدفع هاون

صغير يحمل على البغال . (٥) وأفراد هذه السرية جميعاً من

(١) جورجى زيدان : مصر العثمانية ، ص ٦٧ .

(٢) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

(٣) أكمل الدين إحسان : أو غلي : مرجع سابق ، ص ٣٨٨ .

(٤) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ . أرشيف توب قابي سراي : وثيقة رقم ٩٢٩٨ /

١٣ E.

(٥) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

ضباط الأوجاق من الدرجة الثانية ، وكان يعين أمام الأوجاق
من بين جنوده الذين حصلوا على العلم في المدارس
الدينية .^(١)

١٩- تعليمخانه خافة جيباشي :- وهو المسؤول عند تدريب
الأسلحة لأفراد الحامية .

٢٠- أوجيباشي :- وهو ضابط للتدريب على الأسلحة النارية
فقط .^(٢)

٢١- تفنكجيباشي :- وهو رئيس مصلحي البنادق ، حيث يقوم
بفحص بنادق الإنكشارية التي أعطيت لهم .^(٣)

٢٢- باشفنجكي :- وهو المهندس المسؤول عن صناعة البنادق
للحامية .

٢٣- يني جري أمامي :- وهو رجل دين وليس عسكرياً .
كما كان يوجد بالجيش الإنكشاري ما يسمى بالشوربجي ،
لقواد الأورطة " السرية " وفي بعض السرايا يا باشي وباشبولو
كباشي ، أخذ مكان هذه الالفاظ كلمة "بكباشي" اعتباراً من النصف
الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي .^(٤)

وإلي جانب ذلك كان يوجد لكل أورطة ضباط يقتسمون
قيادتها ، وإدارة شؤونها على هذه الصورة :-

١- الجورجي وهو رئيس الأورطة .

(١) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٨ .

(٢) يلمازا ورتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

(٣) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص ٣٨٨ .

(٤) يلمازا ورتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٤-٣٩٥ .

٢- أوده باشي وهو نائب الجور بجي في المناورات العسكرية .

٣- وكيل الخرج وهو الذي يتولى أمر الطعام والشراب .

٤- بيرقدار وهو الذي يتولى الأعلام والبيارق .

٥- باشي أسكي وهو الذي يتولى قيادة فرقة القراقولات .

٦- اشجي وهو الطاهي . (١)

أعداد جند الإنكشارية :-

كان الإنكشارية يتألفون من أبناء النصاري الأيتام ، وهؤلاء لم يكن عددهم في أول الأمر يتجاوز ألف جندي . (٢) وأخذ يتزايد مع مرور الوقت ، فقد كان عدد فرقة الإنكشارية أثناء فتح إستانبول ثلاثة آلاف ، وأرتفع هذا العدد عند وفاة السلطان الفاتح إلى عشرة آلاف ، ثم أنخفض إلى ثمانية آلاف ، وأستمر هذا العدد في عهد السلطان سليم الأول . (٣)

وعندما تولى السلطان مراد الثالث لم يكن عدد الإنكشارية يتجاوز عشرين ألفاً ، لم يكن الاعتماد الرئيسي عليها في حروب الدولة العثمانية، وإنما كان على فرق أخرى من الجنود التي كان الأمراء والعمال يأتون بها من الولايات ، وتعرف كل منها باسم خاص كالتمرجية والعزب وغيرهم ، ويسمون " يرلي قولي " أي الجند المحلي . (٤)

(١) جورجى زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٩٩ ، مصر العثمانية ، ص ٦٧ .

(٢) علي سلطان : مرجع سابق ، ص ٢٨ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : ص ٤٧٥ .

(٤) جورجى زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٢ .

وقد ازدادت أهمية الإنكشارية ، وتزايد عددهم ، حتى بلغ في عهد مراد الثالث ٢٧ ألف . (١) على أن بعض السلاطين اهتموا بتتقية الإنكشارية ، والتدقيق في طرق الدخول ، فقل عددهم ، ثم عادوا للتكاثر. ومن إحصاء أعداد الإنكشارية نستنتج ما يلي :(*)

١- النمو المطرد لأعداد الإنكشارية عبر فترات السلاطين العثمانية ويبدو أن السبب في ذلك هو اعتماد الدولة العثمانية إعتماً كبيراً على الإنكشارية في الفتوحات التي قامت بها ، ويؤيد هذا الرأي المؤرخ الإنجليزي الأستاذ جرانت حيث يقول " إن المشاة الإنكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان . وكان مصير أو مستقبل الدولة العثمانية يعتمد إلى حد كبير جداً على الإنكشارية " ويقول أيضاً " أن الدولة العثمانية أحرزت انتصاراتها في ساحات القتال بفضل الإنكشارية . (٢)

وقد صدق هذا المؤرخ في قوله إلى حد بعيد إذ أنه بمجرد تمرد الإنكشارية وفساد نظامها تراجعت فتوحات الدولة العثمانية ، بل وبدأت تخسر أراضيها تباعاً ، ووقفت موقف المدافع عنها . وهذا يثبت أن الدولة العثمانية لم تعتمد عليها في الفتوحات فقط بل في الدفاع عن البلاد المفتوحة أيضاً .

(١) أحمد جودت باشا : ورقة ١١٠. انظر روبرما نتران : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٢) أنظر الجدول في الملاحق .

(٣) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٩٢ ، ٩٤٣ .

٢- يُمثّل عهد السلطان مراد الثالث ٩٥٣هـ - ١٠٠٣هـ /
١٥٤٦م - ١٥٩٦م عهد ازدهار للجند الإنكشارية ، فقد
ازدادت أهميتهم وكثرت أعدادهم حتى وصلت إلى سبعة
وعشرين ألف جندي .^(١)

وبنهاية القرن الثامن عشر الميلادي قُدر عدد الإنكشارية ما
بين مائة وخمسين ألفاً ، ومائة ألف ، منهم ثمانية عشر ألف في
العاصمة فقط أما المؤرخ جوشرو فقد وصل بعددهم إلى أربعمائة
ألف منهم ستين ألفاً يأخذ أجراً بينما لم تستطع الدولة أن تجمع منهم
في حروب تلك الفترة أكثر من خمسة وعشرين ألف رجل ، ومعنى
ذلك أن قادة الإنكشارية كانوا يسجلون أسماء وهمية للحصول على
أجورهم.^(٢) وكان ذلك من أسباب الخل وتوقف الفتوحات .
أسلحة الإنكشارية :

لقد تنوعت الأسلحة والألات الحربية التي استخدمتها
الإنكشارية ، في أوقات السلم والحرب ، واختلفت بمرور الزمن في
الدفاع والهجوم .

ففي أوقات السلم لم تكن الدولة العثمانية تسمح بحمل السلاح لجند
الإنكشارية ، فكان الإنكشارية الموجودين في العاصمة يحملون
النبابيت^(*) " massues " فقط ، ولم يكن يسمح لهم بحمل السلاح في
أوقات السلم ، ويسمح لهم فقط بحمل سكين يضعونها في أحزماتهم
أما العسكريون المتمركزون في الحدود ، والبحرية في الموانئ ،

(١) أحمد جوبت : ورقه ١١٠ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٥٣ .

(*) مفردها نبوت وهو العصي الخشبية الغليظة .

فقد كان مسموحاً لهم أن يحملوا السلاح ، وهو السيوف ، أما في أوقات الحرب ، فكان على العسكري أن يجهز نفسه بالسلاح الذي يريده ويختاره على حسابة الخاص ، وله مطلق الحرية في ذلك .^(١) فكان المقلاع والقوس والسهم ، هي الأسلحة الأولى لهم ، وقد ظلت تستخدم إلى جانب الأسلحة النارية حتى عام ٩٥٥هـ / ١٥٤٨م ، ومن أسلحتهم التي استخدموها أيضاً الخنجر والمخرطة والمزراق ورجل المها ، والبندقية ذات الفتيل والبندقية ذات الزناد والبندقية القصيرة والطبنجة والسجة ، وقد أدخلت هذه الآلة عام ١١٥١هـ / ١٧٣٨م وتركت ، واستعملت ثانية عام ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م .^(٢) كما كان لديهم الأرقبوز البندقية القداحة " arquebuse " " massedarmes " والدبوس الحديدي . والصفحة " cimenterre " الفأس وهي الأسلحة التي استخدمها جند المشاة ، أما أسلحة الخياله ، فهي السيف والرمح ، والغدارة ، والقوس ، والسهم ، والمزراق " الرمح القصير " أو الحربة بأطوالها المختلفة والأسلحة النارية وأحياناً " بنادق الفتيل ، والصوان " .^(٣)

كما كانت هناك ^(*) أسلحة عامة مثل الصولجان والسياط ومدقة الحرب والبلط والمنجل ، والرمح الذي في رأسه بلطة ، والرمح المتعدد الأسنان والسيوف المستقيمة ذات الحد أو الحدين والحسام ، والخناجر ، والرمح والتروس ولباس الزرد ، كما كان

(١) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : ج ٥ ، ص ١١٤ .

(٣) ياسين سويد : ج ١ ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(*) انظر جدول المصطلحات في الملاحق .

للجند الإنكشارية خوذ نحاسية أو مصنوعة من الصلب والتي تشبه قممها الطربوش وتنتهي بطرف مدبب .^(١) وقد أجاد الجند الإنكشارية في استخدام كل هذه الأسلحة .^{(*) (٢)}

وكان العسكري يعتني بأناقة سلاحه ، وبتزيينه إلى حد المبالغة، فكانت هناك السيوف المفضضة أي المطلية بالفضة ، كذلك المسدسات التي زينوها وزركشوها برموز ، وأسماء ، وآيات قرآنية رسمت كلها بخط بديع مذهب ، وكانت الدولة تتعهد بوجود مخازن للأسلحة والذخيرة سواء في داخل العاصمة ، أو في عدة مواقع خارج حدود الدولة العثمانية . وكان جيش السلاحية " أو القرداحية " " Djebedjis au armutiers " هو المسؤول الوحيد عن تعهد هذه المخازن ، وهو الذي كان ينقلها إلى ميدان الحرب ، حيث يقوم القادة بتوزيع الأسلحة و الذخيرة على الجند الذين يستطيعون الحصول على السلاح أو الذخيرة ، وكان كل سلاح يخرج من مخازن الدولة يعتبر مفقوداً ولا يعود إليها .^(٣)

وفي ساحة المعركة يقاتل الإنكشارية في وسط التشكيل القتالي أمام السلطان على تسع صفوف ، حيث كان كل صف يخلي مكانه للصف الذي يليه بعد قيامة بالرمي ، وذلك عن طريق حركة تناوبية وعند الزحف كانوا يلتفوا حول السلطان ، ويحموه نهائياً وليلاً .^(٤)

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ج ٥ ، ص ١١٤-١١٥ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن أسلحة الإنكشارية الرجوع محمود شوكت : مصدر سابق، ص ٧٦-٧٨ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٥٢ .

(٤) ياسين سويد : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(٤) هاملتون جب : مرجع سابق ، ص ٢٩٠ .

الراية :- Banniere

كان للجيش الإنكشاري راية كبيرة " بيرقاً " يسمى " الإمام الأعظم " وذلك تيمناً بإسم الإمام أبي حنيفة صاحب المذهب الحنفي في الإسلام ، وهو مذهب الدولة الرسمي ، وكانت هذه الراية من قماش الحرير الأبيض ، وقد طرز عليها بخط كبير آيات قرآنية تناسب وظروف حملها، كتلك التي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله ، والتي تدعو لأولى الأمر بالنصر المبين ،مثل قوله تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) (*) ومثل (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) (**) ، وكانت هذه الراية توضع في ميدان الحرب أمام خيمة الأغا ، قائد الجيش مع أعلام الفرق الأربع مطوية ضمن أغماد حمراء ، ومع التوغل " toyg " ذي الثلاثة أنساب ، وهو العلم الخاص بالأغا علم المواكب " الجنرال قائد الجيش " كما كان لكل أورطة علمه أوبيرقها نصفه أحمر ، والنصف الثاني أصفر ، وكان ينصب أمام خيمة قائد الأورطة . وتحمل تلك الرايات والأعلام عند مراسم الخروج إلى الحرب أو الاستعراضات في المواكب حملة الأعلام "بيراق دار " من الجنود . (١)

وقد خصصت الدولة لكل أورطة من الإنكشارية شارة توضع على ابواب ثكنتها وعلى أعلامها ، وعلى خيامها التي كانت تقام في

(*) سورة الفتح آية ١ .

(**) سورة آل عمران آية ٣ .

(١) Osmanli " Tarih ve medeniyet" Ircica , istanbal ١٩٩٩ . CiHI , s, ٣٨٤ - ٣٩١ ياسين سويد :

مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٧ .

ساحة القتال . وكانت خياماً مستديرة واسعة ، وهذه الشارات إما على شكل مفتاح أو سمكة أو خطافاً " هلبا " ، وإما هراوة (*) ذات طرف مدبب، وجرت عادة الوشم عند الإنكشارية عن طريق نقش شارة لهم مميزة على أذرعهم وسيقانهم .^(١)
رواتب الإنكشارية " العلوفة " :-

جميع رواتب الإنكشارية كانت تثبت في دفاتر خاصة بهذا الأمر ، حيث يتم رفعها للسلطان لإصدار الموافقة عليها ، كما احتوت هذه الدفاتر على أسماء المتقاعدين والفرسان وأمناء الأسلحة^(٢) من المفترض على الجندي الإنكشاري في زمن السلم ، أن يخدم ثلاث سنوات حتى يصبح له الحق بالمعاش ، وكان يبدأ بـ " أقجة " في اليوم ، إلا أن الجندي الشجاع كان يتميز عن أقرانه فينال زيادة تتراوح بين أقجتين وثلاث بعد المعركة ، وظل هذا النظام معمولاً به حتى عهد سليمان القانوني ٩٢٦هـ - ٩٧٤هـ / ١٥٢٠م - ١٥٦٦م الذي أعاد تنظيم رواتب الجند ، فوضع ثلاثة أصناف من الرواتب ، الأول : للجنود " كوجك Koetschek من ثلاثة إلى سبعة أقجه يومياً " ويعرفون بأنهم أصحاب الخدمة الفعلية".
الثاني :- الجنود القدماء الذين يتميزون بشجاعتهم أثناء القتال ويحملون على أجسادهم اثار أفعالهم المجيدة في الحروب من جراحات وغيرها ، ويعطون من ثمانية إلى تسعة أقجة يومياً .

(*) عصى غليظة .

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٧ . أنظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٨ .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة رقم ١٦١٢٢ HAT.H .

الثالث :- للضباط والجنود مشوهي الحرب ، أو المتقاعدين " من ثلاثين إلى مئة وعشرين أقة يومياً .^(١)

ويبدو أن إعطاء الجندي الشجاع أكثر من غيره كان من الأسباب التي خلقت بين الجنود جو المنافسة الشريف ، ولكن مع مرور الوقت أصبحوا يتسابقون على القتل وتشويه أجسادهم حتى ينالوا أكثر ، ولم يعد يهمهم الجهاد أو الإنتصار في المعركة .

أما عن كلمة العلوفة^(*) فالأصل في ترتيبها أن تدفع يومياً ، لكنها لم تدفع إلا مرة كل ثلاثة أشهر ، تخفيفاً للثقل ، فكانوا يؤدونها أربع مرات في السنة ، وتعرف في كل مرة بإسم مؤلف من أول الأحرف الثلاثة للشهور ، فالربع الأول من السنة مؤلف من محرم وصفر وربيع فيصبح الإسم " مصر " وعلى هذا المنوال كانوا يسمون الربع الثاني " رجب " ، وقد يأخذون الحرف الثاني من إسم الشهر مراعاة للفظ ، فالربع الثالث والذي يأتي فيه رجب وشعبان ورمضان يسمونه " رشن " بإقطاع النون من رمضان بدل الراء. كما كانت لهم رسوم في تفريق العلوفة خاصة بهم.^(٢)

كان السلاطين يزيّدون رواتب بعض الأورط دون البعض الآخر ، لأسباب مؤقتة كأن تكون أورطة في حرب ، تفتح حصن ،

(١) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٣ . لمزيد من المعلومات الرجوع ، محمود شوكت : مصدر سابق ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) العلوفة : الراتب الموسمي الذي يدفع للإتشارية وبعض موظفي الدولة العثمانية ويدفع مرة كل ثلاثة أشهر ، ومصدر الكلمة من علف الحيوانات . سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية ، ص ١٥٥ .

(٢) جورجى زيدان : مصر العثمانية ، ص ٧٠ .

أو بلد ، أو تقوم بعمل عظيم فيزيد السلطان علوقتها إلى الضعف ، أو أكثر أو أقل ، وربما يقترح السلطان على جنده ، أثناء الحصار أن الأورطة التي تفتح هذا الحص تزيد علوقتها إلى كذا ، فينتج عن ذلك تفاوت الرواتب بين الأورط المختلفة .^(١) وكان يتم صرف مواجب للإنكشارية الذين يقومون بحراسة القلاع والحصون المختلفة .^(٢)

وكان للإنكشارية هدايا ينالونها في الأعياد ، أو عند تولية السلاطين ، فقد كان على السلطان عند تسلمه الحكم أن يصدق عليهم العطايا ، يقال عنها " بخشيش الجلوس " وقد يزيد راتب الإنكشارية إكراماً لذلك الجلوس فضلاً عن بخشيش . ولهم أعطيات أخرى يحصلون عليها في مواضع أخرى . ولكي نعرف قيمة النقود التي كان الإنكشارية يحصلون عليها مقارنة بنقود هذه الأيام ، نجد مثلاً أن أقة اللحم الضاني سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٩١ م كانت تباع بثلاثة دراهم ، وكل أربع اقات من الخبز بثلاثة دراهم ، وكلما زادت العلوفة زادت الأسعار . كما وأن بخشيش أغاوات الإنكشارية تختلف باختلاف مناصبهم ، فالإغا بخشيشه ١٠,٠٠٠ درهم ، وأغا الأستانة ٦,٠٠٠ درهم ، ومبثله أغا غاليبولي وأغا الأناضول والروملي ٥,٠٠٠ درهم ، وهكذا حتى الجندي الإنكشاري البسيط فكان بخشيشه ٣,٠٠٠ درهم ، وبعد جمع هذه الأموال نجد أن

(١) جورجى زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦١ .

(٢) أرشيف توب قابي سراي : وثيقة رقم ٩٢٩٧ E .

الخزينة تدفع مالاً طائلاً قد يزيد على ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم تتكلفتها الدولة نتيجة لأعطيات الإنكشارية.^(١)

ونجد أنه في فترة حروب الدولة العثمانية كانت هذه الأعطيات مرهقة بالنسبة للدولة والخزينة ، فكانت تضطر إلى دفعها وإلا فإن الإنكشارية ستقوم بثورة وتمرد ، وهكذا تسببت في تعطيل سياسة الدولة العثمانية كثيراً .

وقد أصبحت هذه الاعطيات تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مهما أوتي من قوة أن يتجاهل ذلك ، وإلا تعرض للمهانة على أيدي الإنكشارية. ثم ألغيت هذه العطايا منذ عام ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م ، بعد تولي السلطان عبد الحميد الاول عرش الدولة العثمانية في عام ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣م وكان السبب في الإلغاء سبباً قوياً ، وهو أن الدولة العثمانية كانت تعيش أزمة مالية عصبية بسبب ضخامة الإنفاق العسكري على القوات العثمانية إبان الحرب التي اشتعل فتيلها بين الدولة العثمانية وبين روسيا ، وهي الحرب التي طال أمدها ست سنوات ، وتحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان.^(٢)

أما عن راتب أغا الإنكشارية فقد كان يتسلم راتباً يومياً قدره ٤٠٠ اقجة ، والسكبا نباشي كان يتقاضى ٧٠ اقجة يومياً .^(٣)

(١) جورج زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ٤٦١

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٣) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩١-٣٩٢ .

ونذكر أيضاً أن الراتب ٥٠٠ اقجة إضافة إلى منحة سنوية تقدر بثمانين ألف اقجة . أنظر عبد الرحمن شرف: مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣١ .

أما الضباط العاملون في الخدمة الفعلية ، فكانت رواتبهم اليومية تتراوح في عهد السلطان سليمان الأول بين ١٢٠ أقجة " وهو الحد الأدنى لراتب أمير السرية ، أو قائد الأورطة ، ويشكل في الوقت ذاته ، الحد الأعلى لراتب الضابط أو الجندي المشوه أو المتقاعد " و ٢٤ ألف قرش (*) ، أو ١٥٠٠ أقجة " وهو الحد الأعلى لراتب الأغا قائد الجيش " ، وكان هؤلاء يقبضون رواتبهم مع الجند.

بالإضافة إلى ذلك ، فقد كان للأغا وكبار قادته امتيازات مادية إضافية يستفيدون منها على حساب الجند الصغار ، فقد كان للأغا مثلاً ، الحق في ترقية أي ضابط إلى رتب مختلفة في الجيش ، ويقبض على ذلك مكافأة مالية من الضابط المرقى ، كما يقبض مكافأة من الضابط الذي يظل في منصبه سنة بعد أخرى على اعتبار أن التجديد للضباط في مناصبهم يتم سنة بعد سنة وهذا يتم بعد موافقة الصدر الأعظم ، ونتيجة لحصوله على هذه الأموال يجتمع لديه سنوياً نحو مائتي ألف قرش ، يتوزعهم مع مساعده الأول ، وهو " القول كيخيا " والثلاثان له والثالث الباقي للقول كيخيا ، كما كان الأغا ، وقادة الوحدات ينالون من رواتب الجند نسبة ١٢% تقريباً لهم . وإذا ما غاب أحد الجنود عن إستلام راتبه

(*) قرش : إسم أطلق على المسكوكات الأجنبية المتداولة في الدولة العثمانية بوجه عام ، وإذا كان القرش ذهباً أطلق عليه القرش الأحمر وإذا جاءت مجردة قصد بها السكة الفضة . ثم ظهر القرش العثماني في نهايات القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري وكان من الذهب ويزن سنة دراهم . سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية ، ص ١٧٨، ١٧٩ .

لسبب ما ، فقائد الأورطة له الحق بالاحتفاظ بالراتب اليومي لهذا الجندي حتى تصبح عشرون أجرة يعطي قسماً منها للأغا الذي يعطي بدوره قسماً منه لمكتب الكتبة " أي أمانة سر الجيش " .^(١)

حدث ذات مرة أن مات أحد رجال الإنكشارية وترك أربع بنات أيتام ، وكان يصرف لهن من خزينة معسكر الإنكشارية مبلغاً من المال ونظراً لمشاركة الأغا لهن في هذا المبلغ أرسلوا إلى السلطان العثماني يلتمس زيادة إحسان السلطان عليهن . وصدر أمر سلطاني بزيادة الراتب بل وصرف مبلغ معين لكل بنت منهن .^(٢)

كذلك كان للأغا ، وقادة الوحدات الحق بأن يرثوا ضباط الجيش وجنوده ، وكان ذلك يتم على يد بيت المالجي " أي ضابط الخزانة في الجيش " الذي عليه أن يحمي تركة الموروث ، ويحصر إرثه ، فإن كان له ورثة شرعيون يؤخذ من تركته العشر فقط ويوزع على الأغا ، وبيت المالجي ، وقائد أورطة الموروث ، وإن لم يكن له ورثه تذهب كل تركته إلى الأغا ، وهذا الأخير يعطي العشر إلى بيت المالجي ، وقائد الأورطة، هذا إذا كانت التركة تزيد عن عشرة آلاف قرش ، أما إذا كانت عشرة آلاف قرش أو أقل فإنها تصدر وتعود إلى خزانة الدولة هذا الحال في داخل إستانبول ، أما في الأقاليم ، فإن قادة الأقاليم أو المقاطعات

(١) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ص ٩٤ .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : خط همايوني وثيقة رقم ٢١٢٦٥ .

" السردار serdar " يتمتعون بنسبة في تركات الجند في أقاليمهم بحق الإرث الذي يتمتع به الأغا نفسه في العاصمة ، مع فارق أن يتركوا للأغا كل إرث يزيد عن ألف وخمسمائة قرش .^(١)

وهنا يتضح لنا ضخامة ثروة أغا الإنكشارية ، وما يتبع ذلك من نفوذ في القصر وخارجه وفي الدولة نفسها مما اثر سلباً على الدولة العثمانية ، وأكبر فائدة مادية كان يجنيها الضباط هي المبالغ الطائلة التي كانوا يحصلون عليها من جراء حاصل الفرق بين مجموع رواتب الجند والتي كانوا يقبضونها حسب العدد النظري للجنود الأورطة ، وبين ما كانوا يدفعونه من رواتب للعدد المحقق من الجند في هذه الوحدات ، إذا أن العدد النظري للوحدة كان يزيد بصورة دائمة عن العدد الحقيقي ، وفي عهد السلطان مصطفى الثالث جرى تعديل على هذه الرواتب بسبب المبالغ الباهظة التي تنفقها الدولة على الإنكشارية ، وبسبب الترف الزائد الذي كان يصيب الضباط من جراء كثرة الأموال في أيديهم ، قد تم تخفيض رواتب الضباط حتى أصبحت رواتب أمر السرية ، أو قائد الأورطة لا يتعدى المائة وعشرون اقجة يومياً " وهو اعلى حد لراتب الجندي " كما أصبح الحد الأعلى لراتب الضابط العام ١٥٠ اقجة يومياً ، وراتب الأغا قائد الجيش ثلاثمائة اقجة يومياً .^(٢)

(١) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ص ٩٤ .

(٢) مرجع سابق ج ١ ، ص ٩٤-٩٥ .

ويظهر أن هذا التعديل لم يفيد الدولة إذا أنه كانت لاتزال الأسعار مرتفعة ، مما سبب العصيان والتمرد . كما يبدو أن أغا الإنكشارية ، وكبار قادته كان لهم امتيازات مالية كبيرة ، كانت على حساب الجند سواء في مرتباتهم أو إرثهم .
ملابس الإنكشارية :-

كان الأساس في التفريق بين الرتب في الإنكشارية ، وتميز أصحابها بعضهم عن بعض بأشكال " القلانس " القاووق ، أو " الأقبية " وهو القفطان " أو الأحزمة وهي " الكمر " أما ألوانها فكان لكل طائفة من رجال الدولة قلنسوة شكلها خاص بهم وألوان خاصة بها ، وكذلك الأقبية والأحزمة وغيرها اختصت كل طائفة بشكل في أزاريرها فضلاً عن اختلاف أعلامها . وقد اختلف المؤرخون في وصف هذه الألبسة ، كما اختلفوا في أسمائها ، وأشكالها ،^(١) فالبعض سمى القباء أو الرداء قفطان، أو تتورة والحزام الكمر ، ونجد أن إختلاف هذه الملابس على وجه الخصوص جاء عند ضباط الإنكشارية ، ورؤسائهم ، بإختلاف السلاطين ، والفترات الزمنية ، والرتب ، فأغا^(*) الإنكشارية عمامته كبيرة منفوخة ، وعليه القفطان ، والجبّه ، وحول وسطه الحزام ، وفيه الخنجر ، ويرتدي في قدميه نعال مكشوفة ، أما نائبة قول كخيا فرداءه يختلف عن ذاك إختلافاً كبيراً ، وفي قمته يضع شبه مروحة من الريش.^(٢)

(١) جورجي زيدان : مصر العثمانية ، ص ٧١ .

(٢) مراجعة الصور في الملاحق .

(٢) جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٣ .

لقد تميزت البسة الإنكشارية بالبورك " القلنسوة " التي كان يلبسها الحاج بكتاش عندما باركهم ، وهي أساساً غطاء لرأس على طريقة الأخيان . كانت تتدلى على الكتفين بمساحة ٤٥سم ٢ ، وموشاة حول الجزء المتدلي بالرأس بالذهب والفضة ، ومقدمتها مزينة بالأحجار الكريمة ، أما عن الجزء المتدلي من فوق الكتف فقد كان رمزاً أسطورياً لكم جبه الحاج بكتاش الذي بارك رؤوس الإنكشارية .^(١) كما أشرت إلى ذلك في بداية المبحث .

لقد أعطى العثمانيون لغطاء الرأس أهمية خاصة ، والذي كان يميزهم عن أعدائهم ، كما أن سكان الولايات العثمانية أولوه هذه الأهمية، سواء كان ذلك زمن السلم ، أو أثناء الحرب . وقد حاز اللون الأبيض في قماش غطاء الرأس على الأهمية الأولى ، حيث أستحسنه المؤرخون وأعتبروه أفضل الألوان ، واستندوا في ذلك إلى إتخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم اللون الأبيض رمزاً لدولتهم ، كما أعتبر بعض المؤرخين العثمانيين أن اللون الأبيض علامة الإستقلال الذي أرسى دعائمه السلطان عثمان الأول ، والذي أعتبره عنوان السلام الذي أقرته الأجيال المتعاقبة العثمانية^(٢) .

لم تكن الدولة تتكفل باللبسة أكثر من اثني عشر ألف إنكشاري في العاصمة وذلك لأن النظام الذي وضعه السلطان محمد الثاني ، قد حدد عدد الجيش الإنكشاري باثني عشر ألف رجل ، وعندما زاد

(١) على سلطان : مرجع سابق ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

(٢) محمود شركت : مرجع سابق ، ص ٦٨ .

عدد الإنكشارية بعد عهده لم يتغير النظام الذي وضعه رغم كل الضغوط التي مارسها الإنكشارية في سبيل ذلك ، وكانت الدولة تقدم لهؤلاء الجند كل سنة ، كمية من الجوخ السالونيكى " Drap de salonique " وتقسم هذه الكمية إلى إثني عشر ألف قطعة كل قطعة منها مقاسها سبعة أذرع . (١)

وهذا القماش من النوع الثمين جداً وهو مغزول من صوف احمر قرمزي اللون . (٢) وعندما بدأت تتعسر الدولة في تزويد الإنكشارية بالقدر الكافي من الجوخ ابتداءً من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي صارت الدولة تمنحهم ما يقابله من البديل النقدي .

إضافة إلى ذلك كانت الدولة تخصص لكل جندي سبعة أذرع من القماش الأبيض المشبوب بالصفرة للعمامات ، وسبعة أذرع أخرى للقمصان ، وقد كانت هذه البضاعة تسلم إلى قائد الأورطة الذي كان يوزعها حسب هواه الشخصي على جند وحدته ، وكان يفضل عادة أن يعطيها لأقدم الرتب والجنود في الخدمة . (٣) وهذا بالتالي قد يؤدي إلى أحقاد وفتن داخل الأورطة الواحده فكان هناك من يأخذ قماش والآخر لا يأخذ مما ولد الحقد في نفوس أولئك الذين لا يحصلون على شيء .

(١) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٦ .

(٢) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .

(٣) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٦ .

وكانت معظم الصناعات اللازمة متوفرة في الجيش الإنكشاري بما يشبه الإكتفاء الذاتي ، فكانت بعض الوحدات متفرغة لأعمال الترجيج " الزجاج " والسلاحية " أي تصليح الأسلحة " وقيادة الزوارق ، وصنع الصناديق . (١)

أما عن الزي العسكري : ففي مطلع عهد الدولة العثمانية ، أي في عهد السلطان عثمان الأول ، لم تكن البزة العسكرية تختلف كثيراً عن لباس العثمانيين العادي ، لأنه لم يكن في ذلك الجيش سوى العسكريين من متطوعي الأقاليم ، وعندما أنشأ أورخان فرقة الإنكشارية لم يغير كثيراً في الزي العسكري لهذا الفرقة بإستثناء لون القلنسوة ، والتي أعطاها اللون الأبيض تميزاً لها عن ألوان القلائس التي كان العامة يلبسونها في العادة ، إلا أنه في عهد السلطان مراد الأول بدأ ضباط الإنكشارية يلبسون القلنسوة الحمراء مقلدين بذلك الأمير سليمان باشا ابن أورخان .

ثم أصبح للإنكشارية بعد ذلك بزة عسكرية موحدة " jmiforme " فكان الجند والرتباء أي أصحاب الرتب العسكرية لا تتميز قبعاتهم " casque " أو العمام " التي يرتدونها " turban " أو القلنسوة الخاصة بالحفلات " ketché " بشكل معين أو لون معين . (٢)

أما الضباط قادة الوحدات في مختلف الفرق ، كان لا يميز زيهم إلا بلون الحذاء ، إذ كان ضباط " البلك " ينتعلون أحذية حمراء ، أما

(١) ياسين سويد: مرجع السابق ، ج١ ، ص ٩٦ .

(٢) مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٦ .

ضباط باقي الفرق فكانوا ينتعلون أحذية صفراء . والرتباء أحذيتهم سوداء . ولم يكن الضباط يرتدون الملابس الرسمية التي فقدت رونقها ولمعتها ، كما كان للضباط ملابس خاصة للمراسم ، ولكل فرقة أو سرية رمزها الخاص بها .^(١)
مسكن الإنكشارية :-

كانت أولى الثكنات التي اقيمت للإنكشارية توجد في أدرنه ، وعندما تولى السلطان محمد الفاتح أقام لهم اثنتين أخريين في أستانبول ، كانت إحداها بجوار جامع " شهر زاده " ، والأخرى في " اقسراي " . فكانت الثكنات الأولى تعرف بإسم الفرق القديمة " أسكي أوطه لر " بينما تعرف الأخرى بإسم الغرف الجديدة " يكي أوطه لر " وكان لهذه الغرف عدة أبواب للدخول إليها ، والخروج منها بشكل محكم منظم ، والغرف الجديدة كانت مسرحاً لحركات عديدة من التمرد والعصيان . وكانت هذه الثكنات تنقسم من الداخل إلى أقسام ، أو غرف مخصصة لكل أورطة بلوك . كما كانت الغرف الجديدة تضم عدة أماكن مختلفة مثل التعليمانة، وساحة تعرف باسم " أت ميدان " ، ومسجداً يعرف بإسم " أورطة جامعي " ومطبخاً، وتكية ، ومعملاً ، وغير ذلك^(٢) وكانت ثكنات الإنكشارية في استانبول تحتوي على تسعين ساحة ، و عشرين قصراً ، ومئة وأربعة وثمانون إسطبلاً ، و ستمائة وتسعة وثمانين صالة مجهزة

(١) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ ، لمزيد من المعلومات عن ملابس الإنكشارية الرجوع إلى محمود شوكت : مصدر سابق ، ص ٧١ - ٧٦ .

(٢) ٣٨٤-٣٩١ cilt I, S, ١٩٩٩ "Tarin ve medeniyet" Osmanli أكمل الدين إحسان أو

غلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٨٨

بوسائل الراحة ، وعدد كبير من المساجد ، وجدران الثكنات مكسوة بالحجر الخزفي " الضي " ، وكل غرفة تحتوي على فوانيس عديدة ، وقد صرف السلطان محمود الأول مبالغ طائلة لتجديد إنشاء أكبر ثكنة للإنكشارية في ميدان أقراي ، فقد كان السلاطين يرصدون المبالغ الطائلة لبناء هذه الثكنات وتزيينها بالأبواب الرخام المطعمة بالذهب ، وعادة ما يصرف من تجارة الحرير على بناء الثكنات لإتمام العمل بسرعة . أما غرفة إطفاء الإنكشارية تحتوي على خمسمئة وواحد وثلاثين طلبية جي " أي افراد الإطفاء الذين يحملون ويستعملون آلة ضخ الماء " (١)

وقد شبت الحرائق مرات كثيرة في غرف الإنكشارية ، وكان يعاد إصلاحها ، أما في عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م فقد جرى تدمير تلك الغرف في حادثة الواقعة الخيرية ولم يعاد بناءها بعد ذلك . (٢)

ولم تكن ثكنات الإنكشارية تحتوي فقط على أماكن النوم للضباط والجنود، بل كانت تحتوي على كافة الحاجيات المدنية لهم مثل المطابخ ، ومخازن للأسلحة الذخائر وغير ذلك . (٣)

طعام الإنكشارية :-

كانت الدولة تقدم للجيش الإنكشاري بعض المواد الغذائية الأساسية مثل اللحوم والرز والخبز ، وكانت تزود الوحدة " الأورطة " بكمية من لحم الغنم ، والخبز يومياً . وخلال القرن

(١) يلمازا وزتوننا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٩٦ . أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة رقم ٣٦٦٤ . HAT.H

(٢) Iilam Ansiklo pedesi, cilt ١٤, Ankafa ١٩٩٠ yeni Ceril maddesi أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص ٣٨٨ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

العاشر الهجري - الحادي عشر الهجري كان يصرف لكل جندي ليلة الجمعة بمئة درهم خبز وبستين درهم لحم وبخمسین درهم برغل وزيت وبخمسین درهم أرز وحلويات . أما عن التعيينات السنوية فيصرف بمبلغ ٩,٣٠٤,١٧٠ أقبه لحوم وخبز بمبلغ ١٥,٠٠٠,٠٠٠ أقبه ومن بقية المواد ١,٢٠٣,٠٠٠ أقبه. أما في الأعياد كعيد الأضحى ، كان يقدم خروف لكل أورطة ، وهذا كل ما كانت تتسلمه الأورطة من الدولة كمواذ غذائية طبيعية ، إلا أن قائد الأورطة كان يزود الأورطة بالكمية اللازمة من الرز ، والزبدة ، والخضار ، وهكذا نجد أن توفير الكميات اللازمة من الطعام كانت تقع على عاتق ضابط الأورطة بالدرجة الأولى. أما في أوقات الحرب فقد كانت الدولة تزيد من الكميات لكل أورطة من اللحم والخبز ، أما باقي المواد اللازمة للتغذية فكانت أيضاً من قائد الأورطة نفسه ، وهذا هو حال باقي جيوش المشاة : مثل السلاحيّة ، المدفعية والنقل أما الخيالة فلم تكن تزود بشيء من هذه المواد على حساب الدولة^(١) . كما كان لكل أورطة ، أو بلوك خزان خاص للطعام " وهو ما يطبخ فيه حساء الجند " كما كانوا يأخذون حاجتهم من اللحم من أماكن معينة ، وبأسعار ثابتة ، وإذا زادت الأسعار كانت الدولة هي التي تسد عنهم فارق السعر . وكانت الدولة في بعض الأحيان تقدم لبعض جنود الإنكشارية قدراً من

(١) أحمد راسم : عثمانلي تاريخي ، ج ١ ، إستانبول ، د. ط ، ١٣٢٨هـ ، ص ٨٧ . ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٥ . ولمزيد من المعلومات الرجوع إلى محمود شوكت : مصدر سابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

الخبز كل يوم يعرف بإسم . " فود له " (١) .

وكانت أسماء رؤساء الإنكشارية كأسماء خدم المطابخ، والموائد، ولذا أطلق على رئيس الفرقة الأكبر " تشورجي باشي " أي رئيس طباطخي الحساء، والذي يليه رتبة "سقاباشي" أي رئيس السقا، وهذه الأسماء التي لا علاقة لها بمناصبهم العسكرية، كانوا ينتحلونها ليدلوا بها على مقدار حرصهم على غذائهم، وغذاء جنودهم.

ولا شك أنهم كانوا مصيبين في ذلك إذ أنهم كانوا يقضون جانباً لا يستهان به من وقتهم في الحروب، ولا سيما في أول عهدهم. فمن كانت هذه عيشته لابد له من أن يكون ذا صحة تامة. والمحافظة على الصحة تتطلب الغذاء الجيد. (٢)

وقد كان للإنكشارية عادات خاصة نشأت فيهم من اختلاف عناصرهم، ومن طبيعة نظامهم ، ومن أغربها عاداتهم في الطعام ، وأدواته ، وكيفية توزيعه. وأهم أصنافه الشورباء التي تصنع في قدور خاصة ثم ترسل إلى الأجناد في قدور أكبر من الأولى يحملونها معلقة بأعواد مستعرضة، ويحمل القدر إثنان من الجند يقال لهما "قراقول أقجي" يتقدمها ضابط اسمه "باش قراقول أقجي" يحمل على كتفه ملعقة كبيرة من الحديد. ويمر بالأماكن التي فيها عساكر من نفس أورطته، وهم في إنتظار وصوله، ويضع القدر

(١) . İlam Ansiklo pedesi, cilt ١٤, Ankara ١٩٩٠ yeni Ceril maddesi

Osmanlı Ciarin ve medeniyet İrcica , İstanbul ١٩٩٩ cilt I , S, ٣٨٤ – ٣٩٧ .

(٢) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٤ .

على الأرض، ويفرق لمن يأتي بطبقه على قدر حاجته بالملقعة الحديدية . والطعام شأن كبير عند الإنكشارية، وفي مطبخ كل أورطة قدراً كبيره ، اهتم بها الإنكشارية واحترموها .^(١)

كما كان للقدور عندهم رمزاً إعلامياً يعبرون به عن مسلكهم، فكانوا لا يجتمعون حول القدور لتناول الطعام فحسب، بل وللتشاور في أمورهم الخطيرة أو المهمة، فإذا ما قرروا القيام بحركة تمرد أو عصيان عسكري جماعي قلبوا القدور " القزانات " على أفواهاها بعد تناول الطعام الموجود بها، ووضعوها صفوفاً متراسة أمامهم في ساحة " أت ميدان " أي ميدان الخيل، والموجود في ثكناتهم، ويمكنوا أمام القزانات بعض الوقت، وهم في هرج ومرج شديدين. فإذا أقبل رؤسائهم ساد جو من الصمت والهدوء المطبق ، حتى يعلن أحد الرؤساء تفاصيل التمرد العسكري وأهدافه سواء قتل شخصية كبيرة، أو عدة شخصيات، أو حتى تنظيم مظاهرات عسكرية تتعرض لمواكب السلطان في أثناء مروره، أو الهجوم على القصر السلطاني والمناداة بخلع السلطان، وتتصيب غيره وبعدها ينطلق الإنكشارية وحوشاً ضارية لتنفيذ مخطط العصيان. وإذا ما قتلوا شخصاً أو أكثر حملوا رؤوس قتلاهم معهم ووضعوا هذه الرؤوس أمام كل قزان مقلوب. وعند إنتهاء ونجاح مخططهم تصدر لهم الأوامر من الرؤساء بإعادة القزانات إلى ثكناتهم تعبيراً عن إنتهاء التمرد العسكري.^(٢)ومن الطرافة في هذا الأمر أن قزانات الأورطة

(١) جورجى زيدان : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٦٧.

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق، ج ١، ص ٤٩٦-٤٩٧.

الواحدة متساوية في الكرامة مع شعارها وعلمها. فقد كانت كل أورطة مجهزة بثلاث طناجر كبيرة تستعمل لإطعام الجند. حتى أنهم كانوا يغيرون عليها بمقادير معادل لغيرتهم على عملهم أو شعارهم. نظراً لأهميتها وقديسيتها عندهم. وإذا ما انتزع العدو هذه القزانات من أورطة في أثناء القتال، فإن جميع ضباط هذه الأورطة يعاقبون بتخفيض الرتبة العسكرية لهم ، وإذا عاد إعتبارهم ، فلا يمكن أن يعودوا لنفس الأورطة. ولا يحق لهذه الأورطة إطلاقاً بعد ذلك أن تحمل قزاناتها في عرض عام، وهذه إهانة تلحق بالوحدة، ولا تزول عنها أبداً.^(١) كما مثلت هذه القزانات ملجأً للمجرمين والعصاة ، فمن أتى إليها مستجداً ، وجب على الإنكشارية حمايته ، والدفاع عنه كما كان يفعل العربي في حماية من يستجير بهم.^(٢)

قواعد وأنظمة خاصة بالإنكشارية:

لقد قام علاء الدين أخو أورخان بتنظيم الجيش العثماني بعد ما انتهى من تنظيم صفوف الإنكشارية. وقرر علاء الدين أن يوزع الأراضي التي يتم فتحها على الجنود، والقادة بدلاً من الأموال، كما كان يعطي هذه الأراضي للجنود النظاميين، والإنكشارية، وقد أخذت هذه العادة شكل التيمار بعد ذلك، وقد كان القائمين على تلك الأراضي مضطرين إلى تمهيد الطرق وإصلاحها للجيش في حالة الحرب، حتى أنه تم اختيار وحدة من الإنكشارية تستخدم في أعمال

(١) ياسين سويد : مرجع سابق، ج ١ ، ص ١١٦ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٢) جورج زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٧ .

الحفر، وإصلاح الطرق، وكان عدد تلك الوحدة في البداية ألف شخص.^(١)

فقد منح الجنود المستحقون مكافأة لهم إقطاع صغير، ويقوم بزراعته^(٢)، وعليه أن يقدم الجندي عدداً من الفرسان من اثنين إلى أربعة، أو عدد من البحارة لخدمة الأسطول، كما يمكن منحه إقطاع أكبر مساحة يطلق عليها "زعامت" ويطلق عليه "الزعيم" الذي يبلغ دخله مائة ألف "أقجة" وهذا الأخير يقدم عن كل خمسة آلاف أقجة رجلاً والأقجة الفضية تعادل ربع وزن الدرهم. ولكن نجد أن قيمة الأقجة اختلفت من عهد سلطان آخر ما بين ارتفاعاً وانخفاضاً على أن النظام الإقطاعي لم يلاق نجاحاً في الولايات العثمانية بقدر ما لاقاه في الموطن الأصلي للعثمانيين، حيث ثبت فشله بعد الاتساع الذي حققته الدولة العثمانية، ويعود السبب في ذلك إلى أن البكربك - الباشا - قد عمد إلى تفتيت إقطاعه وتوزيعه بين غير مستحقيه ممن يعملون معه من الأتباع. بينما أنشأت الدولة ليناله من يقدم للدولة خدمة عسكرية ممتازة في ميادين القتال. ولذلك عمد السلطان سليمان القانوني إلى إيجاد "قانون نامه" حيث حرم على البكربك حق التحكم في إقطاعه ، إلا بعد الرجوع إلى السلطة المختصة،

(١) جوزيف فون هامر ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ١٠٠.

(٢) لقد حاول المؤرخ هاملتون جب تشويه نظام الإقطاع حيث ذكر أن الأراضي كانت تنزع من المزارعين وتعطى للجنود، ويبقى المزارعون أصحابها أصلاً ، عبداً أجير فيها، ثم يقدموهم للخدمة العسكرية. وهنا يحاول تشبيه هذا النظام بالإقطاع في أوروبا، مع العلم أنه يختلف فالجنود يمنحوا الأراضي الجديدة ، كما وأن المزارعين ليسوا عبيداً، وإنما أصحاب الإقطاع، وإذا حدث هذا الأمر فإن ذلك وقت ضعف الدولة العثمانية وليس طوال عهدها.

كذلك صار أبناء أصحاب الإقطاع عليهم أن يثبتوا مقدرتهم العسكرية قبل أن يمنحوا حق إقطاع خاص لهم، فإذا بلغ أحدهم التاسعة عشر ولم يقدم عملاً عسكرياً، فإنه يحرم من قطعة أرض، إلا أنه غالباً ما تمت مخالفة هذا القانون بعد تطبيقه، وذلك للتهرب من الضرائب التي أخذت تزداد قيمتها يوماً بعد الآخر.^(١)

ولكن بعد مرور الوقت تم حصر أراضي التيمار على ضباط الإنكشارية المتقاعدين كمعاش لهم، أما الجنود غير النظاميين فقد خصص لهم أراضي ليست كمعاش الإنكشارية المتقاعدين، وليست بمقدار الأراضي التي يطلق عليها التيمار.^(٢)

أما عن الزواج : لم يكن يسمح للإنكشارية بالزواج ، فكان الفرد يعيش منهم دون الأمل في أن تكون له زوجة، أو أبناء، و لكن حب الجهاد في سبيل الله ملأ قلبه وحياته والقرآن هو منهجه ودستوره، والسلطان العثماني والده، والثكنة العسكرية مأواه.^(٣)

وعندما سمح لأفراد هذه الفرقة بالزواج في نهاية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، تحولت الإنكشارية إلى وظيفة وراثية فقد صار الإلتحاق بها بالوراثة دون العناية بالمقدرة على أداء الخدمة العسكرية، ثم ضعف أمر الإنكشارية بعد ذلك ، كما أن زيادة الأسعار وتأخر رواتبهم، جعلهم يضطروا إلى

(١) هاملتون جب: مرجع سابق، ص ١٩٤، ١٩٥.

(٢) فون جوزيف هامر: مرجع سابق، ص ١٠٠، ١٠١.

(٣) Osmanli "Tarin ve medeniyet" s, ٣٨٤-٣٩١ عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ج ١،

الإشتغال ببعض الصناعات اليدوية، أو الإلتحاق بخدمة السفراء الأجانب، كما فعل بعض من ضباط الإنكشارية ^(١) قد حرم على الإنكشارية الإساءة في معاملة الفلاحين ، أو عمل أي شيء بدون إذنهم ، أو تعويضهم ، كما أن الإنكشارية كانت تعتمد على نفسها في المؤن دون الأخذ من الأهالي، و كانت تحافظ على صلاتها وخاصة صلاة الجمعة في أثناء الحرب. ^(٢)

كان للإنكشارية أعمال أخرى غير الحرب والقتال، فقد كانت الدولة تعزز جيوشها بها في الأقاليم المفتوحة حديثاً، وكان لهذه القوات الصدارة على سائر جيوش الدولة العثمانية في الولايات العثمانية في أوروبا، و فرق الحاميات العثمانية في الولايات العربية، ونذكر على سبيل المثال بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية، ومصر، والعراق. فقد كان الإنكشارية في هذه الممتلكات يخضعون لإمرة الولاية المحليين، ويتقاضون مرتباتهم من الحكومة المحلية في الولاية. ^(٣)

كما كان للإنكشارية الحق في تولي إمارة قافلة "حج دمشق" وكان ولاية دمشق يعينون أحد كبار الإنكشارية أمراء للجيش ، كما أنهم شاركوا في جمع الضرائب من دمشق، حيث استمرت الدولة العثمانية في إرسال عدد من الإنكشارية لمساعدة دفتر دار دمشق

(١) محمود السيد: مرجع سابق، ص ٢٠٠. وقد أكد على ذلك كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ٤٦٧ .

(٢) من شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت"

[http:// www. Geocities. Com/ The Tropics/ Paradise/ 5831 ottoman 2. Htm.](http://www.Geocities.Com/TheTropics/Paradise/5831ottoman2.Htm)

(٣) عبد العزيز الشناوي: ج ١، مرجع سابق، ص ٤٩٤.

في جمع الضرائب من دمشق بشكل دائم، وأصبحوا يجمعوا الضرائب من الأهالي مضاعفة عن المحدد من قبل الدولة، ويتعسفوا في جمعها ويظلموا الأهالي، وكانوا يرسلون المقدار المطلوب للسلطان، والباقي يحتفظوا به لأنفسهم.^(١)

وهذا يفسر كره أهالي الشام للحكم العثماني والجند العثماني على حدٍ سواء نظراً لإثقال كاهلهم بالضرائب من قبل الإنكشارية والتعسف في جمعها.

أما عن العقوبات العسكرية المفروضة على الإنكشارية فكان يجب توخي الحذر والحيلة قبل تنفيذ الأحكام حيث يتم استجوابهم ومعرفة مدى تورطهم في أي قضية^(٢) فقد خصتهم الدولة بعدة امتيازات، منها منحهم حصانة تمنع القبض عليهم، أو فرض العقوبات عليهم من قبل السلطات المدنية، فكان ضباط الإنكشارية دون غيرهم يقومون بتنفيذ العقوبات العسكرية التي يحكم عليهم بها،^(٣) ولقد تعددت، أو تفاوتت تلك العقوبات بين الجلد، والسجن، والحبس وغيرها، حيث كان يوجد في أنظمة الجيش الإنكشاري خمسة أنواع من العقوبات العسكرية هي:-

١- الحبس المؤقت، وكان الحكم به من صلاحية الضباط الأعوان.

(١) نوفان رجا الحمود: العسكر في بلاد الشام في القرنين ١٦ و ١٧ م، د.ط، بيروت: دار الآفاق العربية، ١٤١٠هـ - ١٩٨١م، ص ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : وثيقة رقم ١٧٣٥٧ HAT.H .

(٣) محمد سهيل طقوش: مرجع سابق، ص ٢٨.

- ٢- الجلد البسيط، وكان الحكم به من صلاحية الأوذاباشي
"رئيس الفرقة" الذي ينفذه بيده وبالسوط ويجلده تسعوة
وثلاثين جلدة على ظهر المحكوم عليه.
- ٣- الجلد الكبير، وكان الحكم به من صلاحية قائد الأورطة
الذي كان يأمر بجلد المحكوم عليه تسعة وسبعين جلدة
بالسوط ينفذها شاويش القطعة. ويتطلب حكم الجلد
بنوعيه، لتنفيذه موافقة الأغا قائد الجيش، والصدر
الاعظم.
- ٤- الحبس المؤبد، وكان المحكوم عليه ينفذه في إحدى
قلاع الدردنيل، أو البوسفور.
- ٥- الموت، وكان المحكوم عليه ينتظره في إحدى قلاع
الدردنيل، أو البوسفور، حيث ينفذ فيه الحكم ليلاً، خنقاً
بالأنشطة ، ثم ترمى جثته في المحيط.^(١) فقد كانت
تصدر الأوامر إلى سلاح الطوبجية "المدفعية" بإطلاق
طلقة واحدة من المدفع إيداناً بتنفيذ الحكم، فإذا تم التنفيذ
رمى جثة الإنكشاري بعد أن تشد إلى القدمين قلة من
الحديد.
- كما كانت توقع على الإنكشاري عقوبة الخصاء، إذا اعتاد
الإجرام، أو تعددت حوادث خروجه عن قواعد الانضباط العسكري،
فيأمر "يني شرية أغاسي" أي رئيس الإنكشارية بإجراء عملية

(١) ياسين سويد: ج١، مرجع سابق، ص ٩٧-٩٨.

الخصاء الجزئي، أو عملية الخصاء الكلية له، ويفقد الإنكشاري رجولته، ويلحق بالخدمة الداخلية في القصر السلطاني.^(١)

أما الضباط العامون، فيعاقبون عادة بالتجريد من الاموال والممتلكات، ثم النفي.

لم تكن هذه العقوبات تنفذ علانية على الإنكشارية إلا في الضرورة إذا كانت الجريمة واقعة على شخص ما، ولا يتم تنفيذها إلا بأمر من السلطان مباشرة^(٢)، وكان المتهم يمثل أمام محكمة مؤلفة من ستة ضباط كبار، يرأسها الصدر الأعظم، ويشترك فيها الأغا قائد الجيش، ويتم تجريد المحكوم عليه قبل تنفيذ الحكم به، بأن تنتزع عمامته عن رأسه، ويمزق طوق سترته علامة تجريده، وذلك كي ينزل برتبته إلى مستوى العامة، ثم ينفذ الحكم به.

وكانت عقوبة الفرار في زمن السلم الحبس أو الجلد، أما في زمن الحرب، فبالإضافة إلى العقوبات السابقة كان يشهر بالعسكري الفار، ويعتبر منبوذاً، ومرذولاً، وجباناً لا يستحق شرف الذود عن حماية الدين والدولة، وكثيراً ما كان رؤساء هؤلاء العسكريين يغالون في معاقبة مروؤسيهم الفارين بأن يقطعوا أنوفهم، أو آذانهم أو يحكموا عليهم بالموت خنقاً، ويتم تنفيذ الحكم الأخير في الميدان في

(١) عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ج ١، ص ٤٧٩.

(٢) حيث حدث ذات مرة أن محافظ قنديه أعدم أكثر من جندي إنكشاري دون أمر من السلطان، نتج عنه عزل هذا المحافظ نتيجة لسوء تصرفه وإقدامه على أعمال مخالفة لعادات الأوجاقات العسكرية.

جناح خاص بالجلادين يسمى "ليك - تشادري" - "Leilek- Tochadir"^(١).

ومن هذا الإستعراض لتأسيس الإنكشارية وأنظمتها ورتبها نجد أن الدولة العثمانية قد أسست جيشاً على أسس سليمة، عملت هذه الأسس بمنتهى الكفاءة، عندما سارت عليها الإنكشارية، ولكن عندما انحرفت عن طريق الجادة، وتركت قوانينها وأسسها الأصلية، فقدت المعنى الذي وجدت من أجله وهو الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، واصابها الخلل والفساد ، وجيش الإنكشارية أنشأته الدولة العثمانية في وقت كانت أوروبا تعاني الأمرين من جيوش المرتزقة، التي لا يضمن ولائها.

وفكرة جيش الإنكشارية وأنظمتها لم تكن غريبة في ذلك الزمان فقد كانت عدة جيوش اعتمد تكوينها على الأطفال المشردين، ومع ذلك تركت هذه الجيوش ، ولم يتعرض لها المستشرقين بالجرح أو التشويه، وتعرضوا للجيش الإنكشاري المسلم بالتشويه وطمس الحقائق وهذا موضوع المبحث القادم.

(١) ياسين سويد: ج ١، مرجع سابق، ص ٩٨-٩٩. أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : خط همايوني H.H رقم الوثيقة ١٩٣٠٤ .

المبحث الثالث

آراء المستشرقين ومن شايعهم حول الإنكشارية والرد على هذه الآراء .

إذا كان ظهور الدولة العثمانية على مسرح الأحداث السياسية ، غير وجه التاريخ في منطقة آسيا الصغرى والبلقان والبلاد العربية بل وشرق أوروبا ذاتها ، فإن الجيش الذي حقق هذا التغير كان له إسهامات فاعلة في تنظيم الجيوش السائدة في ذلك الوقت .

وإذا كان ذهن السلاطين العثمانيين قد تفتق عن فكرة تدريب الغلمان المشردين لإعدادهم عسكرياً ، فإن هذه الفكرة لم تكن جديدة على الشعوب في ذلك الوقت ، فقد وجدت منذ زمن بعيد ، في الوقت الذي لم تكن لأوروبا في تلك الأوقات ، عساكر متفرغة مهينة دائماً للحرب ، وإنما كانوا يجمعون العساكر من أطراف البلاد عند إعلان الحرب . (١)

لقد عاش الجندي العثماني حياة الحرب مئات السنين ، احتفظ خلالها بكافة الفضائل الحربية الرائعة في كل الظروف ، والتي جعلته نموذجاً مثالياً للرجل المحارب . على أن هذا الجندي تعرض لمحن كثيرة أثناء مسيرته الشاقة ، كما ظهرت عليه أعراض الفساد والانحراف ، مثل جندي الإنكشارية . ومع هذا بقي في داخله عاملاً ثابتاً لم يتغير عبر الزمن وهو " الإيمان " بعدالة قضيته وبحقه في حماية دينه والدفاع عنه . وكان هذا الإيمان هو الذي حشد كل أبناء

(١) أحمد جوبت : مصدر سابق ، ورقة ١٧١ .

الدولة العثمانية ، وجعلها تحمل على عاتقها حماية ونشر الإسلام . (١)

للأسف إن الأقلام الحاقدة على الإسلام قد اتجهت إلى تشويه تاريخ الدولة العثمانية الإسلامية ، وذلك لأن العثمانيين أخذوا على عاتقهم الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام في أصقاع أوروبا طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية وحماية الإسلام ، ومن قام بهذه الحركة الجهادية ، هو الجيش العثماني الذي قوامه المشاة أي الإنكشارية ، وبالتالي أتجه التجريح والتشويه لهذه الفرقة المجاهدة في سبيل الله . يكاد يجمع جميع المستشرقين على نص واحد في تشويه الإنكشارية وأصلهم وطريقة جمعهم ، وافترض وجود ضريبة الغلمان وما صاحب ذلك من تعديات على الأسر المسيحية .

وقد جزم جميع المستشرقين بصحة ضريبة الغلمان ، وأن الدولة مارستها لمدة طويلة من الزمن ، ولم يورد أحد المستشرقين دليلاً واحداً أو مرجعاً موثقاً ذكر هذه الضريبة التي تعتبر من أخبث الافتراءات التي ألصقها المستشرقون بتاريخ الدولة العثمانية ، والتي تزعم أن العثمانيين كانوا ينتزعون الأطفال الصغار من أحضان أسرهم ، فيما يسمى " بضريبة الغلمان أو " ضريبة اللحم البشري" ثم يكرهوهم على اعتناق الإسلام لأن الإسلام لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح ، بموجب نظام أو قانون يدعى نظام " الدوشرمة" ومن ثم الالتحاق بالجيش العثماني . وقد أدعى

(١) بسام العسلي : فن الحرب الإسلامي في العهد العثماني ، د. ط ، دار الفكر ، د . ت ، ج ه ،

المستشرقون أن هذه الضريبة فرضتها الدولة العثمانية على رعايا المسيحيين الذين اعتنقوا المذهب الأرثوذكسي ، مثل الجزية حيث يتم أخذ أطفال في سن صغيرة من أسر الفلاحين المسيحية ، وبعد تربيتهم في الدوشرمة ، يتم إلحاقهم بالإنكشارية ، حتى يحاربوا مع الدولة العثمانية .

وقد حاول هؤلاء المستشرقون أن يسرفوا في استثارة المشاعر الإنسانية في المبالغة بتصوير المعاناة والآلام النفسية القاسية التي يلقاها هؤلاء الأطفال عند انتزاعهم من أسرهم ، وحال الأبويين عند انتزاع أطفالهم . كما أدخلوا هذا الأمر في أن السلطان كان له الحق في انتزاع خمس الغنائم له شخصياً .^(١) وهذه الحصة تكون في الأطفال بمعدل خمسة أطفال من كل مدينة ، حيث يرسل السلطان وكيلاً إلى كل مدينة وقرية مسيحية ، يطلع على كشف يقدمه له قسيس الكنيسة بأسماء الأطفال الذين تم تعميدهم في الكنيسة فيختار الوكيل عدداً من الأطفال ما يعادل خمس مجموعهم ، تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة والعاشرة وقد يصلوا إلى العشرين ، وينقل هؤلاء الأطفال التعساء إلى العاصمة ، حيث تنقطع الصلة بينهم وبين أسرهم نهائياً . وفي العاصمة تجرى لهم عملية الختان ، ثم يلتحقوا بأربعة مدارس في إستانبول مع أنها لم تكن فتحت في عهد أورخان أو السلطان مراد الأول ، وهما اللذان تزعم الفرية أن أحدهما ابتدع هذه الضريبة ، ويتعلموا في هذه المدارس مبادئ الإسلام ، واللغة التركية ، والتاريخ الإسلامي بشكل عام ، والتاريخ

(١) زياد أبو غنيمة : مرجع سابق ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

العثماني بشكل خاص، إضافة إلى النظم العثمانية ، وذلك كله وفق
مناهج وضعت خصيصاً لمحو كل أثر للنصرانية . (١)

ويدعي البعض أن صاحب هذه الفكرة هو هابيل الأسود ،
وزير السلطان أورخان ، والذي زين الفكرة للسلطان وحببها إلى
قلبه ، فأخذ بها أورخان ، وكانت هذه الضريبة عوناً كبيراً للدولة
على إيجاد مورد آدمي لا ينضب ، لإيجاد فرق عسكرية كاملة من
المشاة . يضعون عقولهم وأجسامهم وخبراتهم في خدمة السلطان ،
لإحراز انتصارات عسكرية في ميادين القتال ، بهدف تحقيق مزيداً
من الفتوحات في أوروبا ، وتلتها أفريقيا في أوائل القرن السادس
عشر. (٢) ولم يكن جميع أفراد الإنكشارية حصيلة ضريبة الغلمان
من البلاد الأوروبية المفتوحة ، (٣) بل ضمت بين صفوفها أطفالاً
اشترى بالمال أو أسروا في الحرب . (٤)

وإذا نظرنا إلى أقوال المستشرقين كلاً على حده ، نلاحظ أنهم
اتفقوا تماماً فيما سبق ووجدت بعض الزيادات عند بعضهم أو
اختلافات ، لكنها لا تخل بمضمون الفرية الأساسي .

فالمؤرخ الألماني المستشرق كارل بروكلمان ، جاء كلامه
مطابقاً تماماً لما سبق ، وإن كان زاد عليه أن سبب إنشاء هذا
الجيش ، مغالاة الناس في المطالب مقابل الخدمة في تنظيم هذا
الجيش مما أثار مخاوف السلطان أورخان ، فقرر الاستغناء عن

(١) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(٣) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(٤) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٦ .

استخدام الإقطاعيين ، واختلف أيضاً أنه نسبها إلى نصيحة جاندرلي بإحياء العرف الإسلامي القديم بالاحتفاظ بخمس الغنائم ، وكانت النواة ألف غلام نصراني . كما زاد على ذلك بروكلمان ، أنه تحدث عن كيفية تدريبهم ومعاملتهم ، والتي وصفها بأنها التزمت بالمبادئ الإنسانية لأبعد الحدود ، ثم يقسموا إلى خمسة أصناف ، ثم نسب الضريبة إلى سليم الأول ، ثم حدد مدة لجمع هؤلاء الغلمان إذ أنها كانت تجمع كل خمس سنوات ثم تقاصرت المدة حتى صارت تجمع كل سنة . (*)

وقد تمادى في غيه إذ قال أن الدولة صارت تنتزع جميع الأطفال السليمي البنية في وقت متأخر ممن تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والخامسة عشر . ووصف أن هذا الأمر لم يخلوا من التلاعب والعبث بالقانون ، إذ أن الموظفين العثمانيين كانوا يأخذون الرشاوي من أباء الغلمان الأثرياء ثمناً لحرية أبناءهم ، ثم يعود مرة أخرى إلى الحديث المتناقض فيقول مهما يكن من شيء فإن المستقبل اللامع الذي ينتظرهم يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة ، الأمر الذي أدى إلى استثارة حسد الأتراك أنفسهم فكانوا يسعون كثيراً إلى دس أبنائهم في صفوف الغلمان النصاري . (١)

أما برنارد لويس فلم يصف على الفرية الكثير ، ولكن ظهر التناقض واضح عندما ذكر أن المجاهدين كانوا من الأتراك

(*) ذكر أن هذه الضريبة فرضت على جميع البلدان البلقانية واليونانية ، وبعد ذلك المجر ولم يعف من هذه الضريبة إلا قليل من المناطق المتمتعة بمعاهدات مثل غلطة ورودس وإستانبول . كيف تتمتع العاصمة بمعاهدة ، وهذا يدل على عدم صدق إدعائه . كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ٤٦٥

(١) مرجع سابق ، ص ٤٦٥ .

أنفسهم ولقرون عديدة ، ثم استخدموا المسيحيين اليونانيين الذين أسلموا وصاروا مجاهدين بارزين ، أما عن الأطفال فقد ذكر أنهم كانوا يعملون خدم في القصر السلطاني ، أو يوضعون تحت رعاية السباهية الإقطاعية ^(١) ومع مرور الزمن صار نظام الإنكشارية المشكوك في شرعيته نظاماً عثمانياً مقبولاً على القرى المسيحية . ^(٢) واتفق مع بروكلمان في أن أصل الفكرة يعود إلى جندرلي ، ولكنه أوضح أنها لم تكن من بنات أفكاره وإنما لفت نظره إليها عالم مسلم من قرمان اسمه قره رستم ، وزعم برنارد أن هذا الأمر بدعة من عمل الفقهاء ، وينسب ذلك إلى مؤرخ تركي لا يذكره. ^(٣)

وقد اتفق معهم المؤرخ الإنجليزي فيشر ولكنه أضاف نقطة مهمة ألا وهي إرجاع الفضل في قيام الدولة العثمانية واستمرارها ليس للعثمانيين فقط بل للصقالبة النصارى من أمهات مسيحيات . ^(٤)

المستشرق الفرنسي جيبون وضع سبباً لقيام الجيش الإنكشاري ، وهو فشل مراد الأول في إدخال نصارى البلقان في الإسلام عن طريق العتق من الأسر ، فأنشأ هذا الجيش ونظام

(١) برنارد لويس : إستانبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية ، ترجمة سيد رضوان ، الطبعة الأولى ، جامعة بني غازي، د. ت ، ص ٦٥-٦٦ .

(٢) برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان ، الطبعة الثانية ، جدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م ، ص ٤٦ .

(٣) برنارد لويس : مرجع سابق ، الطبعة الأولى ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٤) هـ . أ . ل . فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، تعريب محمد زيادة - السيد العرين - إبراهيم العدوي ، الطبعة الثانية القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧م ، ص ٤٤٨ .

الدوشرمه ، لإكراه الأطفال على الإسلام ، حتى أن كثير من الصقالبة اليونانيين فضلوا الدخول في الإسلام على أن تسلم أبنائها للعثمانيين ، ثم يتحدث على أن السلوك الحسن والمثل الجادة ، وترك الحرية الدينية مع إقامة الشعائر من صفات الإنكشارية.(١)

وقد وضع بييري أندرسون فلسفة جديدة لنظام الإنكشارية إذ وصفه بأنه التوفيق بين التقليد الغزوي في تغيير الدين والتوسع العسكري من جهة ، والتقليد الإسلامي القديم في التسامح وأخذ الجزية من غير المسلمين من جهة أخرى ، ويقصد بكلمة الغزوي أي مبادئ الغزو وأخذ الأسرى . (٢)

ولكن أحداً لم يصل إلى حد إفتراء وتشويه بول كولنز حيث ربط نظام الدوشرمة ، بنظام الرق الذي أقره الإسلام ، حيث فسر لها من وجهة نظره ، إذ أوضح طالما أن هؤلاء ليسوا مسلمين ، فمن حق العثمانيين أخذ ضريبة الرأس منهم ، ولأن عدد الأسرى لم يكن كافياً لتلبية حاجات القصور من عبيد ، فقد وضع العثمانيون سياسة استرقاق (*) الغلمان ، وقد زاد جمع الأطفال بمرور الزمن . وقد

(١) محمد فؤاد كويريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، د. ط ، دار الكتاب العربي ، د. ت ، ص ١٠ ، ١١ .

(٢) بييري أندرسون : دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بديع عمر نظمي ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٣ م ، ص ١٥ .

(*) لقد تحدث عن نظام الرق بشكل جازح دون فهم لتعاليم الشريعة الإسلامية فوضح أن الإسلام أقر الرق طالما كانت الشعوب المستترقة غير مسلمة ، أو لم تقدم ضريبة الرأس وهي ضريبة يراها المسلمون حقاً لهم ، أي ضريبة تحدث عنها ربما قصد الجزية ولكن هذه الجزية تقدم مال وليس رقيق . ومن الواضح أنه أخذ نظام الرق في أوروبا ووضعه مكان الجزية في الإسلام . كما تحدث عن نقل العبيد بطريقة سيئة لكنهم ينالوا مكافأة عندما يدخلون عالماً جديداً غنياً ، ونسي هذا الكاتب =

اتفق بول كولنز مع بروكلمان في أن هذه الضريبة لم تلق
الامتعاض والاستياء الكافيين من الأهالي ، إذا ما قورنت حياتهم في
الإنكشارية بحياة البؤس والحرمان والفقر في قراهم المسيحية . (١)
أما روبير مانتران فقد أستفاض في الحديث عن ضريبة
الغللمان ، لدرجة أنه قال أنها ارتكزت بشكل أساسي على أسرى
الحروب ، والذين جمعوا بطريقة أكثر تحدياً من العشر (٢) العائد
للسلطان ، إضافة إلى شرائهم من أسواق النخاسة ، ثم أقل عدد كان
يأتي من نظام الدوشرمة، كما أضاف أن أطفال المسلمين خضعوا
لهذه الضريبة باستثناء أهل البوسنة والهرسك الذين اعتنقوا
الإسلام ، وأوضح أنه من شدة قساوة هذه الضريبة على الأسر
المسيحية ، فقد صورها التراث الشعبي رمزاً لصرامة الحكم
العثماني ، كما نقل روبيرمان نتران عن ستيفان جيرلاش أن عدداً من
المسيحيين كانوا يلجأون إلى تزويج أبنائهم وهم في الثامنة أو
التاسعة من العمر ، حتى يعفوا من التجنيد ، لكنه يناقض نفسه إذ
يقول أن هناك شهادات تكشف عن تنذب هذه الظاهرة ، لأن هذا

= كيف أن أوروبا الغنية استعبدت شعوب إفريقيا بمنتهى الوحشية ثم يناقض الكتاب كلامه حيث يقول
أن العبيد يفضلون العيش في قصور الأغنياء على حياة قراهم الفقيرة ، وأن المعاملة السيئة المهينة
للسيد لا تفرق عن حياة قريته التعيسة !

لقد وضح التناقض في كلامه تارة يتحدث عن المعاملة الوحشية ، وتارة يتحدث عن أن العبيد يفضلوا
هذه الحياة ، وهذا يدل على مدى التفتيق والتشويه .

(١) بول كولنز : العثمانيون في أوروبا ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، د . ط ، القاهرة :
الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٣م ، ص ٥٢ ، ٥٤ ، ١١٥ ، ١٦٢ .

(٢) ليس العشر وإنما سهم من الخمس هو من حق ولي الأمر .

التجنيد في نظره يكفل لابن الأسرة مستقبل مشرق ، حتى أن المسلمين كانوا يستبدلون أبنائهم بأبناء المسيحيين حتى يتيحوا لهم هذه الفرصة السعيدة . كما قام بوصف حياتهم إذ قال أنهم يعملون كعبيد عند الفلاحين أو العساكر ، وبمجرد وصولهم إلى الإنكشارية ، أو وظائف الدولة ، فلا ينطبق عليهم معنى مصطلح العبيد إذ لا يجوز بيعهم أو إلحاقهم بخدمات غير خدمات الدولة .^(١) هاملتون جب كرر نفس الكلام دون وعي أو إدراك للحقيقة ، بل وأضاف سبباً جديداً لإنشاء الإنكشارية ألا وهو أن المحاربين الأوائل لم يكونوا سوى رجال عصابات وقطاع طرق ، لذا لم يكن من السهولة الاستفادة منهم ، فسعى السلطان^(٢) للتخلص منهم ، واستبدلهم بالعدد الوفير من الغنائم والأسرى الذين جاءوا إليه من أولى حملاته على أوروبا .^(٣) وأضاف أن هذا الأسلوب الجديد الذي ابتكره آل عثمان لم يكن يكلف السلطان شيئاً من المال ، ولكن العيب فيه هو مخالفته لأحكام الشريعة كل المخالفة .^(٤)

خليل إينالجيك سار على نفس خطاهم ، ولم يختلف معهم في الفرية ذاتها ، ولكنه قال أن هذه الضريبة استثنت أطفال المدن والوحيد لأبويه . وقد أكد أن الأتراك المسلمين استثنوا من نظام الدوشرمة ، وذلك على حد تفسيره حتى لا يسيئوا استخدام الميزة

(١) روبرت مانتيران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ، ترجمة بشر السباعي ، الطبعة الأولى ، القاهرة :

دار الفكر للدراسات والنشر ، ١٩٩٣ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٨ .

(٢) لم يحدد اسم السلطان في هذه الفقرة .

(٣) هاملتون جب : مرجع سابق ، ص ١٠٣ ، ١٠٦ - ١٠٧ .

(٤) مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

الممنوحة لهم ، إذ سيقوم أقاربهم بإضطهاد الرعية ، وسيرفضوا دفع الضرائب ، أما أبناء المسيحيين فحين يعتنقون الإسلام يصبحوا غيورين على الدين ويصبحون أعداء لأقاربهم ، وأرجع أقواله إلى مصدر عثماني من القرن السابع عشر ولم يذكر اسمه أو أي معلومات عنه . وأكد أن العائلات المسلمة في البوسنة كانت تقدم أولادها للدوشرمة . وقد ناقض نفسه مثل باقي المستشرقين حيث أوضح أن الأهالي المسيحيين كانوا يحاولوا تفادي هذه الضريبة في الوقت الذي كان فيه مسيحيوا المناطق الجبلية يقدمون أبناءهم عن طيب خاطر لهذه الضريبة ، وقد حدد المواعيد التي يجمع فيها الأطفال على حد زعمه كل ثلاث أو سبع سنوات ، حسب الحاجة ، مستنداً إلى الوثائق العثمانية، حيث أوضح أن إحدى الوثائق تشير إلى أنه في خلال القرن السادس عشر الميلادي كان يجمع كل سنة ألف ولد ، بينما تشير الأخرى إلى أنه كان يجمع كل سنة ثلاث آلاف ولد في نفس القرن السابق . (١)

أما المؤلف الإنجليزي المجهول والذي ترجم كتابه حسين لبيب فلم يختلف عن باقي المستشرقين ، إلا أنه تحدث عن حياتهم وتربيتهم ، وهي متأرجحة ما بين شطف العسكرية ، والتعلم على احتمال الفقر ، وبين الهبات والعطايا والترقي السريع ، وقد شبه الجيش العثماني بالفرق الرومانية ، التي تأخذ أسرى الحروب لأنها تجد الربح السريع ببيعهم ، وعندما زاد عدد الأسرى ولم يجد

(١) خليل إينالجيك : تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، الطبعة الأولى، بيروت : دار المدى الإسلامي ، ٢٠٠٢م ، ص ١٢٤ ، ١٤٢ .

العثمانيون من يشتري هذه الأعداد الكثيرة . أخذوا خمس الغنائم من الأسرى ليصبحوا أطفال الدوشرمة، وأضاف أنه يتم إعفاء الأسرى من الفدية وإطلاق سراحهم إذا اعترفت الدول المسيحية ، وتم عقد معاهدة بين الطرفين . (١)

ونضيف آراء محمد الأرناؤوط (*) في هذا الأمر والذي أورد في كتابه دراسات ووثائق حول الدوشرمة ووثائق تثبت أن الدولة العثمانية قامت بجمع ضريبة الغلمان فيما يسمى " بنظام الديوشرمة " من الأسر المسيحية في بلاد البلقان ، معتمداً بالإضافة إلى الوثائق على كتابات الرحالة الغربيين . (٢)

في البداية جزم بأن قوات الإكينجي " الخيالة السريعة " مهمتها إرهاب وإثارة فزع أهالي القرى المسيحية وذلك بهدف أسر أولادهم وأخذ الخمس منهم ضمن أولاد الديوشرمة . (٣) وأوضح أن الحال تغير بعد معركة أنقرة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م إذ توقفت الفتوحات

(١) حسين لبيب : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٢) ذكر محمد الأرناؤوط الدراسات السابقة التي تختص بهذا الموضوع :-

١- بحث نشره أحمد رفيق عام ١٩٢٦م بعنوان أصول الدوشرمة وأولاد العجم . أحتوى على عدة وثائق مختصرة وفرمان كامل يعود إلى عام ١٦٢١م .

٢- بحث قدمه غ غالابوف الباحث البلغاري نشر فيه كثير من الوثائق الخاصة بالدوشرمة . قدم كثير من المعطيات وأعتمد على وثيقة مأخوذة من قانون نامة قديم .

٣- الباحث أوزنتشار شيلي قدم بحث يعتبر أكبر بحث كتب حول الدوشرمة ، حيث أعتمد على الوثائق وقدم من خلالها معلومات ذات صلة وثيقة بالموضوع .

لكن كل هذه الدراسات أعتمدت في الأغلب على وثائق موجودة ضمن مجموعة تاريخ مقدونيا القديمة في أرشيف فيريا . ومعهد التاريخ القومي في سكوبيه وقليلاً من الوثائق الموجودة في إستانبول .

(٢) محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص ٢٩-٣٣ .

(٣) المرجع سابق ، ص ٣٦ .

العثمانية ، وبالتالي توقف تدفق الأسرى على السلطان العثماني والذي كان يحصل على خمس أسرى الأطفال منهم ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية في أشد الحاجة إلى شبان للقيام بفتوحات جديدة . ومن هنا جاءت فكرة انتزاع الأبناء من الأسر المسيحية . حيث صدر قانون الدوشرمة عام ١٨٢٤هـ / ١٤٥١م في عهد مراد الثاني، والذي أثبت أن هذا النظام عملي أكثر من خمس الأولاد الذي يحصل عليهم السلطان من غنائم المعركة ، لأن هذه الضريبة تغذي الإنكشارية بفيض من الشباب الأقوياء ، وأكد الأرناؤوط على أن هذا القانون عمل جنباً إلى جنب مع استمرار أخذ خمس أسرى الحرب ، وقد تركزت على شعوب البوسنة وبلاد اليونان والبلغار والأرمن . ^(١) كما أورد أن أعمار الأولاد كانت متفاوتة وتتراوح ما بين تسع أعوام إلى ثمانية عشر عام . ^(٢)

واستفاض في الحديث عن مقاومة السكان لهذه الضريبة من تقديم رشوة لجامعي الأولاد ، خاصة من الآباء الأغنياء ، إضافة إلى لجوء الأسر بأكملها للهرب أو هرب الأولاد فقط ، أو لجوء الأهالي إلى الهجوم المسلح على جامعي الأولاد ، حيث أورد أنه صدر فرمانين في عام ١٦٠١م بهما أوامر صريحة مفادها شنق أي أب أو أي شخص من الكافرين يرفض تسليم ابنه ، كما توجد عقوبات صارمة لمن يخفي أبنائه عن جامعي الدوشرمة جاءت في فرمان صدر عام ١٦٢٢م . كما أشار الأرناؤوط إلى عدة فرمانات

(١) محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص ٣٦-٣٩ .

(٢) مرجع السابق ، ص ٤٠ .

بها أوامر صريحة بالتأكد من عدم هروب الأولاد من القافلة أثناء السير إلى إستانبول أو بعد الوصول إليها ، أو حتى بعد تعيين الشبان في إحدى القلاع . (١)

كان هذا عرض لبعض أهم آراء المستشرقين حول نشأة الإنكشارية، ويوضح العرض السابق مدى الحقد الذي يكنه هؤلاء للإسلام والعثمانيين بالتالي ، وقد سار على نهجهم للأسف كثير من المؤرخين المسلمين العرب ، واقتنعوا بأرائهم وسلموا بها دون مناقشة أو تمحيص للمعلومة لمعرفة مصدر المعلومات .

لقد أكد كثير من المؤرخين (*) العرب هذه الفرية في كتاباتهم والتي سماها عبد العزيز نوار ضريبة الدم . (٢) وأضاف أحمد شلبي أن نظام البدل كان معروفاً ، وهو عبارة عن دفع مقدار من المال لإعفاء بعض الغلمان من الضريبة . (٣)

أما عبد الوهاب بكر فقد تفرد بوصف خاص عن الإنكشارية حيث أطلق عليهم جهاز تفريخ القوى البشرية التي تزود الجيش بالرجال منذ عهد أورخان . (٤)

(١) محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص ٤٩-٥٧ .

(٢) ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص ٣١ ، محمد كمال الدسوقي : مرجع سابق ، ص ١٧ . أحمد شلبي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٨٤٩ ، ٤٥٠ . أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص ٤٤ . حسن الضيقه : الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، دار المنتخب ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م ، ص ٩٢ . عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٣٨، ٣٧ . عبد العزيز الشناوي، مرجع سابق، ج ١ ، ص ١٢٠ .

(٢) عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٣) أحمد شلبي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٨٥٠ .

(٤) عبد الوهاب بكر : مرجع سابق ، ص ٥٧ .

أما عبد السلام عبد العزيز فهمي فقد أشار إلى قضية جديدة وهي أن اختيارهم لم يتم على حسب جنسيات الغلمان ، وإنما حسب وجودهم وقوة أجسامهم وبراعة عقولهم . (١)

أما إسماعيل ياغي فقد جزم بفرض الدولة العثمانية ضريبة الغلمان، لكنه عاد فتحدث عن البلاد المفتوحة ، إذ قال أنه ربما تعرضت البلاد للخراب من جراء الحروب ، مما أدى إلى هلاك كثير من الأسر جوعاً . وهذا يعني أن الدولة كانت تتبنى الأطفال اليتامى في كثير من الأحيان ، ولولا تبني الدولة لهم لتعرضوا للهلاك ، ثم أكد أن الدولة العثمانية ، تولت المسيحيين بالحماية وإعفائهم من الخدمة العسكرية ، وكان على المسيحيين أن يدفعوا في المقابل ضريبة الرأس . (٢)

أما أحمد عبد الرحيم مصطفى فقد جزم أن العثمانيين اختاروا أنكى أبناء المسيحيين وأخذوهم . (٣)

أما عبد العزيز الشناوي فقد جزم بصحة الفرية ، وأنها كانت تجمع كل سنة لكثرة الحروب والتكتلات الصليبية التي تواجه الدولة العثمانية. (٤)

لكن الحصري زعم أن دار الروم " أو الروم إيلي " كانت دار حرب من الوجهة الشرعية فيسوغ فيها الإسترقاق كما يزعم

(١) عبد السلام عبد العزيز فهمي : السلطان محمد الفاتح ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار القلم ، ١٣٩٥ هـ ، ١٩٧٥ م ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص ٢٥٤ .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص ٢ .

(٤) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ .

الحصري . ولذلك فقد أبتكر آل عثمان في عهد السلطان أورخان طريقة تضمن لهم تكوين جيش دائم يحسن الحرب والجهاد فأخذوا يقومون من وقت لآخر بغارات إلى ما وراء حدودهم في بلاد النصرانية بقصد استرقاق الأطفال ولقد عرف هذا الجيش فيما بعد بالإنكشارية فكان محور قوتهم واستطاعوا به فتح البلاد في أوروبا التي لم تكن دخلت في حوزة الإسلام من قبل مما أدى إلى زيادة عدد الرقيق مع كثرة الفتوحات والتوسع في أوروبا . (١)

ذكر عبد الكريم غرابيه في الرواية التالية أن السلطان العثماني (شعر أنه بحاجة إلى " كلاب " لتحرس قطعانه أو رعيته ، وتغير على قطعان غيره ، فلم يجد أمامه من وسيلة إلا أن "يصادر الإنسان " ويدجنه، ويدربه ، كما يفعل مع الحيوان ، ودون أن يدع العاطفة تفسد عليه عمله وخطئه) . ثم يكرر في موضع آخر (وأخيراً ابتدع أحدهم فكرة مصادرة أولاد النصارى وتدجينهم ، وتأسيس جيش محترف منهم لا يدين بالولاء إلا للسلطان) . (٢)

وقد جاءت هذه الفرية أيضاً في بعض المصادر (*) التي تناولت التاريخ العثماني والموثوق فيها ، إذ لم يقتصر الأمر على كتب المؤرخين المحدثين .

ومن خلال استعراض أقوال المستشرقين الأجانب والمؤرخين العرب ، نجد أنهم انقسموا إلى قسمين :

(١) ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص ١٦-١٨ .

(٢) نقلا عن زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٣٨-١٣٩ .

(*) محمد كرد : خطط الشام ، أحمد محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، ص ٥٨ . إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية د. ط ، لبنان : دار الفكر العربي ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٩٨ م ، ص ١٥ .

القسم الأول :

المستشرقون والذين تناولوا التاريخ الإسلامي بكثير من الحقد وتشويه الحقائق ، وقد اعتدنا على هذا الأسلوب منهم ، خاصة الموضوعات التي تختص بالفتوحات الإسلامية والانتصارات العظيمة التي حققها المسلمون في سبيل نشر الإسلام . وقد ساءت سمعة تلك الانتصارات ، فأخذوا يبتئون سمومهم فيها ، بهدف القدح في إنجازات المسلمين عامة ، والعثمانيين خاصة ، حيث بحثوا عن ثغرة يدخلون منها إلى أهدافهم فوجدوا أن الطعن في طريقة إعداد الجيش العثماني هو الطريق الأمثل ، خاصة وأن فتوحات الدولة العثمانية اعتمدت على الجيش وبالأخص فرقة الإنكشارية ، التي كان لها الفضل بعد الله سبحانه في الانتصارات التي حققتها الدولة العثمانية ، وبالتالي وجدوا أن هذه الفرقة مناسبة لتحقيق أهدافهم ، فصوروا طريقة جمع الأطفال بمنتهى القسوة والبشاعة وكأن ليس للمسلمين قلوب .

ومن ناحية أخرى أوضحوا أن أبناء الإنكشارية كانوا من أفضل الأسر المسيحية وأعرقها ، وبالتالي فهم بذلك يرجعون الانتصارات التي حققتها الإنكشارية والشجاعة والقوة التي تمتع بها هؤلاء إلى أبناء جلدتهم، محاولين بذلك التهوين من شأن العثمانيين كقوة إسلامية والخط من قيمة أعمالهم .

القسم الثاني :

هم فئة من المؤرخين العرب الذين رددوا كلام المستشرقين دون أي تمحيص للحقائق أو محاولة كشف المزيف منها ، وقد أوقعوا أنفسهم

في الخطأ دون أن يشعروا .

ومن خلال ما تقدم من أقوال المؤرخين والمحدثين والباحثين
حول قيام فرقة الإنكشارية نخلص إلى عدة أمور رئيسية :
أولاً :

هناك تباين واضح حول سبب تكوين الإنكشارية ، فالبعض
يرجح أن الرغبة في الجهاد ونشر الإسلام هي السبب الرئيسي
لتكوين هذه الفرقة ، والبعض الآخر يرجح أن إحياء العرف
الإسلامي بأخذ خمس الأسرى والغنائم هو السبب ، أو قلة خبرة
الأتراك في حروب الحصون والقلاع ، أو جلب الرقيق للخدمة في
القصور .

ثانياً :

اختلاف أقوال المؤرخين حول كيفية تربية هؤلاء الأطفال بين
القسوة والشدّة في تعليم اللغة التركية والتدريبات العسكرية ، إضافة
إلى إكراههم على اعتناق الدين الإسلامي ، والتسامح والتزام
العثمانيين بالمبادئ الإنسانية في تربيتهم .

ثالثاً :

اختلاف المستشرقين حول صاحب فكرة تكوين فرقة
الإنكشارية ، فمنهم من رجح كفة أورخان ، وأما البعض الآخر فقد
رجح أن علاء الدين هو صاحب الفكرة ، وآخرين ألصقوها بالعالم
قرة رستم ، وهناك من أكد أنها فكرة قرة خليل جندرلي .

رابعاً :

تناقضت أقوال المستشرقين بشكل واضح حول موقف الأسر المسيحية ، فقد تأرجحت الأقوال ما بين الترحيب بالضريبة ، بل وتقديم الأبناء عن طيب خاطر ، وبين التذمر والإعراض ، ودموع الأمهات وآهات الأطفال .

ومن الملاحظ أن المستشرقين لم يتركوا مجالاً إلا وتمادوا في تشويه الإنكشارية والافتراء عليها ، وقد استطاعوا أن يصوروا الأمر بمنتهى القسوة والبشاعة ، معتمدين على ركيزتين الأولى العواطف الإنسانية ، فصوروا الآلام النفسية التي تتحملها الأم عند انتزاع طفلها من أحضانها ، والدموع التي تذرفها حزناً على فراق الابن الغض ، وبذلك صورت ضريبة الغلمان على أنها أبشع أنواع الظلم والقسوة واختفاء الرحمة ورمزاً للتسلط العثماني ، ومن سوء حظ الأهالي المسيحيين أن دولتهم تهزم على يد الأتراك العثمانيين ، ويدفع الشعب ثمن هذه الهزيمة من أبناءه . كما يؤكد المستشرقون أن العثمانيين سلبوا أقوى العناصر من الشعوب المسيحية التي دانت لحكمهم . أما الركيزة الثانية فهي إكراه الغلمان على الارتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام .^(١)

وهذا الأمر لا يعني أنه لم يتصدر مؤرخون وباحثون مسلمون للدفاع عن ضريبة الغلمان من حيث المبدأ ، وقد استند هؤلاء إلى أن الفتوحات الإسلامية العثمانية تركت كثيراً من الدمار مما أدى إلى هلاك الكثير من العائلات المسيحية جوعاً ، أو

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

هروبهم من بلادهم ، وترك عدد كبير من الأطفال المشردين دون آباء ، فجمعتهم الدولة العثمانية ، ووفرت لهم حياة كريمة ، وتعليم وجعلتهم نواة لجيشها ، ولولا هذا العمل لتعرضوا للهلاك أو الانحراف . (١)

من الملاحظ أن الغالبية العظمى من المؤرخين والباحثين قد مالوا إلى القول بفرض ضريبة الغلمان وانتزاع الأطفال من ذويهم وإكراههم على اعتناق الإسلام ، ولكن في المقابل هناك أدلة وقرائن تدحض هذه الآراء، وتوضح أنها مجرد محض افتراء ومحاولة لتشويه صورة الدولة العثمانية.

وبعض المستشرقين زادوا على الفرية الأساسية ، اجتهدات خاصة بهم ، والبعض الآخر ردد الكلام دون وعي ، ولكن في مضمونها جاءت بنتيجة واحدة .

منذ البداية وموقف النصارى واليهود معروف من الإسلام فمنذ بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء يحاولوا الكيد للإسلام والمسلمين ، ولم يرضوا يوماً عن المسلمين ، والتاريخ الإسلامي تعرض للتشويه والافتراء على مر العصور ، لكن أكثر دولة إسلامية تعرض تاريخها للتشويه كانت الدولة العثمانية . وما إفتراءهم وتشويههم هذا إلا حلقة جديدة في سلسلة كره النصارى واليهود للإسلام والمسلمين .

ولذلك من الأهمية بمكان الرد أولاً على هذه الفرية بشكل عام ثم الرد بعد ذلك على إضافات المستشرقين والمؤرخين العرب .

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

إذا أردنا الرد على هذه الفرية ، فإننا نجد أن هناك بعض الأدلة والبراهين التي تثبت عدم صدق دعوى المستشرقين . إن أول ما يرد في هذه الفرية هو انتزاع الأطفال عنوة من ذويهم كضريبة ، لقد نسي هؤلاء المستشرقون مدى ترسخ الإسلام في نفوس العثمانيين ، فقد استقروا بعض الوقت في طبرستان وخراسان وجرجان ، وبذلك اقتربوا من الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة ٢١هـ / ٦٤١م وهكذا بدأ اتصالهم بالعالم الإسلامي . وفي عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تعاون الترك مع المسلمين لمحاربة الأرمن ، ولم يقع بينهم قتال أبداً ، وإنما سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام بها ، وبزوال الدولة الساسانية ، ونتيجة للفتوحات الإسلامية ، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شعوب تلك البلدان ، ومنهم الترك للاتصال بالشعوب الإسلامية ، وإعتناقهم الإسلام بل والجهاد في سبيل الله ، وإزداد دخولهم في الإسلام في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأصبحوا من

المدافعين عنه والمشاركين في الجهاد لنشر الإسلام . (١)

واعتناقهم للإسلام جاء على المذهب السني ، مما هذب أخلاقهم وأوجد فيهم حب الجهاد في سبيل الله . وبذلك صارت الدولة العثمانية دولة إسلامية سنية أخذ مؤسسوها وسلطانها على عاتقهم مهمة حماية الإسلام والجهاد في سبيل الله طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية .

(١) أميره مداح : مرجع سابق ، ص ٨ ، ٩ .

وعلى هذا فإن المشروع في الإسلام أن أهل الذمة إنما يؤخذ منهم الجزية فقط ، وذلك مقابل إقامتهم في ديار الإسلام كل عام لقوله تعالى (مَتَى يَعْطُوا الْجِزْيَةَ) (*) ومن السنة " أن المغيرة بن شعبه قال لجند كسرى يوم نهاوند أمرنا نبينا رسول ربنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية" وإن دفعوا فإنه يحرم قتالهم والاعتداء عليهم وهي تؤخذ من أموال القادرين فقط فلا تجب مثلاً على المرأة والصبي والفقير^(١) وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى ألا يؤخذ الصبي نفسه من أهل الذمة. فلا يغلب أهل الذمة على صبيانهم ولا نسائهم سواء كانوا أغنياء أو فقراء بل إن الفقراء يُعفون من أداء المقرر من الجزية تسامحاً معهم ومراعاة لوضعهم وحالتهم الاجتماعية فكيف يسوغ أن يقال إن العثمانيين كانوا يأخذون الصبيان من أهل الذمة . وبالتالي هذا يثبت عدم صدق دعوى من قال أن العثمانيين كانوا يأخذون أطفال النصارى عوضاً عن الجزية ، إذ أنه من غير المعقول أن يخالف العثمانيون الإسلام في شيء كالجزية وهم من أعتنق الإسلام منذ فترة مبكرة جداً قبل ظهورهم على مسرح السياسة .

وعلى هذا لم تنتزع الدولة العثمانية أطفالاً من ذويهم بل اعتمدت على ما تقدمه العائلات المسيحية طوعية من أبنائها للانخراط في الديوشرمة ، كما أنه لا توجد وثيقة واحدة تشير أو تؤيد هذا القول أو تدل على أن العثمانيين مارسوا أي وسيلة للضغط

(*) سورة التوبة آية ٢٩ .

(١) للموفق إين قدامه : المغني ، ج ١ ، د. ط ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د. ت ، ص ٥٦٧ .

على الأسر المسيحية ، بل أن هذه الأسر كانت تتنافس في تقديم أبنائها لإعجابها بالإنكشارية ، ونظروا له على أنه نوع آخر للفروسية ، فاق فروسية أوروبا في العصور الوسطى، إضافة إلى أن نظام أهل الذمة الذي طبقتة الدولة العثمانية كجزء من نظمها الإسلامية ، بهرت به أوروبا في وقت انعدمت عندهم الحرية الدينية أو كادت بل إن إقبال الأسر المسيحية على تقديم عدد كبير من أبنائها للإنكشارية ، دفع بالسلطان أورخان إلى إصدار خط شريف بالألا يقبل منهم إلا من الإبن السادس إلى الابن العاشر في الأسرة الواحدة . (١)

كما أن هناك نقطة مهمة وهي أن نظام الفروسية في أوروبا خلال العصور الوسطى ، قد عود إحساس الأم والأب على فراق أبنائهم ، كما أن كثرة الحروب وما تخلفه وراءها من دمار ، إضافة إلى انتشار الأمراض القاتلة وانتشار عادة بيع الأطفال نتيجة للجوع والفقر ساعد على دعم هذا الإحساس في نفوس الأهالي . وفي هذا الصدد نورد ملاحظة مهمة ، وهي إذا كان حقاً يؤخذ الأولاد ما بين العاشرة ، والعشرين من أهلهم لإدخالهم في الإنكشارية ، فهل من المعقول أن ينسى هؤلاء أهلهم وهم في هذه الأعمار ، ولنفترض أنهم أكرهوا على اعتناق الإسلام ، ودخلوا فيه ، فهل يعقل أن ينسى الشاب الصغير ذو الخمسة عشر عاماً أمه وأباه وقريته ورفاقه ! إذ لا نجد تفسير لهذا ، كما أنه صار من

(١) أميرة مداح : مرجع سابق ، ص ٢٠ . خلف الونيانى : مرجع سابق ، ص ٩٥ ، ٩٦ . محمد عبد

للطيف البحر اوي : من خصائص تاريخ العثمانيين ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

هؤلاء الأطفال صدور عظام ووزراء وولاة ، وتسلموا رواتب عالية فلم تذكر لنا كتب التاريخ شيئاً عن تقديم هؤلاء خدمات مميزة لقراهم أو أسرهم ، ألا يتذكر هؤلاء آبائهم وأمهاتهم بعد أن أنعم الله سبحانه عليهم بكثيراً من النعم . إن السكوت عن هذه الأمور يدل أصلاً على أن عملية الانتزاع هذه لم تكن تجري أصلاً ، أو حتى لو صارت لم تكن بتلك القسوة ، كما أنه لم يرد أبداً أنه قامت ثورة أو تمرداً أو قدم طلباً للدولة العثمانية من القرى المسيحية ، يتضمن احتجاج على انتزاع الأطفال ويطالب بإلغائها . أما إذا كان عمر هؤلاء الأطفال فوق اثني عشر عاماً فهم يستطيعوا المقاومة بسهولة بل والهرب فالشباب في سن الخامسة عشر أو السادسة عشر يكون رجلاً قادراً على الزواج وإنجاب الأبناء ولا يستطيع أي شخص إرغامه على فعل شيء ضد رغبته .

كما أنه ليس هناك سبب عقلي يجعل دولة قوية تتحمل عناء انتزاع أطفال مسيحيين وتربيتهم والصرف عليهم واستغراق فترة من الزمان حتى يشب هؤلاء الأطفال ويصبحوا قادرين على حمل السلاح ، بل والعمل أثناء ذلك على إكراههم على اعتناق الإسلام وتغيير معتقداتهم ، فما الذي يجعل الدولة العثمانية تصرف هذا الوقت والجهد والمال ، في الوقت الذي يوجد فيه أطفال المسلمين الذين تربوا أصلاً على تعاليم الدين الإسلامي ، والجهاد في سبيل الله وإعلاء راية الإسلام .

لقد خاض المستشرقون بعد ذلك في أمراً لا دراية لهم به ، وهو مسألة إكراه الأطفال على اعتناق الإسلام ، إن حكم الإسلام

في هذه المسألة واضح وصريح لا غبار عليه لقوله تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (*) وهذه قاعدة شرعية ثابتة ، وهي من مبادئ الإسلام وبالتالي من مبادئ العثمانيين المسلمين ، إذ لا يجوز إجبار ولا إكراه أحد على الدخول في الإسلام ، الذي يرفض هذا الأمر رفضاً تاماً ، فالآية الكريمة واضحة إذ وضح الحق من الباطل والهدى من الضلال في أمر الإكراه . (١)

فإذا كان الإسلام يمنع الإكراه في الدين، فكيف يسمح بانتزاع الأطفال من أحضان أسرهم لإرغامهم على الإسلام، إن الإسلام يهتم بتنشئة الطفل في كنف أسرته ، فليس هناك ذكر في الإسلام لهذه الضريبة العجيبة . (٢)

كما أنه لا يمكن أن يتصور إنسان كيفية إكراه آخر على اعتقاد شيء في قلبه الذي يمتلكه بين ضلوعه فلربما تظاهر بالإيمان مثلاً ولكن ظل في قرارة نفسه على معتقداته الأصلية وبذلك ينجو من الأذى والضرر، وفي أول معركة يخوض غمارها ينضم لصفوف الأعداء ويحارب ضد العثمانيين لأنه يحقد عليهم ويكره دينهم ، لأنه غصب على إعتناقه ، ولكن لم يحدث ذلك قط ، وإن حدث لكانت أقلام المستشرقين الحاقدة أول ما كتبت هذه الأحداث . بل العكس تماماً كانت الإنكشارية تحلم بالشهادة دائماً ، فالإنشكاري

(*) سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

(١) محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، الطبعة الثانية ، لبنان : دار القرآن الكريم ، ١٤٠١هـ ،

١٩٨١م ، ج ١ ، ١٦٣ .

(٢) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

يرى جنات ربه وهو يتلوى محترقاً تحت سيل من الزيت المغلي الذي تصبه قوات الأعداء المدافعة عن الأسوار . وإذا انفتحت ثغرة في تلك الأسوار كان التكبير يتردد في المعسكر العثماني وكأنه زلزال الحشر ، وبروح فدائية حقه كانت القوات العثمانية تريد كسب الدنيا والآخرة معاً .^(١)

إضافة إلى ما سبق فقد كانت الإنكشارية كتلة واحدة تشعر بواجبها الإسلامي وبالمهمة التي أعدوا من أجلها ألا وهي الجهاد ، السيف سلاحهم ، ودعوة الحق شعارهم ، يذهبون إلى ساحات القتال وهم يقولون في قرارة أنفسهم " إما غازي ، وإما شهيد " وقبل خوض المعركة كانوا يستعدون للشهادة ، يتطهرون ويصلون لربهم ويطيلون السجود في صلاتهم خشوعاً لبارئهم . فيدخلون المعركة إما أن ينتصروا على الأعداء ، أو يستشهدوا في القتال ، ^(٢) لقد أعترف ملوك النصارى بشجاعتهم ، لم يخافوا الموت لقوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ^(٣) ويتضح هذا الأمر في أثناء حرب الدولة العثمانية ضد الفرس ، الذين كانوا يسألون هل بين الجنود من يكثر السجود ، وهم بذلك يقصدون الإنكشارية . ^(٤)

(١) عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص ١٣ .

(٢) خلف الونيناني : مرجع سابق ، ص ٩٦ . ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص ١٧ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٤) أحمد جودت : تحقيق عبد اللطيف الحميد ، ص ١٩٥ .

كما أن الصبي إذا لم يكن له والدان أو كانا غير معلومين فإن التبعية في الدين تنتقل إلى تبعة الدار ، وبما أن كثيراً من الصبيان لم يكن يُعلم أبائهم فإن التبعية تكون للدولة العثمانية المسلمة صاحبة الدار. وكذلك إن انتقل الصبي من دار أخرى إلى دار الإسلام بسبب الحروب كما كان سائداً في ذلك الزمان بين الأمم فإن الصبي يتبع الإسلام ، فهو مسلم بالتبعية التي انتقلت إلى دار الإسلام .^(١) ومن هذا يتضح أن كلمة إكراه لا تنطبق مطلقاً على هؤلاء الغلمان على ترك معتقدتهم بينما هم أنفسهم يتطلعون إلى تحقيق مستقبل باهر من خلال الإخلاص للسلطان ، ولا يتم ذلك الأمر إلا إذا اعتقوا معتقدات سلطانهم دون إكراه ومن تلقاء أنفسهم . كما أن السلطان أورخان الذي تناولته الفرية كان رجل مسلم متدين ، بل أن أخاه علاء الدين الذي استحسن الفكرة كان رجلاً عالماً في الشريعة ، فلا يعقل أن يشير على أخيه بأمر تأباه الشريعة .^(٢)

أما أن الإسلام لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح ، فتلك كلمة حق أريد بها باطل ، لقد فرض الإسلام القتال على المسلمين باعتبارهم مسلمين يدينون بالولاء للإسلام ، وليس من شأن الإسلام أن يفرض الجهاد على أناس لا يدينون به بل فرض الإسلام على المسلمين حماية لهم وللدفاع عن أرواح وأموال غير المسلمين

(١) الكاساني الحنفي : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ج ٧ ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتاب

العربي ، ١٤٠٢ هـ ، ص ١٠٤ .

(٢) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ١٤٤ ، ١٥٣ .

الذين يعيشون في كنف المسلمين ويؤدون لهم الجزية ، دون تحميل هؤلاء عناء الجهاد . (١)

وقد أورد كامل باشا رواية تذكر أن السلطان أورخان أختار عدد من شباب الترك والبيزنطيين وألحقهم بالجيش وركز على تربيتهم وفق التعاليم الإسلامية . ثم لم يلبث أن تزايد عدد المجاهدين الذين انضموا للجيش الجديد . (٢)

وكان الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام الدافع وراء انطلاق عثمان ومن بعده إبنه أورخان في جميع المعارك ضد البيزنطيين ، وبالتالي هو الدافع في إنشاء الجيش الجديد .

وقد أكد على هذا القول المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه "بيوك تاريخ عمومي " أن أورخان وعلاء الدين كانا متفقين على أن الهدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد ، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ونشر الإسلام في أراضيهم ، والاستفادة من هؤلاء البيزنطيين الذين أسلموا في الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام . ولعل وجود عدد من المسلمين البيزنطيين ، أمراء وعساكر في هذا الجيش هو الذي أوجد للحاقدين ثغرة يدخلون من خلالها ينفثوا سموهم . (٣)

وهكذا يتضح لنا أن العثمانيين لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، بل كانت الحرية الدينية مبدأ ثابت في الدولة العثمانية ،

(١) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(٢) نقلاً عن زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

(٣) نقلاً عن زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

وكانت أقوال المستشرقين محاولة يائسة لتشويه تاريخ الدولة العثمانية.

لقد أسلم الإنكشارية بمحض إرادتهم وحسن إسلامهم وكانوا أثناء القتال مع الأعداء يتوقون إلى الشهادة ، وذلك لأنهم اقتنعوا منذ صغرهم بمبادئ الجهاد الإسلامي ، ولم يكرهوا عليه ، لقد كانوا يتلقون العدو بصدور وقوة وعزيمة وثقة بالنصر .^(١)

أما عن إحياء العرف القديم بأن السلطان كان له الحق في انتزاع خمس الغنائم للإنفاق منها على الجيش ، فهذا كلام غير صحيح من أساسه ، وذلك أن أخذ خمس الغنائم وليس انتزاعها حق مشروع للحاكم في الإسلام ، وهو ليس عرف قديم والدليل قوله تعالى (**وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا خُنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَإِبنِ السَّبِيلِ**) ^(٢) إن الآية صريحة وواضحة ، وقال المفسرون أن الغنينة تقسم خمسة أقسام ، الخمس الأول يقسم خمسة أسهم الأول للرسول ، والسهم الثاني لذي القربى ، والثالث لليتامى ، والسهم الرابع للمساكين ، والسهم الخامس لإبن السبيل ، وباقي الغنينة توزع على الغانمين ، ^(٣) وهذا يعني أن نصيب السلطان قليلاً جداً وليس بالضرورة أن يكون الخمس أطفال ، فقد يكون الأموال أو المتاع أو حتى بغال أو أسلحة ، مما يؤيد أن هذا الأمر فرية قد ألصقت بأورخان ومراد

(١) أحمد جوبت : تحقيق عبداللطيف الحميد ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) سورة الأنفال آية : ٤١ .

(٣) محمد علي الصابوني : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٥٠٦ .

الأول لتشويه صورتها وتصويرها على أنها حاكمين ظالمين . وفي هذا الجزء يظهر واضحاً تناقض أقوال المستشرقين وعدم اعتمادهم على مصدر موثق ، وإنما أعتمدوا على أهوائهم ونزعاتهم الشخصية وذلك لأنهم استرسلوا في الافتراء حيث قالوا أن عملية جمع الأطفال كانت تتم بصفة دورية عن طريق إرسال الوكلاء إلى كل قرية مسيحية للإطلاع على قائمة بأسماء الأطفال الذين تم تعميدهم في الكنيسة ، ثم يختار الوكلاء خمس هؤلاء الأطفال ، وقد قالوا في البداية أن الأطفال هم خمس الغنائم ، وهذا يعني بعد انتهاء المعركة يتم جمع الغنائم في وقت الحرب فقط ، فما الذي جعلها تتم بهذا الشكل المنظم وتكرر كل فترة معينة ، بل تحولت إلى ضريبة غلمان تجبى كل خمسة أو ستة أعوام أو أقل، وبهذا المفهوم لا يمكن اعتبار أنها خمس الغنائم مما يدل بوضوح على أن الأمر مجرد تركيب جمل دون ترابط . ومحض افتراء .

وإذا نظرنا في ظروف الفتح الإسلامي العثماني للمدن البيزنطية ، نجد أن عدداً كبيراً من الأطفال فقدوا آبائهم وأمهاتهم وأسراهم لموتهم في المعارك التي صاحبت الفتح ، أو أثناء هروب الأسر من مدينة إلى أخرى، وهذا أمر يصاحب كل ضم ، وبالتالي بقي أولئك الأطفال مشردين في الطرقات يتألم بلا مأوى أو مكان يستريحهم ، فسعت الدولة العثمانية لاحتضان هؤلاء الأطفال ، وتأمين مستقبل كريم لهم ، ولا يتوفر هذا المستقبل إلا في ظل الإسلام . (١)

(١) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

فكرة نظام الإنكشارية في أساسها ، عبارة عن مؤسسة تقوم بتربية الأطفال ، وتدريبهم عسكرياً وتعليمهم الدين الإسلامي ، وليس نظام قهري واستبدادي كما صورته المستشرقون وأداة للتحويل القهري للإسلام.

أما قولهم بأن المناهج التي كان يدرسها هؤلاء الغلمان وضعت خصيصاً لمحو كل أثر للنصرانية ، فلا يعقل أن تستطيع أي مناهج كانت محو أثر ديانة من طفل عمره عشر سنوات أو أكثر، إن الاتجاه إلى الله فطرة في الإنسان بصرف النظر عن ديانته . والدليل على ذلك أن الإنكشاريين حسن إسلامهم وجاهدوا في سبيل الله بكل ما أوتوا من قوة، لأنهم اقتنعوا بالإسلام فلم يتلقنوه كمادة مفروضة عليهم ، لقد وضحت الهوية الإسلامية على جندي الإنكشارية ، لدرجة أن الأتراك أطلقوا عليه اسم الجندي المحمدي، وذلك تيمناً باسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.^(١)

أما عن نسب فكرة إنشاء الإنكشارية إلى هابيل الأسود وزير أورخان ، فإن هذا الاسم لم يرد ذكره في أي أحداث سياسية مهمة ، سوى في هذه الفرية المغرضة ، وهذا يدل على اختراع هذه الشخصية ، علماً بأن وزير أورخان كان أخوه علاء الدين . إن كل ما في الأمر هو أن أورخان قرأ كتاباً ألفه نظام الملك الوزير السلجوقي "سفرنامه" ويتناول هذا الكتاب فن الحكم وخلاصة التجارب والأنظمة والدواوين . وقد ورد تفصيل للطريقة المثالية لإيجاد قوة محاربة ، حيث أشار إلى اختيار عدد من الأولاد في سن

(١) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ٢٥ .

مبكرة ، تتولا هم الدولة بالعناية والتعليم على فنون الحرب ، ومن هذا الكتاب جاء تأثر أورخان ، وأخذ يبحث عن مصادر جديدة للقوة المحاربة التي أراد إنشاءها ، فرأى أن يستفيد من أسرى الحروب الدائرة على حدود العالم المسيحي .^(١) لا أن ينتزع الأطفال من أحضان نويهم .

وزاد المستشرقون في افترائهم حيث أضافوا أن جميع الأطفال ليسوا من ضريبة الغلمان ، بل هناك عدد من الأولاد اشترىوا بالمال من سوق النخاسة ، ونسى هؤلاء إن جيش الدولة العثمانية لم يكن جيش عبيد أو مرتزقة مثل الجيوش الرومانية وغيرها ، لقد كانت فكرة أورخان الأساسية هي رغبته في أن يكون جيشه من المسلمين وليس من المرتزقة، وعلى أي حال فإن أسواق النخاسة عموماً نادراً ما تحتوي على أطفال في سن العاشرة ، لأن هؤلاء لا يفيدون في العمل أو حتى الحرب، لقد كانت أهم مصادر الإنكشارية الأطفال المشردين في الشوارع، ثم ما يقدمه الأسر المسيحية من أبناء حبا في تعليمهم الإسلام ، وطمعاً في المستقبل اللامع الذي ينتظرهم ، أما كونهم من أسرى الحرب فهو مصدر ضعيف حيث أنه في الغالب كان يتم تبادل الأسرى بموجب عقد هدنة بين الطرفين ، وإذا عدنا قليلاً إلى عهد عثمان ومن بعده أورخان ، فإننا سنجد أن المدن البيزنطية التي فتحها الله عليهما ، كانت تفتح سلمياً دون قتال ، إما سبب تقبل أهلها للإسلام أو بسبب فرار حاكمها وحاميتها ، فيدخلها العثمانيون المسلمون ويقيموا العدل بين أهلها، فيجد فيهم الناس مخلصاً لهم من ظلم البيزنطيين ، فيُسلم

(١) أميره مداح : مرجع سابق ، ص ٣٠ .

أكثرهم والباقي يدفع الجزية ، وبعض المدن ترفض الاستسلام وتختار الحرب ، فيفتحها الله على المسلمين بعد قتال . وأياً كان الأمر فقد ترك العثمانيون الحرية الدينية لأهالي البلاد المفتوحة ، كما أنه كان من سياسة عثمان وأروخان عدم أخذ أسرى حرب ، وإذا وجد هذا الأمر فإن عدد الأسرى يكون قليلاً، ويتعهدهم العلماء بالتربية الإسلامية ، أو يتم عقد مصالحة بين الطرفين ، يتم على أثرها تبادل الأسرى .^(١) كما حدث في عهد السلطان محمد الأول عندما تمرد عليه أمراء الأناضول ، وخاصة أمير أزمير ولكن السلطان حل الأزمة وتم تبادل الأسرى بعد مصالحة بين الطرفين.^(٢) إضافة إلى أن الفتوحات والجهاد في بلاد الروملي كانت متتابعة فكان يأتي الأسرى بأعداد وفيرة إلى العاصمة.^(٣)

إذا لم يتم تبادل الأسرى ، فإن هؤلاء يبقوا في أنقره ، ومن هنا جاءت فكرة الاستفادة من الأطفال الأسرى في الجيش ، كما أن الأسرى يكون بينهم رجالاً ونساءً وشيوخ وأطفال ، مما يوحي بأن عدد الأطفال غالباً ما يكون قليلاً أما عن مقولة أن جميع أبناء الجيش الجديد كانوا من أسرى البلاد الأوروبية المفتوحة ، فإن دليل بطلانها أن الأمير علاء الدين أخو السلطان أوركخان الأكبر ، كان الصدر الأعظم ، وهو الذي أشار على أخيه بفكرة الجيش الجديد - إلى جانب تأثر أوركخان بكتاب نظام الملك السلجوقي - فقد توفي

(١) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢) كامل باشا : التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية منذ تأسيسها وحتى الفترة الأخيرة للسلطان عبد الحميد، د. ط ، إستانبول : مطبعة إحسان ، ١٣٢٧هـ ، ج١، ص ١٣ .

(٣) أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، الطبعة الأولى ، بيروت :

دار صادر ، ١٤١٧هـ ، ج٢ ، ص ١٢٠ .

عام ٧٣٥هـ — / ١٣٣٥م ولم يكن السلطان أورخان فتح أي مدن
بيزنطية داخل الحدود الأوروبية بعد ، إذ لم يتم فتح غاليبولي
وجيمنك وغيرها من المدن والقلاع إلا في عام ٧٥٧ هـ /
١٣٥٦م . ومن هنا تسقط مقولة أن الجيش الجديد كان من أبناء
أسرى البلاد الأوروبية المفتوحة ، لأنها لم تكن مفتوحة عند تشكيل
الجيش الجديد . (١)

ومما يؤكد هذا الأمر أن تأسيس الجيش كان في عام ٧٣١هـ
/ ١٣٣٣م أي قبل فتح غاليبولي بفترة طويلة ، وهذا يهدم أقوال
المستشرقين الذين ينسبوا لأورخان أنه انتزع أطفال النصارى من
المدن الأوروبية ، أو أن الأسرى كانوا من أبناء الأسر الأوروبية .
إن جميع المستشرقين تقريباً اتفقوا على جوهر هذه الفرية ،
ولكن كل مستشرق أضاف قصة جديدة من خياله ، ومن الأفضل
تفنيد آراء كل مستشرق بمفرده .

وقبل كل ذلك لابد أن نسأل ، من أين استقى هؤلاء
المستشرقين روايتهم ؟ فلم يذكروا مصدرهم أو حتى الوثائق
المخطوطات التي اعتمدوا عليها ، كما لم يوضحوا في بعض
الأحيان المكان والزمان وحتى اسم السلطان ، أليس هذا من
مقتضيات البحث العلمي ، رواية كهذه تحمل تهمة خطيرة لشعب
بأسره بل لأمة بل للإسلام الذي كان العثمانيون يمثلونه آنذاك ، أن
يورد المؤرخون مصدرها لقد افترقت هذه الفرية أول دليل بطلانها ،

(١) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

لأنها لم توثق علمياً ، وافتقدت للتوثيق التاريخي ، وأفقدت المستشرقون أول سمة للمؤرخ وهي الأمانة العلمية .

كارل بروكلمان كان بطل تشويه الإنكشارية ، بشكل كبير حيث أرجع سبب انتشار جيش الإنكشارية إلى عدم تعود الأتراك على الخدمة النظامية ، وكأنه يقول أن المسلمين عموماً قوم لا يحبون الأنظمة التي تقيدهم وتضبطهم ، ثم أن الجيش غير المنظم هنا الذي تحدث عنه قد حقق انتصارات بهرت الروم أنفسهم وزلزلت عروشهم ، إذاً فما الداعي لهؤلاء المتطوعة أن يتخلوا عن الاستمرار في القتال ؟ وإذا كانت القضية هي التنظيم فلماذا لم تستطع جنود النصارى المنظمة صد هذه الجيوش غير المنتظمة بل والانتصار عليها ؟ ! ولماذا يتخلى هؤلاء المتطوعة عن الاستمرار في القتال وقد حققوا نجاحاً باهراً في فترة وجيزة ؟

وكل ما في الأمر أن السلطان أورخان أثارت مخاوفه مطالبهم بقرّر إنشاء جيش من المشاة ، ليسهل فتح القلاع والحصون في الوقت نفسه لم يستغن عن الإقطاعيين ، فهم ليسوا جيش إقطاعي بالمعنى الذي قصده بروكلمان ، وإنما نالوا الأراضي الزراعية مكافأة لهم عن انتصاراتهم التي حققوها ، وفي وقت السلم يعملوا بالأراضي الزراعية .

ومن معرض حديث بروكلمان جاء أن السلطان أورخان أراد أن يستعويض عن فرقة الأتراك بفرقة من النصارى الذين كانوا يألفون هذا النوع من الخدمة العسكرية ^(١) . وكان لسان حاله يقول

(١) كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ٤١٤ .

أن المسلمين عامة والعثمانيين خاصة ، لم يألّفوا الأنظمة العسكرية ، وهذا مخالف تماماً للأحداث التاريخية ، فالجيش الذي كونه عثمان ثم أرطغرل قد زلزل عروش طغاة الروم . كما أنه لماذا يشك السلطان أورخان في كفاءة وشجاعة جنوده الذين كانوا يهرعون إلى ميادين القتال طلباً للنصر أو الشهادة ، ويستبدلهم بأبناء النصارى الذين ليس بينهم وبين الإسلام صلة، ولا يدركون معاني الجهاد ، ثم ينتظرهم أعوام حتى يتعلموا الإسلام ويقتنعوا بمبادئه ويستحوذ حب الجهاد على أفئدتهم مثل المحاربين الأوائل .

كما أنه لو فكر بروكلمان قليلاً وخلع عن عينيه غشاوة الحقد على الإسلام والمسلمين ، لأكتشف أنه لم يبرع أحداً في ذلك النوع من الخدمة العسكرية ، مثلما برع المسلمون العثمانيون ، وتاريخهم خير دليل ، وقد أكد كارل بنفسه ذلك في موضع آخر من كتابه حيث قال "الواقع أن الأتراك اشتهروا ، منذ خروجهم من البوادي ، بأنهم فرسان بارعون وجريئون إلى حد التهور " (١)

ويبدو تناقض أقوال بروكلمان بشكل أكثر ، عندما يقول أن الدولة تتزعزع الأطفال من أحضان ذويهم ، لتضمهم إلى الجيش الجديد ، بينما يؤكد أن هؤلاء الغلمان ، كانوا يطمحون في أن يلتحقوا بجيش السلطان ليحققوا مستقبلاً باهراً لهم فكيف يجتمع الضدان في وقت واحد ؟ ومما يدل على عدم صدق هذه المعلومة ، أنه ورد في كتب العديد من المؤرخين النصارى الإشارة بأن الآباء البيزنطيين الذين نور الإسلام قلوبهم ، كانوا

(١) كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ٤١٣ .

يتشوقون إلى تقديم أبنائهم طواعية للسلطان العثماني ليربيهم تربية إسلامية ويلحقهم بالجيش .

وعلى طول حديث بروكلمان يتضح لنا مدى التخبط والتناقض في معلوماته ، فتارة يصور العثمانيين المسلمين في غاية القسوة والوحشية أثناء جمع الأطفال ، ثم في غاية الإنسانية والرحمة في التربية ، ثم يعود فيهدم الكلام السابق عندما يصور أن ضريبة الغلمان لم تلق أي اعتراض لدى الآباء ، بسبب المستقبل الباهر الذي ينتظر الأبناء نتيجة انضمامهم إلى الجيش الجديد ، وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يدفع الأثريا رشاي للحيلولة ما بين أبنائهم وبين المستقبل الباهر الذي ينتظرهم لدرجة أن أبناء المسلمين ينظرون إليهم بعين الحسد ؟ ثم أي خمسة أصناف التي تحدث عنها ؟ فهو لم يذكر أي من شروطها أو حدودها ، ولم يأت على ذكرها بعد ذلك ، وهذا يدل على أنها من خياله . لقد ناقض بروكلمان نفسه ، ففي البداية صور الغلمان بصورة المظلومين ، ثم راح يجعلهم في موضع المحسودين ، وهذا يعني أنهم في نعمة كبيرة .

كما أنه من الثابت تاريخياً أن الأسر المسيحية أصبحت تقدم أبنائها للانضمام في صفوف الإنكشارية لما ينطوي عليه الأمر من فائدة وخيراً عظيماً لهم .^(١)

وقد تمادى بروكلمان في غيه إذ زعم أن لهذه الضريبة مواعيد وأعمار معينة ، وسليمي البنية ، فهل من المعقول سكوت

(١) أميرة مداح : مرجع سابق ، ص ٢٠ ، محمد السيد : مرجع سابق ، ص ٢٠٠ .

الأهالي وعدم الدفاع عن أبناءهم ، أو القيام بثورة على هذا الظلم ، لقد ذكروا أن الآباء الأغنياء كانوا يدفعوا الرشاوي ثمناً لحرية أبنائهم ، والفقراء ماذا سيفعلون ، فهم لا يمتلكون المال ، وبالتأكيد لن يرضخوا وسيقوموا بحركة تمرد ولكنه لم يذكر شيء من هذا القبيل ولم يأت بدليل قاطع على أقواله .

برنارد لويس ذكر معلومات مختلفة ، لقد أقر أن المجاهدين الأوائل كانوا من الأتراك أنفسهم ولقرون عديدة كانوا مهيمون في الفتوحات ، ثم أنضم للجيش المسيحيين اليونان الذين أسلموا وصاروا مجاهدين بارزين ، حسب قوله ، إذا فما الداعي لاستخدام أبناء النصارى وخطفهم من أسرهم ليعملوا في الجيش العثماني ؟ ليس هناك سبب عقلي يحتاج دولة قوية بإمكاناتها الذاتية لأن تجلب أعدائها لتستخدمهم في محاربة أعداءهم والذين غالباً ما يكونوا على دين هؤلاء الأبناء المختطفين المكرهين ، بل كيف يعقل أن يطمئن العثمانيون إلى إخلاص وتضحية هؤلاء الجند ؟ إن من بديهيات الأمور أن ينقلب هؤلاء الشباب على العثمانيين في أول فرصة سانحة ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ثم من هم هؤلاء المسيحيين اليونانيين الذين أسلموا وصاروا مجاهدين لماذا لم يذكر مصدر معلوماته ، كما لم يأت ذكرها في أي مصدر آخر .

لقد كثر حديث المستشرقين ومن ضمنهم لويس عن المعاملة الحسنة التي يلقاها الأطفال في الدوشرمة ، من رعاية واهتمام إلى جانب تعليمهم مبادئ الإسلام واللغة بالإضافة إلى التدريبات العسكرية . وما دام الأمر كذلك ، فمن هؤلاء الذين يعملون خدماً

في القصر أو في رعاية جنود السباهية هل هي هذه المعاملة الحسنة في نظرهم ، أم يدل هذا على أنهم يقولون أي شيء وفي أي وقت .
و في معرض حديثه يشكك في شرعية نظام الإنكشارية من ناحية الاسم ثم يؤكد أن هذا النظام صار مقبولا على القرى المسيحية ، كيف مقبول وهو أصلاً يقوم على اختطاف أبناءهم من أحضانهم وغير شرعي بأي منطق يتكلم برنارد ، كما أنه مقبول من الأهالي أم الدولة ؟

ثم يذكر أن السلطان لم يقدم على هذه الخطوة إلا بتوجيه من الفقهاء استناداً على ما جاء في الشريعة الإسلامية ، وفي بدعة من عمل الفقهاء ، فكيف يستند السلطان على بدعة ليس لها أصل في الشريعة الإسلامية.

وفي نهاية الأمر يسند لنا الرواية عن مؤرخ تركي مجهول لديه ، يزعم فيها أن عالم مسلم اسمه قره رستم لفت نظر السلطان إلى أخذ خمس الغنائم والأسرى ، وكأن السلطان لا يعلم أمور دينه ، والواقع أن برنارد هو من لا يعرف تعاليم الدين الإسلامي إذ قال أن هذه بدعة من عمل الفقهاء ، وهنا يبدو الأمر في غاية الغرابة . فكيف يقوم الباحث الأكاديمي مثله نقل رواية عن مجهول ، ثم لا يكلف نفسه عناء البحث عن أصل هذه البدعة حسب قوله في الشريعة الإسلامية ؟ لكن روح التعصب والحق والكره للإسلام غلبت على أمانته العلمية والتحري والدقة.

أما فيشر فقد أرجع الفضل في قيام الدولة العثمانية ليس إلى إسلامية الدولة ، وإنما لأن بعض الصُدُور العظام وبعض كبار

رجال الدولة كانوا من أمهات نصارى ، ولكن هؤلاء إن وجدوا فقد كانوا مسلمين بصرف النظر عن أصلهم " لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى " .

إن دخول العثمانيين في الإسلام على المذهب السني وجهادهم ضدّ البيزنطيين جعل من دولتهم نصيرة للإسلام ، وقد شاء الله تعالى أن تأتي هذه الدولة وتصبح ذات شأن كبير وقوة عظيمة لأن العالم الإسلامي في ذلك الزمن الغابر كان يتطلع إلى وجود دولة إسلامية قوية تجمع شملهم وتؤلف قلوبهم . ولذلك فلاشك أن الإسلام كان له دور فاعل في توجه الدولة العثمانية وبناء مؤسساتها العسكرية ، ولذلك لا نستغرب أن يقوم السلطان أورخان بتأسيس جيش الإنكشارية ليصبح الأداة الفاعلة في انتصارات الدولة .

أما المستشرق الفرنسي جيبون فقد ركز على إكراه العثمانيين لنصارى البلقان على إعتناق الإسلام بعد فشل إغرائهم بالعشق من حياة الرق، فلماذا يرفض نصارى البلقان عرض السلطان مراد الأول بالإسلام ولو ظاهرياً - مقابل التحرر من الرق ، ثم إذا رفضوا سيكرههم مراد على الإسلام وسيقبلوه على أن لا يأخذ مراد الأول أولادهم ويحملهم المعاناة النفسية تلك التي تغنوا بها . إن المنطق يقول أن نصارى البلقان كان بإمكانهم التظاهر بالإسلام إذ لا يكلفهم ذلك الكثير أما أن يرفضوا التظاهر لأي سبب كان ، ثم يرضخون تحت التهديد بانتزاع أطفالهم فيسلموا ، فإن أقل ما يقال حينذاك أنهم دخلوا في الإسلام نفاقاً أو تظاهراً، إذاً فلماذا عرضوا أنفسهم لكل هذا العذاب النفسي طالما أنهم سيسلمون في النهاية ؟

كما يتضح التناقض في حديثه بعد ذلك ، إذ يقول أن الإنكشارية كانت قدوة حسنة في الالتزام بتعاليم الإسلام وترك الأهالي في حرية دينية ، يناقض أقواله ، ففي البداية يتحدث عن إكراه النصارى وأبنائهم على اعتناق الإسلام ، ثم يعود فيقول أنهم نشروا الإسلام في أوروبا ، كيف يعقل أن ينشر إنسان مبادئ مكره على اعتناقها .

وقد نكر لإثبات هذا الأمر أن الإنكشارية عبارة عن تداخل المبادئ الغزوية والإسلامية القديمة ويقصد بالغزوية الغزو وأخذ الأسرى والتوسع العسكري ، أما التقليد الإسلامي فهو التسامح الديني وأخذ الجزية، إذ كان يبيري أطلق على توسعات وفتوحات الدولة العثمانية غزو، فهو يعود إلى قصور معلوماته عن الإسلام ، وعن الدولة العثمانية، إن فتوحات الدولة العثمانية كانت لنشر الإسلام ورفع راية الجهاد معتمدة على القوة العسكرية ، والأسرى في أغلب الأحيان كانوا يدخلون في الإسلام ، وأكثرهم يحسن إسلامهم .

أما وجهة نظر بول كولنز فقد ربط نظام الرق بنظام الدوشرمة^(١)، ونسى أن الفرق بينهما كبير، فنظام الرق في الإسلام ليس له هذا المسمى، وإنما هم أسرى الحروب والفتوحات وكان الأسير إذا قدم الفدية سواءً مالية أو عينية يتم فك أسره ، كما أنه لم يقر الإسلام والدولة العثمانية خطف الأحرار وبيعهم على أنهم عبيد ، وإذا حملت الجارية فإن وليدها يعتقها ، هذا هو نظام العبيد

(١) بول كولنز : مرجع سابق ، ص ١١٥-١٦٢ .

والجوارى في الإسلام ، وقد تقول بول كولنز على الإسلام وعلى العثمانيين أنهم يأخذون ضريبة الرأس - لفظ جديد - من الأهالي طالما أنهم ليسوا مسلمين ، وقد نسي أن المسيحي إذا دفع الجزية ليس من حق أي حاكم أخذ أطفاله ، ثم من أين أحضر معلومة أن الأسرى كانوا يعملون في القصور ؟ ألم يربط هو في البداية الرق بنظام الدوشرمة ! وأطفال الدوشرمة لم يعملوا خدماً في القصور ، لأن الخدم غالباً من الرجال الكبار وليس من الأطفال الصغار ، أما أن الدولة العثمانية وضعت سياسة لجمع ضريبة الغلمان لتلبية احتياجات القصور ، فكم سيستغرق هؤلاء الغلمان من الوقت حتى يصبحوا قادرين على الخدمة في القصور ؟ وهنا يتضح عدم ثبات معلوماته ودقتها فهل الغلمان الذين يجمعوا كانوا يغطون هذه الحاجة مع الأخذ في الاعتبار استغراق حوالي عشرة أو خمسة عشر عاماً حتى يكبر هؤلاء الغلمان ، والتناقض واضح في حديثه ، فهل كان الغلمان للخدمة في القصور أو الإنكشارية . ثم يعود فيناقض نفسه عندما يؤكد أن هذه الضريبة لم تلق الامتعاظ من الأسر مقارنة بالبؤس والحرمان الذي يعيشه الأطفال في قراهم بعدما تحدث عن الحملات الشرسة لجمع الغلمان.

أما روبر مانتران فقد أفرد جزءاً كبيراً في كتابه عن تنظيمات الإنكشارية والدوشرمة ، ولا شك أن معلوماته كانت صحيحة ، لكن هذا لا يمنع من وجود بعض الدس والإفتراء ، حيث جعل الإنكشارية ترتكز أساساً على أسرى الحروب ، ونسى أن الإنكشارية كان لها شريان آخر يغذيها وهم الأطفال الأيتام

المشردين في الشوارع ، كما أنه ذكر أسرى الحروب والذين جمعوا بصورة أكثر تحدياً من العشر أي عشر فهل هو عشر أم خمس العائد للسلطان ، وهذا يعني أن جميع الأسرى كانوا غلمان ، يأخذهم السلطان دون أن يترك إلا جزء من الغنائم للجند ، فهل هذا منطق يتحدث به ، كما ذكر أنهم كانوا يشتروا من أسواق النخاسة ، ولم يذكر مصدره في هذه المعلومة ، ثم قال أن أقل عدد يأتي من الدوشرمة ، والدوشرمة في أساسها هي من يغذي الإنكشارية بجميع جنوده ، وزاد في إفترائه أن أطفال المسلمين خضعوا لهذه الضريبة ، وهم لم يخضعوا قسراً وإنما أحب المسلمين تقديم أبناءهم للإنكشارية لما ينتظرهم من مستقبل باهر كما ذكر سابقاً . وما معنى أن يستثنى أهل البوسنة والهرسك الذين اعتنقوا الإسلام من الضريبة ، كما جاءت أقواله متناقضة جداً مثل باقي المستشرقين حول حياتهم والمعاملة الحسنة والمستقبل اللامع الذي ينتظرهم وبين أن الضريبة صارت رمزاً للسيطرة العثمانية في التراث الشعبي . وأكد ذلك بقوله وجود شهادات توضح تذبذب هذه الظاهرة ، وطبق عليهم نظرية أنهم عبيد على الرغم من عدم إيراد دليل على صدق أقواله .

كما أعترف هو بنفسه بكفاءة هذه الفرقة ، حيث أورد أن المراقبين الغربيين والذين هم من كال الاتهامات للإنكشارية ، أوضحوا أن هذا الجيش تميز بانضباط صارم وقدرة على الانتشار بسرعة ونظام دون إحداث جلبة ، كما عاشوا في نقشف ، ونظافة تامة للمخيمات ، في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الأوروبية

متغترسة ، مشاغبة ، مدمنة على الخمر ، ومستسلمة للأقدار ،
ومتقلبة بمؤن غير مناسبة . (١)

وهذا يدل على اقتناع الإنكشارية بعقيدتهم الإسلامية ، ويدل
على أن الأوروبيين كانوا يدركوا مدى افتراءهم على الإنكشارية .
أما هاملتون جب الذي كرر الفرية مضيئاً هجوماً على
المحاربين الأوائل الذي شبههم بقطاع الطرق والعصابات ، هؤلاء
هم من قاد الفتوحات الأولى وأدخل الرعب في قلوب البيزنطيين ،
فهؤلاء أول من فتح المدن في الأراضي البيزنطية وعملوا على
استقرار الدولة العثمانية لأول مرة في شرق أوروبا ، فكيف يريد
السلطان أورخان التخلص منهم وهم من قادة الفتوحات ، وإنما أراد
الاستفادة من الأطفال المشردين في إنشاء جيش ، لأنه إذا أستمروا
القتال بهذه الفئة ، ستفنى بعد قليل .

وقد اتهم نظام الإنكشارية بأنه مخالف للشرع الإسلامي، فهل
هو يعرف الشرع أكثر من شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية ؟ ثم
ما هو دليله على صدق أقواله ؟

أما خليل إينالجيك فقد اتهم المسلمين بالتعصب لأقاربهم ،
والذين سيطهروا الرعية إذا ما صار أبناءهم من الإنكشارية ، وهذا
تلميح خطير إلى سوء أخلاق المسلمين ، أما في نظرة أن
المسيحيين إذا اعتنقوا الإسلام صاروا غيورين عليها ، ويصبحون
أعداء لأقاربهم ، هذا طبيعي لأنهم مخالفين لهم في العقيدة ، أما
مسألة الغيرة فهي موجودة في قلب كل مسلم سواء كان مسلم

(١) روبر ماثران : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .

بالولادة أو اعتنقها في إحدى مراحل حياته، فالإسلام دين أخلاق ومثل يهذب أخلاق المسلم ، كما أن الغيرة تولد في قلب المؤمن منذ لحظة اعتناقه للإسلام ، وقد اعتمد خليل أيناالجيك في أقواله على مصدر عثماني لم يذكر اسمه أبداً ، فكيف يصدق الباحث روايته ، كما أنه بهذا التلميح يريد بذور التفرقة ما بين أبناء النصارى وأبناء المسلمين . ويوضح أن أبناء النصارى في الإنكشارية كانوا الأفضل والأحسن لأن الإنكشارية هي الفرقة التي نسبت إليها أعظم فتوحات الدولة العثمانية. واستند إلى وثائق لم يلحقها بكتابه أو يذكر حتى من أين حصل عليها في مواعيد جمع الغلمان ، وهذا يعني أن مصادره مجهولة .

أما المؤلف الإنجليزي المجهول الذي ألف كتاب تاريخ الأتراك العثمانيين . فقد شبه الجيش العثماني بالفرق الرومانية والتي تعتمد على المرتزقة ، وأخذ أسرى الحرب وبيعهم ، ونحن نتساءل ماذا يقصد بالجيش هل هم الإنكشارية أم الفرق الأخرى ؟ كما أن الجيش يأخذ الأسرى ويبيعهم أو يكون منهم جيش ، وحديثه غير مفهوم ولا يمت للواقع بصلة ، كما أنه جزم بإعفاء الأسرى من الفدية إذا تم عقد معاهدة بين الدولتين ، كان هذا في الغالب ما يحدث ، فكيف تجمع عدد كبير من الأسرى مما دعى إلى وضعهم في الدوشرمة ؟!

هذا عن آراء المستشرقين المسيحيين ، وليس بمستغرب عليهم مثل هذا التشويه والافتراء أما المؤرخين المسلمين فإنه من

المحزن والمؤسف تتأقلمهم هذه الافتراءات دون محاولة تنقيتها أو معرفة مدى صحتها .

لقد اعترف البعض بهذه الضريبة وجزموا بها بل وأطلقوا عليها أسماء جديدة مثل ضريبة الدم ، أو أعترفوا بنظام البذل أي دفع مال مقابل الإعفاء من الضريبة .

فعبد الوهاب بكر أطلق على الإنكشارية جهاز تفريخ القوى البشرية الذي يزود الجيش بالرجال منذ عهد أورخان ، إنه تعبير جارح جداً لفرقة حملت راية الجهاد وسقت الأراضي المفتوحة بدمائها ، إنهم بشر آمنوا بالإسلام ومبادئ الجهاد وليسوا لدواجن تسعى في الأرض دون هدف .

عبد السلام عبد العزيز فهمي جاء بقضية جديدة ، وهي المقاييس التي يتم بناءً عليها اختيار الغلمان ، من جمال الوجوه وقوة الأجسام وبراعة العقول ، على الرغم من أن هذا كله لا يظهر وهم أطفال ، لأن الجمال يظهر مع أولى سنوات الشباب وقوة الأجسام لا تكون في سن الطفولة ، وإذا كانوا يجمعوا الأطفال من أسرهم المسيحية ويرحلوا إلى العاصمة ، فمتى يكشف المندوب براعة عقولهم وتفكيرهم ؟

وهذا يقودنا إلى ما أورده أحمد عبدالرحيم مصطفى أن العثمانيين اختاروا أذكى أبناء المسيحيين وأخضوهم ، إذ كيف يعرف المندوب الذي يجمع الأطفال مدى ذكائهم فهو يجمعهم عشوائياً دون إخضاعهم لاختبارات ذكاء أو ما شابه .

أما إسماعيل ياغي فقد ظهر التناقض واضح في حديثه وعدم ثبات معلوماته ، كما أنه جزم بضريبة الرأس ، والتي كان على المسيحيين أن يدفعوها في مقابل حماية الدولة العثمانية لهم والإعفاء من الخدمة العسكرية والغريب في الأمر أن كلمة ضريبة الرأس هي اختراع من وحي خيال المستشرقين وليس لها مصدر عثماني موثق .

كما أن الشناوي جزم بصحة الفرية ، ولم ينتقدها بل تخبطت معلوماته ما بين رفض الأسر المسيحية لهذه الضريبة ، وما بين ترحيبهم بها ، مثل باقي المستشرقين ، وهذه النقطة بالذات تكشف عدم صدق إدعائهم على الإنكشارية ، بل أن الشناوي أتهم الأسر المسلمة بأنها كانت تتسابق لتقديم أبنائها للإنكشارية ، وإن صح هذا الأمر فهذا يعني أن أغلب الأطفال كانوا مسلمين أصلاً ، فلا يوجد إكراه على الدين الإسلامي. كما أوضح أن الأسر المسيحية تلجأ للخدعة إذ تزوج أولادها بعد بلوغ سن العاشرة مباشرة ، لأن القانون يمنع المتزوجين من الانضمام لصفوف الدوشرمة . أو تقديم رشوة لمندوب (*) الدولة العثمانية حتى يترك أبناء الأسر الميسورة الحال ، أليس هذا تناقض في أقواله !

كما يضيف الشناوي أن أبناء اليهود دخل أبنائهم ضمن ضريبة الغلمان على أنهم مسيحيون . (١) على الرغم من أنه ذكر

(*) وقد وجد هؤلاء المندوبين في هذه الرشوات وسيلة للثراء السريع بطرق غير مشروعة ، ويحقق مصالح متبادلة بين المندوب والأسرة المسيحية . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .

(١) عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ .

في موضع آخر إعفاء اليهود والأرمن والكاثوليك وبعض المناطق كإستنبول وهي العاصمة وإثينا وجزيرة رودوس.^(١) لقد أكد الشناوي أن أبناء اليهود دخلوا في هذه الضريبة ثم يعود فيناقض نفسه ، حيث نصطدم مع إعفاء الدولة العثمانية لليهود الأرمن والكاثوليك من هذه الضريبة ، إذ أن جلّ سكان أوروبا الشرقية ومسرح العمليات العسكرية العثمانية هم من هذه الطوائف وأن الكاثوليك بالذات يشكلون النسبة العظمى من سكان أوروبا الشرقية بمعنى آخر ، من بقي من شعوب الروم إيلي ليكره على الإسلام؟ أما ساطع الحصري زعم أن الإغارة على أوروبا كانت بقصد جلب الرقيق ويسمى هذا ابتكاراً تماماً مثل ما فعل برنارد لويس مع الخمس أو الفيء برغم اختلاف الأجناس إلا أن الذي جمعهم هو العداء السافر للإسلام وأهله ، فهو يسمي الجهاد إغارة ، القصد منها مادي بحت وليس للدين فيه نصيب بينما نجد السلطان عثمان باشر بإرسال الرسل إلى أمراء الروم يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الجزية أو القتال .

أما الدكتور الغرايبة نقل لنا هذه الفرية بأسلوب جرح وكأنه أمر لا يمكن الشك فيه ، لكننا نجد في موضع آخر من كتابه يوضح أن إمارة عثمان كانت المتنفس الوحيد للحماس الديني في الإسلام ، وقد اجتذبت لها أعداداً من المسيحيين لنصرة الإسلام الراغبين في الجهاد في سبيل الله ، تحت راية الدولة العثمانية ، ومن حقنا هنا أن نتساءل ما حاجة السلطان أورخان ومن ثم مراد إلى بضع مئات من

(١) عبدالعزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

الغلمان النصارى الذين يتطلب إعدادهم للجندية سنوات طويلة ،
بينما تنهمر على الدولة العثمانية من كل حذب وصوب جموع
المسلمين لنصرة الدين والجهاد في سبيل الله ؟ وهذا ما أكدّه الدكتور
الغرايبة في كتابه ، إذاً قال هذه الكلمة ورد على نفسه في نفس
الكتاب ، وهذا يدل على تلفيق الحقيقة وعدم صدق إدعاءه. ومع هذا
فقد أقر بأنه لم يقم أحد السلاطين بإكراه الأطفال النصارى على
اعتناق الإسلام ، لأن أغلبية الأطفال الذين كانوا يربون تربية
إسلامية لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء مسيحيين أنخلعوا عن
النصرانية ، واعتنقوا الإسلام وصاروا يقدمون أبناءهم طوعية
ليستكملوا تربيتهم الإسلامية ، أما باقي الأطفال فهم المشردين
والأيتام من جراء الحروب.

أما ما أورده محمد الأرناؤوط عن الإنكشارية من واقع
الوثائق فعمل يشكر عليه ، ولكن إذا فصلت الباحثة أولاً المعلومات
التي وردت في صفحات الكتاب ، يلاحظ أنه أعتمد على كتابات
الرحالة الأوروبيين ، وهؤلاء لا يوثق في كتاباتهم بسبب عدم
فهمهم لخلفية المنطقة الدينية والاجتماعية ، إضافة إلى وجود فكرة
مسبقة في أذهانهم يعملون بشتى الوسائل لإثباتها حتى ولو اختلقوا
الأكاذيب لتحقيق مآربهم ، وبالتالي تأتي معلوماتهم ناقصة ومغلوبة
في أغلب الأحيان .

لقد أورد الأرناؤوط أن الخيالة السريعة مهمتها كانت إثارة
الفرع ، على الرغم من أن الخيالة السريعة هي الفرقة التي تتطلق
بسرعة للتمهيد لأي معركة أو فتح قلعة ، فهي لا تتطلق بين القرى

لأخذ الأطفال كما أن هذه المعلومة لم يرد ذكرها في الوثائق التي
أعتمد عليها .

ثم أورد معلومة ألصقت بها تهمة الدوشرمة في السلطان مراد
الثاني وأنه هو الذي انتزع أبناء المسيحيين من أسرهم والسلطان
مراد الثاني كما هو معروف اشتهر بنشاطه العسكري وحنكته
السياسية واستقامته ، إضافة إلى أن عهده تميز بكثرة الفتوحات
العثمانية وبالتالي تدفق الأسرى عليه من جميع الجهات ، فما حاجته
لإنتزاع الأبناء من أسرهم ، إضافة إلى أن بلاد اليونان والبلغار
والتي زعم الأرناووط أن الشبان كانوا يجمعوا منها لم يكن الحكم
العثماني قد استقر فيها بعد .

كما أورد في كتابه أيضاً أن الأطفال الدوشرمة مختلفين عن
أطفال الخمس ، حيث أوضح أن هذين القانونيين عملاً جنباً إلى
جنب في فترة محدودة ، إذ أنهم في النهاية هم الأطفال الأيتام
وأسرى الحروب .

وأورد الأرناووط في موضع آخر من كتابه أنه في عهد
السلطان محمد الفاتح أرسل شعب البوسنة المسلم عريضة للسلطان
يطلبون فيها إنضمام أبنائهم للدوشرمة ، فإذا كان الحال بأولاد
المسلمين هكذا فالأولى بأولاد المسيحيين أن يتسابقوا على دخول
الدوشرمة . (١)

أما بالنسبة لأعمار الأولاد فقد ناقض نفسه إذ قال أن الدولة
العثمانية كانت بحاجة إلى قوات عسكرية ، لذلك لم يكن بوسعها

(١) محمد الأرناووط : مرجع سابق ، ص ٣٨ .

انتظار عشرة أو خمسة عشر سنة إلى أن يكبر هؤلاء الأولاد ،
فاكتفت الدولة بأخذ الشباب ممن بلغوا الثامنة عشر سنة وأكثر ،
وإخضاعهم لدورة تدريب عسكرية سريعة ، وهذا في مفهومه العام
تجنيد كما يحدث في الوقت الحالي وليس ضريبة مطلقاً . لأن هؤلاء
دائماً على صلة أوثق بأسرهم وقراهم ولا يمكن تغيير دينهم ،
وبالتالي لابد أن يكونوا مسلمين (١) .

أما عن مقاومة الأهالي لهذه الضريبة ، فإن المقاومة جاءت
من منطلق مقاومة التجنيد الإجباري ، كما أن هجوم الأهالي المسلح
على القافلة أثناء سيرها ، يرجع إلى رفض أهالي القرى مبيت
القافلة عندهم نظراً للعبء الاقتصادي الذي يتسبب به مبيت هذه
القافلة من تدبير طعام وشراب ومكان للمبيت لأكثر من مئتي
شخص . ولكي نفتتح بمقاومة الأهالي لهذه الضريبة أعتمد على
قصص ملفقة من رحالة مغرضين مثل قصة الأم التي تخاف على
أطفالها الاثنين من ضريبة الغلمان وهي أرملة ، وهذان الطفلان
بالتالي أيتام ، وقد قرر الأتراك أخذهم على حد قوله على الرغم أنه
أكد في موضع آخر من كتابه أن الأيتام معفيون من هذه الضريبة
لأنهم طماعين وغير مؤدبين وبهذا يتضح التناقض الواضح في
الروايات التي استند عليها . (٢)

كما أن العقوبات الصارمة التي أوردها الأرناؤوط تسري
على من يرفض تسليم ابنه للتجنيد وليس للضريبة ، فكلمة الضريبة

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : رقم الوثيقة ، HH ٨٢٦٥ .

(٢) محمد الأرناؤوط : المرجع سابق ، ص ٤٣-٥٠ .

أطلقها المستشرقون حتى يشعروا القارئ بأن العثمانيين قساة ينتزعون الأطفال. كما أن هذه العقوبات كانت تسري على أصحاب الإقطاعات والتميمات والزعامات ومتولي الأوقاف ، لأنهم يرفضون تسليم الشبان ، الذين يشكلون أيدي عاملة ممتازة عندهم . وأخيراً أكد الأرناؤوط أن مقاومة الدوشرمة لم تستمر طويلاً إذ ظهرت في بدايتها ، ثم تلاشت بعد أن أتضح المستقبل الزاهر والمناصب العليا التي تنتظر هؤلاء ، فأخذ الآباء يقدمون أبناءهم طواعية وبرغبة شديدة للخدمة في الإنكشارية حتى أن بعض المصادر اعتبرته تكريم ومحابة لأهل الغلام . (١)

انتهى العمل بنظام جمع الأبناء والشباب للإنخراط في سلك الإنكشارية تقريباً عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٨ م ، في عهد السلطان مراد الرابع .

من فحص وتدقيق الوثائق (*) التي وردت في ثنايا كتاب الأرناؤوط يتضح ما يلي :

- ١- الوثائق تركزت في الفترة ما بين ١٥٦٥م - ١٦٤٧م . أي منذ آخر سنة في عهد سليمان القانوني وحتى عهد السلطان إبراهيم الأول . ومن المعروف أنه تخلل في هذه الفترة الضعف والوهن في كيان الدولة العثمانية ، وخلال القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي عمت

(١) محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(٢) الوثائق محفوظة في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول ، ونسخ أخرى منها محفوظة في معهد التاريخ القومي في سكوبيه .

الإضطرابات والفوضى والاختلالات السياسية في جميع أرجاء الدولة العثمانية ، فإذا جزمنا مؤقتاً بوجود هذه الضريبة استناداً للوثائق المرفقة ، فإنها لا تشمل كل فترة حكم الدولة العثمانية في المنطقة المعنية . بل مورست هذه الضريبة في فترة محددة جداً . كما أن إختلال الموازين في الدولة العثمانية في تلك الفترة أدى إلى حجب كثير من الحقائق عن السلطان المنقل بالمشاكل الداخلية والخارجية ، وبالتالي من الممكن أن تتم أعمال من عماله وبطانته السيئة دون معرفة السلطان وذلك لأنه أختارهم ووثق فيهم . ولم تذكر وثيقة واحدة أخذ الأبناء بالقوة من بيوت أسرهم . وإنما يرد في الوثيقة جمع " أولاد العجم " وإرسالهم إلى إستانبول وبالتالي من الممكن أن يكون قصد السلطان في فرمان أو الأمر السلطاني ، الأطفال المشردين أو الذين فقدوا أسرهم في ظروف الفتح أو أي ظرف آخر .

٢- وإذا جاء في إحدى الوثائق مقاومة أهالي القرى ومهاجمتهم لقافلة "أولاد العجم " أو الدوشرمة أثناء طريقها لأستانبول ، وهذا لا يعني أن هجومهم للقافلة بسبب الضريبة ، ولكن من الجائز أن يكون الهجوم لأسباب اقتصادية إذ أن هذه القافلة عندما تبيت في القرية ، يتحمل أهالي القرية عناء مبيت هذه القافلة وتدبير مأكّل أكثر من مئتي شخص ، مما يُمثّل عبئاً اقتصادياً على أهالي القرية الفقراء ، وهذا ما أكدّه الأرناؤوط في كتابه ، إذ أوضح أن كثيراً من القرى كانت ترفض بقوة

السلاح مبيت هذه القافلة في أرضها . كما جاء في الوثيقة الثانية . (١)

٣- تظهر حقيقة واضحة وبجلاء وهي أن الأولاد الذين يتم جمعهم يعملوا في البساتين السلطانية ، وهذا يعني أنهم في الأغلب أكبر من أربعة عشر عاماً مما يعطي دلالة واضحة أن هؤلاء الشبان يُمكنهم مقاومة جامعي الدوشرمة بسهولة ، كما لا يمكن تغيير دينهم في هذا العمر ، أو قطع صلاتهم بأسرهم ، كما جاء في الوثيقة الثالثة ، أن السلطان أرسل أمر بجلب كبار أولاد العجم ، وليس الأطفال الصغار .

٤- في الوثيقة السادسة ورد ذكر أخذ الابن من أبيه الذي يتراوح عمره من خمسة عشر عاماً إلى عشرين عام ، مما يوضح تماماً أن هذه الضريبة التي تغنى بها المستشرقين ورددتها المؤرخون العرب ، وألصقوها كتهمة بشعة في الدولة العثمانية ما هي إلا تجنيد إجباري لشباب القرى والمدن التابعة لحكم الدولة العثمانية ، والتجنيد الإجباري موجود في الوقت الحديث بشكل كبير ، كما أن كثيراً من الدول الإسلامية مارسته . وبالتالي لا يعتبر التجنيد تهمة ، وإنما مجرد إجراء روتيني للشباب ، وذلك حتى يكونوا متهيئين لدخول أي حرب وهذا ما كانت تقوم به الدولة العثمانية تحت ما أسموه بضريبة الغلمان أو الدوشرمة .

(١) محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

٥- ورد في الوثيقة التاسعة المؤرخة بـ ١٦٣٨م - ١٦٣٩م أن جمع الأولاد الذميين والمسلمين توقف لفترة من الزمن ، ثم بدأ جمع أبناء الذميين والمسلمون في سن يتراوح من ستة عشر عاماً إلى خمسة وعشرين عاماً وهذا يعني تجنيد وأداء الخدمة العسكرية لهؤلاء الشباب ، وهذا الأمر موجود في كل عصر وفي كل مكان ، فعندما ينهي الشباب الخدمة العسكرية ، يعود إلى قريته وأسرته ويمارس حياته الطبيعية ، وفي حالة حدوث حرب يتم استدعاؤه لخدمة بلاده ، أما في الدولة العثمانية فكان يتم تجنيد الشاب ثم يلتحق بجند الإنكشارية فوراً ، وذلك لكثرة حروب الدولة العثمانية والجبهات المفتوحة عليها من الداخل والخارج .

٦- يتضح من الوثائق أنه في بعض الأحيان يرفض أصحاب التيمارات والأراضي الزراعية تسليم هؤلاء الشباب لجامعي الدوشرمة على حد زعمهم ، وذلك بسبب أن غياب هؤلاء الشباب يعني ضياع الأيدي العاملة التي تعمل في زراعة الأراضي ، مما يعطينا دلالة واضحة على تقدم سن هؤلاء الشباب ، وأنهم ليسوا أطفال كما ادعى أغلب المستشرقين .

٧- تركزت الوثائق على منطقة البلقان فقط ، فمن الجائز إذاً أنها مورست في هذه المنطقة فقط في فترة زمنية محدودة حيث انحصرت الوثائق في الفترة ما بين ١٥٦٥م - ١٦٤٧م أي فترة إثنان وثمانون عاماً فقط ، وهذه مدة ليست طويلة لدرجة أن تمارس فيها هذه الضريبة كثيراً ، كما أن الدولة العثمانية

شملت مساحة كبيرة في تلك الفترة فمن الجائز أن يقوم الولاة بأعمال لا يدري عنها السلطان لبعد المسافة ، وببطء وصول الأخبار لأستانبول .

٨- أن الشبان الذين كانت تجمعهم الدولة العثمانية مسلمين بدليل أنهم حملوا السلاح للدفاع عن الإسلام .

وأخيراً فإن هناك خطأ كبيراً وقع فيه المستشرقون ومن بعدهم المؤرخون العرب المسلمين ، ألا وهو الجزم القاطع بأن الإنكشارية يشكلون معظم الجيش العثماني تقريباً ، وكانوا عموده الفقري منذ البداية، والسبب في ذلك يعود إلى كثرة تكرار اسم الإنكشارية في التاريخ العثماني ، سببها كونهم جنود المركز كما أنهم في استانبول دائماً يقومون بالثورات لكن نظام الفرسان ظل سائداً في الجيش العثماني ، وجميع السباهية المنتشرين في أنحاء الدولة العثمانية يؤدون واجبهم دون التدخل في السياسة ، ولم يصبح الإنكشارية أغلبية في الجيش إلا في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ، عندما تدهور نظام الإنكشارية وصار ذلك التدهور أحد الأسباب الرئيسية لضعف الدولة العثمانية . (١)

ولنا أن نتساءل ما مدى صحة أصل الجيش الإنكشاري من الناحية الشرعية ؟ فإنه من المعلوم أن الدولة العثمانية قامت على الإسلام وكان للعلماء دوراً بارزاً فيها وغير مسبوق في بعض

(١) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ . عبد العزيز نوار : مرجع سابق ،

الأحيان . (*) ولو كانت فكرة الإنكشارية غير شرعية لأظهر ذلك العلماء والشيوخ للسلطان ولكن ذلك لم يحدث .

وإضافة على الأدلة والبراهين السابقة فإن محمد فؤاد كويرلي أوضح أن قسماً ضئيلاً من الأسرى وربما الأصغر سناً دخل في الإسلام أما القسم الأكبر فكانوا يوهبون لأصحاب الأراضي الزراعية . وفي الوقت نفسه كانت الفتوحات في البلقان تتم بسهولة دون خسائر تذكر ، (١) وهذا يدل على أن الفتوحات تمت بدون الحاجة إلى أبناء النصارى من جهة ، وأن قلة الخسائر إنما هي لعدم المقاومة من الطرف الآخر ، ولسماع أهل البلاد بالمعاملة الحسنة التي يتميز بها العثمانيون .

وفيما يلي نستعرض بعضاً من أقوال الأجانب المنصفين عن هذه الضريبة كدحض لآراء المستشرقين :-

بوسبيك (**) وصف الجيش العثماني بقوله " أفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد واليقظة " (٢) كما يؤكد كريزي أنه لم يرد ما يدل على حدوث إكراه

(٩) ثبت أن عثمان أقام سياسته على مشورة الفقهاء وحكم حكماً عادلاً يوجب الانتفات إليه في تلك العصور الطافحة بالظلم . مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(١) محمد فؤاد كويرلي : مصدر سابق ، ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(**) السفير النمساوي في الأستانة عام ١٥٥٤ م .

(٢) نقلاً عن عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

للأسر المسيحية على ذلك ، بل أن الآباء أنفسهم كانوا يسعون
لإلحاق أبنائهم في الإنكشارية (١)

وقد جاء ذكر الإنكشارية في كتاب الرحالة الفرنسي دي
كورمينان الذي زار بلاد الشرق عام ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م ، حيث
أعجب بالنظام السائد لدى الجيش الإنكشاري في ذلك الوقت ،
وتمنى لو كان من الممكن أن يسود هذا النظام لدى المشاة في
فرنسا . (٢)

أما المؤرخ الأمريكي ليبير فقد علق على جنود الإنكشارية
بقوله أنه ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جرأة وأوسع
نطاقاً مثل التجربة التي أقدم عليها العثمانيون ، وأوضح أنها كانت
موجودة في دولة المماليك ، ولكنها عمّرت في الدولة العثمانية أكثر
مما عمّرت تجربة المماليك، كما أن الدولة العثمانية في هذا الأمر
لم تعترف بالفروق الاجتماعية فقد دخل الإنكشارية أبناء الفقراء
والفلاحين ، الذين التصقوا بالفقر والحرمان ، وبمضي الأيام وصلوا
إلى أرقى المناصب ، كصدور عظام ، ووزراء ، وقادة
عسكريين . (٣) (*)

(١) نقلاً عن محمد عبد اللطيف البحراري : مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٢) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٠ .

(٣) قال : إن الجيش العثماني كان يجمع أفراداً جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان . وإذا صدرت
الأوامر باستدعاء الجيش لحملة عسكرية كبرى اجتمع الجيش حول السلطان ، وفي مسيرة الجيش
يأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان . وكان السلطان هو المحور الرئيسي الذي ينظم جميع =

وورد في الموسوعة اليونانية أن السلطان عثمان ومن بعده أورخان لم يكونا يجبران البيزنطيين على الدخول في الإسلام وإنما تركا لهم حرية التدين.^(١) بل إن هذا التسامح الديني لم تعرفه أوروبا النصرانية، وهو عكس ما في الدولة العثمانية حيث كان النصراني لديه مطلق الحرية لإقامة مدارس الخاصة ومعاهده الدينية .

وعلى ما تقدم من أقوال المستشرقين نكتشف حقيقة مهمة هي عدم استناد المستشرقين على أي سند تاريخي أو مصدر أو وثيقة أو مخطوطة وإنما يتولد لدى القارئ إحساس بأن ذلك من تأليف وصياغة المستشرق نفسه ، وفي نهاية الأمر لا نجد مصدر موثوق يعتمد عليه للجزم بصحة الفرية .

والغريب في الأمر أن المؤرخين المسلمين اعتمدوا على المستشرقين في نقل بعض المعلومات التاريخية ، ولم يحصوها ويتأكدون من صحتها بل إن بعضهم أخذها كأمر مسلم به .

وبناءً على جميع ما تقدم نضع حقيقة واقعة ، لامراء فيها وهي أن العثمانيين ليسوا مبتدعين ، بمعنى أن العثمانيين لم يبتدعوا شيئاً مخالفاً للعرف والدين حين أنشأ جيش الإنكشارية ، إن فكرة إيجاد جيش محترف فكرة عسكرية عبقرية ، وهي فكرة قديمة

= عمليات التشكيل التي تتم في المعركة ، والكل يدين بالولاء التام عقلاً وروحاً . عمر عبد العزيز
عمر : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(٣) نقلاً عن عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(١) زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٣٥ . نقلاً عن الموسوعة اليونانية .

MEGALIA ELLINIKI ENGIKLOPEDIA ج ٨ ، ص ٢٧٦ .

مارستها كل الشعوب . (١)

وقد أورد ابن خلدون في مقدمته قوله " إن الدولة إذا طرقها الهرم والضعف تتخذ جنوداً من غير جلدتها ممن تربوا على الخشونة ، فيكونوا أصبر على الحرب من غيرهم ممن تربوا في نعيم العيش " (٢)

ولكن الذي يختلف عن نظرية ابن خلدون أن الدولة العثمانية في فترة نهوضها وتأسيسها وعز قوتها اتخذت جنوداً من غير جنسها وليس في فترة الضعف والهرم .

كما أن العثمانيين ألبسوها لباساً نظامياً ، بعد أن كانت بلا رابط حيث يلتحق المرء بالجيش الذي يريده متى شاء وينفصل عنه وقتما أراد وينضم لجيش عدو سابق لكن لا أحد يلومه أو يعاقبه ، إلا أن العثمانيين نظموا هذا الأمر ، وجعلوا الجيش المحترف جيشاً نظامياً مرتبطاً بالدولة العثمانية . كما ألبسه نظاماً شرعياً دينياً يحترم حرية الفرد (٣).

ولنعدد الأمثلة من جيوش العالم التي اتخذت جنودها من غير جنسها إضافة على معاملتهم كمرتزقة ، وهو عكس الدولة العثمانية التي وصل فيه أفراد الإنكشارية إلى مناصب عليا في الدولة . لقد وجدت هذه الجيوش في الدولة البيزنطية أصحاب القسطنطينية، الذين كانوا إذا غزوا بلاد الإسلام سبوا كثيراً من

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٧٦٧ .

(٢) فايقه محمد عبد الصمد بحري : أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا ، رسالة ماجستير لم تطبع ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م ، ص ١٥ .

(٣) محمد فريد المحامي : مرجع سابق ، ص ٧٦٧ .

الأولاد وربوهم على النصرانية ، وجعلوهم جنداً يقاتلون المسلمين . فعندما استولى نقفور فوكاس على حلب سبى عشرة آلاف ولد من أهلها ورباهم في دار ملُكه ، وعمدهم ، وجعلهم من أفضل جنوده . كذلك عندما استولى البطريق ميخائيل بورسزيس على أنطاكية سبى من أولاد المسلمين عشرة آلاف ، ورباهم في القسطنطينية فخرجوا نصارى ، وصاروا جنداً . (١)

وإذا دققنا النظر في التاريخ القديم وعلى الأخص تاريخ الإغريق نجد أن الطفل يفصل عن أهله وذويه منذ السابعة من العمر ، ويربى من قبل الدولة ، ويقسم الصبيان إلى مجموعات تحت إشراف مدرب وتُقطع الصلة بينهم وبين أسرهم نهائياً . وكان يتم تدريبهم بمنتهى القسوة، مفتقداً لأبسط المعاني الإنسانية . (٢) وأنني استغرب بعدم مهاجمة المؤرخين والتحدث عن مشاعر الأم الحزينة على فراق أبنها ولم يأتِ أحداً على ذكر ذلك النظام الإغريقي وما احتواه من قسوة ومخالفة للطبيعة الإنسانية ، بل اعتبروه من أسباب نجاح وتقدم نظام دويله المدينة السائد في الإغريق .

كما أن جيوش جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك ، إضافة إلى جيوش الإسكندر المقدوني ونابليون الأول وغيرهم من القادة العظام لم تكن جيوشهم تركز على جنس واحد ، بل كانت جيوشاً مأجورة

(١) شكيب أرسلان : : تاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق حسن السماحي سويدان ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار ابن كثير ، ٢٠٠١م ، ص١٤٢٢هـ ، ص٥٩ .

(٢) محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، دمشق : دار الفكر ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م ، ج ١ ، ص ١٨٦ - ١٨٩ .

مختلطة من أقوام كثيرة ، وكثير من قادة هذه الجيوش يعملون ضد مصلحة أوطانهم الأصلية ^(١) ولم يكن القائد يرى في ذلك حرجاً ، إن أول جيش في العالم قام على عقيدة واحدة هو الجيش الإسلامي . كما نجد أن الدول المستعمرة قد سيرت جيوشاً من أبناء المستعمرات يحاربون به الأعداء ، ولولا جيوش المستعمرات الإنكليزية والفرنسية لما استطاعت هذه الدول الصمود أمام الدولة العثمانية ، حيث ساق الإنكليز جيوشاً من الهند وغيرها من المستعمرات ، وسأقت فرنسا جيوشاً من المغاربة والجزائريين وإفريقيا السوداء ، وهذه الجيوش هي من كان يتلقى الصدمة الأولى . ^(٢) ونجد أن الدولة العباسية اتخذت هذا النوع من الجيوش وكانوا من الأتراك حيث قام بشرائهم الخليفة المعتصم وكانوا أحد أهم أسباب تدهور الدولة العباسية . إضافة إلى ظهورهم في الدولة الأيوبية في مصر حتى أنهم ورثوا حكم البلاد مكونين الدولة المملوكية . ^(٣)

وإذا كان المستشرقون قد نقدوا هذا النظام ، ورقّت قلوبهم الحاقدة على الإسلام ، لحال الأسر الحزينة ، فهذا لا يرتقي ولا يقارن بما فعله الأسبان المسيحيون بمسلمين الأندلس الذين خيروهم بين التصير أو الموت ، وما فعلته محاكم التفتيش بالمسلمين وأسرهم ، وبما فعلته بلاد المستشرقين أنفسهم بالزنوج الأفارقة في

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٧٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٦٩ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج ٢ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ط ٦ ، ١٩٦٤ م ،

عهد الاسترقاق المروع ، أو ما فعلوه بالبلاد التي استعمروها مثل مصر والجزائر والشام والمغرب وغيرها ، وإذا كانت الإنكشارية قد صوّروا بشكل سيئ في مؤلفات المستشرقين ، فإن هؤلاء قد نسوا تاريخ أوروبا المليء بالخزايا، ونسوا أيضاً أن هذا النظام كان مقبولاً في تلك الفترة .

وخلاصة الحديث إذا كانت الإنكشارية قد أساءت إلى الدولة العثمانية، فليس ذلك ذنب الفكرة في حد ذاتها بل هو ذنب الدولة التي لم تعرف كيف تقبض عليهم قبضة حازمة وأن تبعث فيهم روح الجهاد ، فعندما نجحت في ذلك إستقامت لها الأمور ، ولو اقتدى السلاطين بسليم الأول الذي فتك برؤوس الإنكشارية بعد تمردهم في إيران ، لبقى الإنكشارية أفضل الجيوش .

وإذا كانت الإنكشارية قد أخطأت فهذا لا ينفي دورها المهم ، ويكفي الدولة العثمانية فخراً أنها استطاعت أن تصهر الجميع في بوتقة إسلامية ثم تطلقهم في الميادين الحربية تحت راية الإسلام محققين أعظم الانتصارات والفتوحات الإسلامية .

الفصل الثاني

تسلط وجبروت الإنكشارية

المبحث الأول :

أسباب تمرد الإنكشارية .

المبحث الثاني :

نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني .

المبحث الثالث :

تدخلهم في مسائل السياسة العليا .

المبحث الأول

أسباب تمرد الإنكشارية

من الطبيعي أن يتساءل الفرد عن سر تحول الإنكشارية ، من جيش قاد الدولة العثمانية إلى النصر وترجيح كفتها في المعارك التي خاضوها، إلى جيش مستهتر ، كثير التمرد والعصيان ، يُهزم في أغلب المعارك التي يخوضها ، ويتحول إلى أداة تخريب وفتك بمن يقف في طريقهم ، إذ أنهم استبدلوا بالسلطين والوزراء وعزلوا وقتلوا وولوا من أرادوا، وعاثوا في الأقاليم فساداً ، وظلموا الأهالي ، فصاروا حكومة داخل حكومة ، والدولة العثمانية لا تستطيع أن تأتي بفعل ضدهم ، أو تقف أمام تنفيذ رغباتهم ، وكانت كلما تساهلت معهم زادوا في غيهم حتى وصل الأمر إلى أن يخشاهم كبار رجال الدولة ويتملقوا لهم ، وينفذوا أوامرهم خوفاً من بطشهم . وعلى هذا لابد من معرفة الأسباب التي جعلت الإنكشارية في مستوى القوة والتمرد على سياسة الدولة .

لقد كانت الإنكشارية كالأسود المدججة بالسلاح في ساحة المعركة يندفعون في اتجاه العدو ، خاضوا المعارك الشهيرة مثل فتح القسطنطينية^(*) وغيرها من المعارك بمنتهى القوة والشجاعة ،

(*) لقد فتح محمد الثاني القسطنطينية عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م ، وسميت إستانبول ، بعد محاولات من المسلمين أولها في عهد معاوية بن أبي سفيان ٤٩ هـ / ٦٦٨م ، والتي تركت نكراً عميقة حيث دفن الصحابي أبو أيوب الأنصاري عند أسوارها من الخارج ، وعندما اكتشف العثمانيون قبره أثناء الفتح ، بنوا فوقه جامعاً ، وصار السلطين العثمانيون يقولون مناصبهم في هذا الجامع وهم يحملون سيف عثمان الأول أما المحاولة الثانية فكانت أيام سليمان بن عبد الملك ، حيث قاد أخوه مسلمة =

ولكن مع مرور الزمن بدأ الضعف والوهن يغزو صفوفهم^(١) وتحول السلاح الرهيب الذي خاضت به الدولة العثمانية أشد معاركها وأقوى فتوحاتها ، إلى سلاح موجه ضد سلطة الدولة العثمانية نفسها ، مما أصاب الدولة العثمانية بالضعف ، وتوقفت فتوحاتها ، ولكن من المؤكد أن هذا التحول لم يكن تلقائياً ، وإنما كان نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية.

فالعامل السياسي كان من أهم الأسباب وأوضحها ومن ذلك تقاعس السلاطين عن الخروج للحرب على رأس الجيش . وقد أكد ذلك معظم المؤرخين حيث أشاروا إلى أن بؤادر الضعف بدأت تظهر بعد وفاة السلطان سليمان القانوني الذي أبطل قاعدة مهمة وهي عدم خروج السلطان على رأس الجيش ، وصارت الجيوش تخرج تحت إمرة قائدها العام ، وهو من الإنكشارية ، مما جعل الإنكشارية في معظم الأحيان ترفض الخروج للحرب إلا إذا كانوا تحت إمرة السلطان. وعندما تقاعس أغلب السلاطين بعد سليمان عن الخروج للحرب ، وفضلوا البقاء بين جدران قصورهم ، وسط البذخ والرفاهية ، على تكبد مشاق السفر والجهاد ، كل ذلك أدى إلى رفض الإنكشارية الاستمرار في الحرب في كثير من الأحيان ، وأدى كذلك مع مرور الزمن إلى فقدان السلطان هيئته في نفوس الإنكشارية . كما أدى هذا الأمر إلى تقوية مركز القائد العام للجيش

= الحملة سنة ٩٧هـ / ٧١٥م ، ثم محاولات بايزيد يلدوم ومراد الثاني . إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج٢، ص ٥١٠ .

(١) علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الثالثة ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م ، ص ١٠٦ .

فأصبح له شأن عظيم ، ورأى نفسه في مركز يجب أن لا يردّ له طلب مما أدى إلى تضارب السلطة بين السلطان والقائد العام ، مما عقد الأمور ، وساعد على فساد الإنكشارية.(١)

وقد قاد هذا الأمر إلى نقطة مهمة وهي انخفاض الروح المعنوية في نفوس الإنكشارية ، وإرتقاء الروح القتالية لديهم ، وذلك لأن حضور السلطان الحرب له أثره على شحذ القوة القتالية عند الجيش ورفع الروح المعنوية لدى الجند . (٢)

لقد أعقب السلطان سليمان خلفاء تراخوا عن الخروج للحرب وأضاعوا البلاد الواسعة التي فتحها أجدادهم وحافظوا عليها بدمائهم وحسن إدارتهم . (٣)

ومن الناحية السياسية أيضاً عدم وجود قاعدة ثابتة لتولية السلاطين عرش الدولة وعدم وجود نصوص شرعية أو قانون يعتمدون عليه في تولية الحكم . فقد كانوا آخذين بمبدأ الاستخلاف وليس الشورى قال تعالى : (وأمرهم شورى بينهم) (*) والخلافة ممكن تأتي في الأخوة أو الأبناء ، الأمر الذي أوجد كثير من الخلافات الداخلية نظراً لكثرة عدد أبناء السلطان الواحد، فكان السلطان يختار من سيخلفه على العرش حتى لو كان الصغير دون

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٥٢ . محمود شاكر : التاريخ الإسلامي : العهد العثماني ، الطبعة الثانية ، القاهرة : المكتب الإسلامي ، ١٤١١هـ ، ج ٨ ، ص ١١٣ ، إسماعيل أحمد ياغي : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٢) مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٣) عمر الإسكندري - سليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مدبولي ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(*) سورة الشورى ، آية ٣٨ .

الكبير، وهذا ما أدى في كثير من الأحيان إلى منازعات داخلية ،
هيأت للإنكشارية فرصة التدخل في تولية العرش . وكان الأبناء
يتولون في العادة أماكن متفرقة من البلاد ، كتدريب لهم على الحياة
السياسية ، وفي بعض الأحيان كان يختلف الأخوة ويحدث بينهم
صراع على من سيتولى العرش ^(١) وفي عصر الضعف كانت
الإنكشارية تتدخل لتضع من تريد حتى تبقى لها اليد الطولى في
السلطة.

ونتيجة طبيعية لعدم وجود قاعدة ثابتة لتولي العرش ، فقد
صار هناك فجوة واسعة بين السلاطين وأبنائهم ، أو بين الأخوة
بعضهم ببعض، مما أفسح المجال لتلاعب الإنكشارية بالتولية وعزل
من أرادوا على حسب أهوائهم كما سنرى لاحقاً. ^(٢)

وكما تلاعب الإنكشارية بتولية السلاطين وعزلهم ، تلاعبوا
أيضاً بمناصب كبار رجال الدولة ، وأولهم الصدر الأعظم ، حيث
تحكموا في هذا المنصب كثيراً ، وكان يخضع لأهوائهم الشخصية
فيعينوا من أرادوا حتى وصل بهم الأمر إلى قتل الوزراء أو
الصدور العظام ، أو حتى السلاطين. ^(٣)

إضافة إلى ذلك ، أصبحت تولية المناصب في الدولة تخضع
لعملية الرشوة ، فصارت المناصب ليس لمن يستحقها وإنما لمن

(١) ألبرت هوبر ليبير : مرجع سابق ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٢) محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص ٤٧ ، ٤٨ .

يدفع أكثر ، كما أن أغاوات الإنكشارية استخدموا الرشوة كوسيلة للوصول إلى المناصب العليا . (١)

ولتأثيرهم القوي على السلاطين في تولية العرش فقد اتبعوا وسيلة الإكثار من الطلبات الخاصة بهم ، مما يجعل السلطان الجديد يعمل على إرضائهم ، أو على الأقل إرضاء كبار قاداتهم ، فيعطيهـم المال والهبات يوم تنصيبه ، إضافة إلى امتيازات جديدة ، وقد أطلق على هذه العطايا "البخشيش" وصارت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يستطيع أي سلطان مهما أوتي من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة والتتكيل.

ثم ألغيت هذه العطايا منذ عام ١١٨٨هـ / ١٧٧٤م ، بعد تولي السلطان عبد الحميد الاول عرش الدولة العثمانية في عام ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣م وكان السبب في الإلغاء سبباً قوياً ، وهو أن الدولة العثمانية كانت تعيش أزمة مالية عصبية بسبب ضخامة الإنفاق العسكري على القوات العثمانية إبان الحرب التي أشعل قتلها بين الدولة العثمانية وبين روسيا ، وهي الحرب التي طال أمدها ست سنوات ، وتحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان. (٢)

وعلى سبيل المثال إذا لم يستمع السلطان لرغباتهم ، يشعلوا النار في أي جزء من العاصمة حتى يخرج لهم السلطان لسماع رغباتهم، في هذا الوقت تكون النار قد أكلت جزء من العاصمة. (٣)

(١) أحمد جودت : تحقيق عبد اللطيف محمد الحميد ، ص ١٩٥ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ١٥٦ .

ونجد أنه في فترة حروب الدولة العثمانية كانت هذه الأعطيات مرهقة بالنسبة للدولة والخزنية ، فكانت تضطر إلى دفعها وإلا فإن الإنكشارية ستقوم بثورة وتمرد ، وهكذا تسببت في تعطيل سياسة الدولة العثمانية كثيراً .

ومما لا شك فيه أن هذه الأمور جميعاً نتج عنها زيادة امتيازاتهم وجعلهم يضعون أنفسهم مكان أهل الحل والربط ، وصاروا يتحكموا في السلاطين كما لو كانوا عرائس رقعة شطرنج . (١)

ويبدو أن نفوذهم هذا لم يأت من فراغ ، فقد أعطاهم السلاطين الهيبة والنفوذ والقوة حتى يكونوا مطيعين لهم حماة للدين الإسلامي والدولة العثمانية ، لكن الصورة انقلبت وأصبح السلاطين يحتاجون لمن يحميهم من الإنكشارية ، إضافة إلى أن العقليّة العسكرية كانت قد سيطرت عليهم تماماً ، فنسوا وظيفتهم الأساسية وهي الحرب والجهاد . وكانوا إذا أنسوا من السلطان الضعف مارسوا الفساد . (٢) وهذا يرجع إلى أن الإنكشارية ظلت حريصة دائماً على صبغ تصرفاتها بصبغة الشرعية ، فكانوا دائماً يحافظون على علاقتهم مع العلماء وشيوخ الإسلام ، حتى وإن أصابها الضعف في بعض الأحيان .

(١) خليفة محمود : تاريخ الملوك الألبا ، د. ط ، د. ت ، د. م ، ص ١٧٨ . عبد الوهاب بكر : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

(٢) حسين كمال البغدادي القنادي : الدر المصان في أيام دولة آل عثمان ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، محفوظة تحت رقم ٤٤١٦٧ ، ورقة ٥٥ .

وكان لزيادة نفوذ الإنكشارية أثر سلبي على الدولة ، حيث لم يكن السلاطين قادرين على القيام بأي حركة إصلاح دون جس نبض هاتين القوتين أي الإنكشارية كقوة أولى وشيوخ الإسلام والعلماء مع ضمان مساعداتهم أو على الأقل عدم اعتراضها ، فكانوا المتحكمين في الأوضاع ، بعد أن كانت الإنكشارية في الماضي هي عماد الدولة وقوتها، وصارت مع مرور الوقت مصدراً للفساد والضعف والصراع والتنافس ، مما أدى إلى توقف فتوحات الدولة العثمانية ، ووجدت الدولة نفسها عارية دون أي غطاء للحماية سواء من الداخل أو الخارج . (١)

ومما يدل على ضعف شخصية السلطان أمام تصرف الإنكشارية أنه في حالة فتح الجيش لمدينة تكون هناك في العادة اتفاقية أو هدنة تتضمن شروط التسليم ، وكان من ضمنها المحافظة على أرواح أهالي المدينة وأموالهم وأعراضهم ، ولكن الإنكشارية لا تعبأ بشروط التسليم ، وتمارس أعمال السلب والنهب وقتل الأهالي ، إضافة إلى هتك الأعراض وإحراق المنازل والحواريات . أما داخل إستانبول فلم تكن الحالة أفضل، فقد كانت حركات عصيانهم تحمل في طياتها معنى التحدي للسلطان والدولة نفسها ، فكثيراً ما تعرضوا لموكب السلطان ومنعه من الوصول للقصر السلطاني ، مطالبين بمزيد من العطايا والامتيازات ، وكانت هذه وسائل بعيدة كل البعد عن الانضباط العسكري . (٢)

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٢ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

وفي نفس الوقت زاد تسلطهم على أهالي البلاد التي تحت الحكم العثماني ، فقد أمتد طغيانهم إلى الأهالي الآمنين في المدن ، وزادوا في نهب وسلب منازلهم ، وتعدوا على أرواح الناس دون وجه حق ، وإذا أرادوا نهب أحد أحياء المدينة ، عمدوا إلى إشعال النار فيه ، فإذا ما ارتفعت ألسنة اللهب ، وانشغل الأهالي بإطفاء النار ، سارعوا إلى الأحياء الأخرى وقاموا بنهب منازلها وحوالياتها (*) ، وانتهكوا حرمة البيوت . وقد وصل بهم الأمر إلى أنهم اعتقدوا أن كل شيء مباحاً لهم في التعدي على الصدر الأعظم ومهاجمة قصره ، إذا تباطأ في تنفيذ رغباتهم . (١)

أما موقفهم داخل ساحة المعركة ، فيكفي أن نذكر أن الإنكشارية كانوا يكافئون بقدر عدد رؤوس القتلى ، فصار هم جندي الإنكشارية في حالة الانتصار ، جمع أكبر عدد من رؤوس القتلى الأعداء ، وسرعة تسليمها للقائد العام في خيمته من أجل الحصول على المكافأة . (٢) وهذا يكشف بأن عهد الجهاد والدفاع عن الإسلام في الفترة المتأخرة لم يكن هو الصفة الغالبة على معنويات الجند الإنكشاري ، فحل محل ذلك الأطماع الشخصية والأهداف المادية ، مما حقق لأعداء الدولة العثمانية النصر في عدة جبهات .

(٢) وقد ركزت الإنكشارية في هجماتها على محلات اليهود ، ونهب بضائعهم وربما ذلك يعود إلى كره الإنكشارية لليهود ، خاصة وأن لليهود دور كبير في فساد العملة وإنخفاض قيمتها : عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٩٦ .

(١) مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ . محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٢١٤ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي ، حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٨ .

أضف إلى أن زيادة عدد الإنكشارية وانتقال هذه الأعداد إلى إستانبول زاد من تمردهم بحيث أصبح رؤسائهم يحققون كل ما يشاءون من السلاطين لا سيما إذا كان السلطان على قدر من ضعف الشخصية.

وبهذا التحول الخطير أصبحت الإنكشارية هيئة عسكرية وراثية ، وليست هيئة جنودها مختارين على أساس المهارة والمقدرة الحربية . (١) (*)

ومع مرور الأيام ازدادت أعداد الإنكشارية حتى صار أبناء الجنود الإنكشارية يدخلون فيها دون اعتبار للقدرة العسكرية وبحلول عهد مراد الثالث الذي يعتبر عهده نقطة تحول خطيرة في الأسس التي قامت عليها الإنكشارية ، فقد انضم كثير من الأهالي وعامة الناس إلى الجيش الإنكشارية (٢) بموافقة من السلطان (**) مراد الثالث ، على الرغم من رفض فرهاد باشا آغا الإنكشارية الموافقة على انضمام أولئك الذين ليس لهم دراية وخبرة عسكرية إلا أن

(١) بيرى أندرسون : مرجع سابق ، ص ٣١ . محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٧٩ .

(٢) لقد ذكر بيرى أندرسون أن الإنكشارية أنتزعت من سليم الثاني حق إلحاق أبنائهم في أفواج الإنكشارية على الرغم أنه في ذلك الوقت لم يسمح لهم بزواج وإنجاب الأبناء ، وهذا يدل على أن هذه المعلومة دسيسة أدخلت لتشويه فترة سليم الثاني ، حيث كان جميع جنود الإنكشارية في ذلك الوقت أطفال دوشرمة ، أي لم يتزوجوا ولم ينجبوا الأبناء.

(٢) عبدالكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

(**) حيث حدث ذات مرة أن قام فئة بالعباب بهلوانية في حفل ختان الأمير محمد بن مراد الثالث ، أعجب الناس بما قدموه من فقرات حتى أن السلطان سألهم بعد نهاية الحفل عما يتمنون فطلبوا الانضمام إلى الإنكشارية فوافق السلطان على ذلك وأصبحت هذه عادة جارية . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٠ .

السلطان وافق على انضمامهم وتم عزل فرهاد باشا من منصبه ، وعين بدلاً منه يوسف آغا الذي فتح الباب لكثيرين منه وخاصة اليهود ، الذين أحبوا الاختباء في صفوف الإنكشارية لزرع الفساد بين الجنود ، وهكذا صارت الإنكشارية مثل الجهاز الأجنبي داخل الدولة العثمانية يعمل على إفساد أمورها . (١)

وقد قصد هؤلاء بنسبتهم إلى الإنكشارية التتصل من التكاليف التي تقتضيها سياسة الدولة والوصول إلى حرية مطلقة في أعمالهم ، ولم يدركوا أن الوظيفة الأساسية للإنكشارية هي الخروج للجهاد عند اقتضاء الحاجة . وبالتالي لم يخرج هؤلاء للحرب إذا ما نودي للجهاد ، وإذا خرج منهم البعض لا يكون إلا عدداً بسيطاً ، ويتحججوا بأن البقية سيحضرون من الروم إيلي والأناضول ، والقانون كان يوجب أن يخرج مائة وعشرون تحت كل لواء ، ولكن عددهم لم يتجاوز الثلاثين وقد يصل إلى الستين . (٢)

إضافة إلى أولئك أنضم إليهم الأرمني والرومي والإفرنجي والذين اتصفوا بالصوصية وعدم الحياء ، ومتهمون بعبادة الدين ، فقد أفسدوا كل شيء ، فهم بمثابة جواسيس على الدولة . وأفعالهم تضر بالدولة رويداً رويداً ، فروسيا في مقدمة الدول التي سعت

(١) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : لواء الإنكشارية من تشكيلات الدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، أنقرة : نشر مجمع التاريخ التركي ، ١٩٨٤ م ، ص ٤٨٢ . سليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص ١٩-٢٠ .

(٢) أحمد جودت : مصدر سابق ، ص ١٨٢ .

لإضعاف هذه الفرقة بالذات. (*) (١)

كان لزيادة أعداد الإنكشارية أثره في عجز الخزينة عن القيام بنفقاتهم أيام السلم ، مما أدى إلى العصيان والفساد ، ووقوع الفتن بينهم ، فصاروا علة لحصول التنافر ، والشقاق ، وباعثاً على ظهور المفاسد والمكائد العديدة حتى أيام السلم . (٢) ففي عهد السلطان مراد الرابع ، ضعفت الإنكشارية والدوشرمة على حد سواء نتيجة لزيادة أعدادها بشكل كبير ، ونتيجة للإمتيازات التقليدية والإعفاء من الضرائب ، زاد الإقبال على الانخراط في صفوف الإنكشارية ، خاصة من السكان المسلمين ، ونتيجة لاضطراب الأمن الداخلي في فترة تمردات فرقة الجاللية ، انتشرت الحاميات الإنكشارية في جميع أنحاء الدولة لأغراض حفظ الأمن الداخلي ، وعلى ذلك فمنذ أواسط القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، ونتيجة لإشغالهم بالحرف والزراعة، فقدوا قيمتهم العسكرية وصارت مهمتهم الأساسية القيام بالتمردات في العاصمة . (٣)

وهذا ما جعل السلاطين يتبعون سياسة خفض أعدادهم ، وإضعافهم نظراً للسطوة التي بلغوها ، والتي كانت كثيراً ما تهدد

(٢) كانت روسيا تهدف إلى الوصول بجيوشها صوب البحار الدافئة ، ولكن الجيش العثماني كان يقف لها بالمرصاد ، فكانت تحاول دائماً وأبداً العمل على إضعاف هذا الجيش ، حتى يتسنى لها الزحف دخول الغرب والجنوب الغربي، وخير دليل على ذلك ، عندما قام قيصر روسيا بترو الأول بإرسال أول سفير لروسيا في ستانبول عام ١٧٠٠م ، وأعطى له تعليمات بأن يستمر في مراقبة الجيش والعمل على إضعافه .

(١) سليمان قوجه باشي : مرجع سابق ، ص ٢٠ .

(٢) أحمد جودت : ورقه ١١٠ .

(٣) بيرى أندرسون : مرجع سابق ، ص ٣١ .

مصير السلاطين أنفسهم ، وقد اعتمد السلاطين على ما يمكن تعبئته من الرجال المتطوعين ، وعلى الذين يتطوعون من الأقاليم التي تحت حكمهم ، ومن الجند غير النظاميين الذين لا يتقاضون أجراً إلا عن الفترة التي يستخدمون خلالها في القتال، وذلك للتعويض عن النقص المتعمد في أعداد الإنكشارية ، ورغم أن هذه السياسة أدت إلى إستقرار داخلي في الدولة العثمانية وإلى التقليل في نفقات الجيش ، إلا أنها كانت سيئة بالنسبة إلى حروب الدولة ، وخاصة في حربها التي خاضتها بعد ذلك بوقت ضد روسيا عام ١٢٩٤هـ - ١٢٩٥هـ / ١٨٧٧م - ١٨٧٨م . إذ حرمت من أعظم جيوشها، وأشدّها بطشاً ، وأقواها ، وأمهرها في القتال . (١)

وكانت روسيا من ألد أعداء الدولة العثمانية ، وسعت جاهدة لإضعاف الدولة العثمانية ومن ثم سقوطها .

ونتيجة لاختلال الرقابة عليهم ، فقد أنضم للإنكشارية كثير من المسلمين الأمراء للتمتع بامتيازاتهم ، وهؤلاء صاروا يتدخلون في السلطة بعقول عسكرية واهية ، فخرّبوا سياسة الدولة ، وأصبحوا بحاجة إلى جيش للتخلص منهم . (٢) كما أخذ أعداد المتزوجين تزداد في صفوف الإنكشارية الأمر الذي أدى إلى إقامة هؤلاء في منازلهم بدلاً من الثكنات العسكرية . (٣)

وبحلول القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي

(١) ياسين سويد : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩٢ .

(٢) علي سلطان : مرجع سابق ، ص ٢٥ .

(٣) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٤٧١ .

سمح لعدد كبير من المتطوعين بتسجيل أسمائهم فقط ليس بقصد الحصول على عمل أو أجر، ولكن كأصدقاء مخلصين ، سعوا لنيل شرف حمل لقب إنكشاري ، وفي هذه الفترة تساوى المسلم والمسيحي في هذا الشأن ، وكان هذا يعتبر نقطة تحول جديدة خطيرة في الأسس التي قامت عليها الإنكشارية .^(١) وفي محاولة لخفض أعدادهم البالغ ٧٠ ألف إلى النصف أصدر فرمان يقضي بطرد الدخلاء على الإنكشارية .^(٢)

لقد اختصرت الإنكشارية منذ نشأتها على الأطفال الأيتام المسيحيين ولم يدخلها الأطفال المسلمون ، ودخول المسلمين بها هذا معناه فسادها ، فقد يتعالى المسلمون الذين لديهم نسب على جنود الإنكشارية الآخرين ، فيحدث خلافات داخلية مما ينتج خلخلة في النظام العام للإنكشارية .

كما أسهم إهمال الدوشرمة في فساد الإنكشارية وتمردهم بشكل كبير ، فقد أهمل السلاطين هذا الجهاز المهم بالتدريج ، وقد أبطلت في حوالي القرن الحادي عشر الهجري منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وبإبطالة نضب المورد الرئيسي الذي كان يجمع الأطفال المشردين من بلاد البلقان ، والذين كانوا يخضعوا لتدريب إسلامي ليصبحوا جنود إنكشارية أو موظفين إداريين .^(٣)

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٥٢-٥٣ .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء : دفاتر مهمة . دفتر ١١١ ص ٦١٧ .

(٣) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦م - ١٩١٦م ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٧٤م ، ص ١٢٠ .

وهذا الأمر يعني انضمام أفراد للإنكشارية أكبر من السن المطلوب، فلا يخضعوا للتدريبات العسكرية اللازمة ، مما يجعل الفشل والفساد والتمرد مقروناً بأدائهم .

وإضافة على هذا البلاء سمحت الإنكشارية بدخول أصحاب الحرف والصناعة في صفوف الإنكشارية بالرشوة ، ^(١) ثم سمحت لهم بممارسة حرفهم أو الاشتغال بالتجارة ^(٢) في أوقات السلم ، ولم يسمح لهم بحمل أسلحتهم في أوقات السلم خوفاً من قيامهم بحركات عصيان. ^(٣) ويعتبر مثل هذا العمل كسراً للأسس التي تكون الجيش الإنكشاري ، مما أسهم في هبوط المستوى الحربي والقتالي للجيش الإنكشاري وكذلك ضعف روح الجهاد ضد أعداء الأمة الإسلامية .

وقد اعتمد أصحاب الحرف في دخولهم إلى صفوف الإنكشارية على واقعة حدثت في عهد السلطان سليمان القانوني عندما أمر الصدر الأعظم وقائد الجيش بدخول بعض العناصر الأجنبية عن الإنكشارية إليها، لكن نجد أن العذر في ذلك يرجع إلى أن الفتوحات الإسلامية في عهد سليمان القانوني كانت على أشدها ، لذلك احتاج إلى عدد كبير من الرجال الأشداء ، فأدخل حوالي اثني عشر ألفاً ، ثم ألغى ذلك القانون لاحقاً ، ودخل هذه العناصر إلى الإنكشارية دون تدريبهم على أكمل وجه ، ومع الإنكشارية

(١) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية : مادة بني تشري ، د. ط ، ١٩٨٦ م ، إستانبول ، ص ٤٦ .

إسماعيل حقي أوزون مرجع سابق ، ص ٤٧١ .

(٢) أدى هذا الأمر إلى نتائج مهمة سيتم ذكرها في الأسباب الاقتصادية .

(٣) محمد سهيل طقوش ، مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

القدامى ، آثار كثير من البلبلة والشغب والأعمال القبيحة .^(١)
كما دخل في الإنكشارية الفلاحون الذين يجهلون أمور الحرب
والانتظام في صفوف الجيش ، وكانت النتيجة أنه في حالة سفرهم
إلى دار الحرب يعيشون فساداً ، ويهتكون الأعراض في كل مكان
مروا به ، إضافة إلى أنهم لا يثبتون في أرض المعركة ، ويفرون
مع سماع إطلاق المدافع ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل
يقومون بنهب موجودات المعسكر ويولون هرباً .^(٢)

ففي أثناء الحروب بلغت أعداد الإنكشارية ٥٤,٢٢٢ رجلاً .
ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن عدداً كبيراً منهم أضيفت
أسمائهم إلى اللائحة بهدف الحصول على الرواتب ، وإذا لم
يتقاضوا شيئاً ، اكتفوا بالإعفاء من الضرائب ، وفي المقابل كانوا
على استعداد تام للقيام بأي ثورات وعصيان ضد السلطان ، ومع
مرور الأيام ازدادت أعطياتهم^(*) تضاعفاً فأضطروا إلى الإعتماد
على رواتبهم .^(٣)

ويبدو واضحاً أن هذا الخليط من الجنود غير المتجانس هم
الذين شوهوا صورة الإنكشارية وأدخلوا المفاهيم الفاسدة على

(١) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص ٤٨٢ .

(٢) أحمد جودت : مصدر سابق ، ص ١٨٢ .

(*) ذكر أيضاً أنهم التحقوا بخدمة السفراء الأجانب في إستانبول ، لكن يبدو أن هذا من باب تشويه
تاريخ الإنكشارية وأنه لم يثبت قطعاً هذا الأمر ، أنظر كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص ٤٦٧ .

(٣) مرجع سابق ، ص ٤٦٦ .

أذهانهم حتى أصبحوا عنصر فساد (*)، فهم لم ينتموا للجيل الأول ولم يتلقوا التدريبات اللازمة ، ولم يفهموا معنى أن يكون الرجل جندي إنكشاري .

وبتزايد حروب الدولة العثمانية تزايد جمع الجنود من أهالي القرى ولإرسالهم إلى أدرنه لتأدية التدريبات العسكرية اللازمة حسب أصول الإنكشارية .

وبالتالي تصرف لهؤلاء رواتب مقدماً .^(١) مما أدى إلى تكليف خزانة الدولة فوق طاقتها ، إضافة إلى مصروفات إعداد هذه الجيوش لخوض المعركة .

وجاءت زيادة عدد الإنكشارية نتيجة لدخول الجنود الذين جمعوا من القرى إضافة إلى الذين يسجلون أسمائهم في دفاتر الأحوال الخاصة بالعسكرية بإعطاء الرشوة للموظف المسؤول ليقيدهم بلقب حارس أو محافظ على الفرقة ، ويبدو أن مرتبات هؤلاء كانت تتراوح ما بين اثني عشر وخمسة عشر أقة ، وقد تصل في بعض الأحيان إلى عشرين أقة ، وهذا يعني أن هذا المرتب الزائد ينعكس على المعاش الذي يحصلون عليه بعد تقاعدهم، فكلما زاد المرتب ، زاد التقاعد .^(٢)

(*) وقد أشارت إلى هذا الفساد ودخول الكثير إلى صفوف الإنكشارية كثير من الكتب التي أرخت لتلك الفترة، من أمثلة ذلك كتاب قوانين الإنكشارية وكتاب " الكتاب المستتاب " لمصطفى أفندي وهو مصدر موثق . أنظر إسماعيل حقي أوزن جارشيل : مرجع سابق ، ص ٤٧٧ .

(١) أرشيف رئاسة الوزراء أستانبول وثيقة رقم ٨٢٦٥ خط همايوني HH .

(٢) محمد عبد اللطيف البجراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٥١ . إسماعيل حقي أوزون جاريشل : مرجع سابق ، ص ٤٨٠ .

وكانت هذه الزيادة في العدد تخالف القانون القديم للإنكشارية ، فقد كان عدد الإنكشارية قديماً اثني عشر ألف ، جميعهم قادرين على الحرب ، ثم أصبح سبعة آلاف جندي منهم ضباط متقاعدين ، مع وجود ما يقرب ألف جريح في المعارك ، وكان أغلب المسجلين أسماءهم بالرشوة لا يخرجون للجهاد على الرغم من قدرتهم على ذلك ، وقد استحدثت الإنكشارية جنود جدد أطلق عليهم حراس الفرق والوحدات وكان هؤلاء يزيد عددهم عن ألف شخص . (١) (*)

صار عدد الإنكشارية يزيد عن مئة وخمسة وثلاثين ألف جندي ، وهذا العدد كان ينقص بشكل غريب في حالة الحرب ، فقد كان مائة وعشرين ألفاً منهم مسجل في دفتر الأحوال العسكرية ، قادرين على الخروج للجهاد ، وحتى هذا العدد كان ينقص من كثرة الالتماسات التي يقدمونها للسلطان حتى لا يخرجوا للحرب ، أما باقي العدد فكان يسجل نفسه متقاعد ، للحصول على الراتب فقط أو حارس في الوحدات أو القلاع . (٢) وما يتبقى من العشرين ألفاً ، لا يصمدون في ساحة المعركة ، وتحل بهم الهزيمة أو يفروا من أمام العدو ، ولتغطية سوء تصرفهم يقومون بالثورات أو نشر

(١) وقد سخر المؤرخ الذي نقل هذه المعطومة وهو مصطفى أفندي حيث وضع كتاب عن فساد نظام الإنكشارية .

حيث قال " إن الإنكشارية في الماضي لم يكن بها هذا اللفظ وهو حارس الوحدة أو الفرقة ، أما الآن فيوجد ما يقرب من ألف شخص في لواء الإنكشارية يعرفون بهذا الاسم ، ولست أعلم أي شيء يحرسون هؤلاء الجنود ، هل يحرسون الحجارة والحوائط ؟

(١) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص ٤٨٠ .

(٢) مرجع سابق ، ص ٤٨١ .

الإشاعات بين أفراد العامة ، مرددين أن القادة باعوهم للأعداء الكفار . (١)

وأصبح هناك معاشات لأشخاص لا وظيفة لهم إلا الدعاء ، وهذه الوظيفة تباع وتشترى ، ووظيفة الدعاء أطلقوا عليها اسم وظيفة الأسامي، وإذا حصل أحد جنود الإنكشارية على سبعة أقجايات من وظيفة الأسامي ، يرى نفسه أكثر راحة من وزراء الدولة . (٢) وكان العشر منهم في الوجاق ، والباقي أتباع للكبراء من البلاط والعلماء (٣)

ولم يقتصر أمر ازدياد عدد الإنكشارية على إستانبول فقط ، بل تعداه إلى الأقاليم ، فإذا أخذنا دمشق وحلب ، على سبيل المثال ، نجد أن الإنكشارية عانت من نفس أسباب الفساد ، مما ساعد على انحطاط مستواها وأداءها بشكل كبير ، وقد زادت إنكشارية دمشق وحلب بممارسة ابتزاز الأموال من الأهالي بسبب قدرتهم على فعل ذلك . (٤)

وعلى الرغم من ذلك ، فإن جنود الإنكشارية في وقت الحرب كانوا يمثلون درعاً قوياً كالقلعة الحصينة أمام السلطان حتى لا يصل الأعداء إليه ، وذلك لأن ارتباطهم بالسلطان كان أقوى ارتباط لديهم ، حتى أنهم كانوا بمثابة أذرع للسلطان، لأنهم اعتبروا

(١) ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص ٤٨ .

(٢) أحمد جودت : مصدر سابق ، ص ١٩٥ .

(٣) أحمد جودت : تاريخ جودت ورقة ١٠٨ .

(٤) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

السلطان واحداً منهم ، فقد نظروا إليه على أنه قائد الجيش ، وأبوهم في نفس الوقت ، وكان بعض أفراد الإنكشارية يتعلمون بعض التعاليم العسكرية الخاصة بالأمن حتى يكونان بمثابة الحراس الخاصين بالسلطان في القصر ، هذه الروح التي تربي عليها أفراد الإنكشارية جعلتهم أشخاص يخاف الناس منهم طوال الوقت . (١)

وينبغي لنا أن لا نغفل نقطة مهمة في مسألة إزدياد عدد الإنكشارية، فإن هذا قد كلف الدولة مبالغ طائلة من الأموال لتسليم هؤلاء رواتبهم على أعمال حربية لا يقومون بها .

وهكذا يتضح لنا أن الإنكشارية لعبت دوراً مهماً في تاريخ ومصير الدولة العثمانية ، لأنهم صاروا مسؤولين عن نقطتين في غاية الأهمية وهما : تحديد مسار الفتوحات ومدى استمرارها ، وتحديد من سيجلس على العرش العثماني من أسرة آل عثمان ، كما كانوا هم أصحاب الكلمة في الدولة في الفترة التي يكون فيها العرش العثماني خالياً أي بعد وفاة أحد السلاطين وحتى مجيء غيره . (٢)

وكثيراً ما قاموا أثناء ذلك بفتن وتمردات داخل القصر السلطاني ، بسبب غياب السلطان القوي وسوء التدبير والظلم ساعد على إظهار تمردهم . (٣)

أما بالنسبة للأسباب الاقتصادية ، فقد تركزت في ضعف دخلهم المادي ، مما نتج عنه ثورات وتمردات ، إضافة إلى التعسف

(١) ألبرت هوبيرلير : مرجع سابق ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٢) مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٣) حسين كمال البغدادي القادري : ورقة ٢١ .

في جمع الضرائب ، وابتزاز أموال الأهالي .
لقد كانت الدولة العثمانية تعاني كثيراً من انخفاض قيمة العملة عند شراء أي سلعة ، لأن العملة أساساً مغشوشة ، وذلك لأن مصانع سك النقود تحت سيطرة اليهود ، فهم من يقوم بالغش في قيمة العملة الواحدة وبالتالي كانت تدفع الرواتب للإنكشارية من عملات يدخل في صلبها بعض المعادن البخسة الثمن وخفيفة الوزن ، وبالتالي ترفضها الحوانيت ولا يتعامل معها التجار ، لذلك كانت الإنكشارية تتور وتتجمهر حول القصر السلطاني مطالبين بنقودهم الصحيحة ، ولا يبرحوا مكانهم حتى يلقي لهم السلطان أكياس مليئة بالنقود في ساحة القصر الخارجية ، أو يذاع عليهم أن يذهبوا لإبدال نقودهم بأخرى صحيحة ، أو يحكموا بالموت على من ضربها ، حتى ولو فعل ذلك طوعاً لأوامر صدرت له.^(١) مما ساعد في زيادة تمرداتهم وزيادة الفجوة بين السلاطين والإنكشارية .

وبهذا يتضح أن اليهود ساعدوا على زيادة كميات الأعطيات التي تصرف للإنكشارية لتحكمهم بقيمة العملة ، إذ وصلت أحياناً عملة البرقية - إحدى العملات المستخدمة - إلى خمسمئة أقجة أو ألف أقجة من التداول في الأسواق .^(٢) وقد خفضوا قيمة العملة وزادوا سعر الأوقية^(*) الفضية ، كما أنهم كانوا يرشون قائد الجيش

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٠ . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٤٢ . للإستزادة

الرجوع إلى سليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) كامل باشا : مصدر سابق ، ص ٢٩٩ .

(*) الأوقية : هي وحدة من الموازين توزن بها العطور والبهارات ، والفضة والذهب وكانت تستخدم في ما مضى واستبدلت في الوقت الحالي بالجرام .

بأموال صحيحة حتى يوزع على الإنكشارية نقود ضعيفة القيمة.^(١)

وبهذا العمل ساعدوا على إشعال الفتنة عند الإنكشارية وهذا يعني أيضاً أن اليهود كانوا يتدخلون بشكل كبير في الاقتصاد العثماني ، خاصة سك العملة ، وذلك لتنفيذ مخططهم في إضعاف اقتصاد ومالية الدولة العثمانية ، إضافة إلى إضعاف أقوى فرقة في الجيش العثماني وهي الإنكشارية ، حتى يتسنى لليهود القضاء على الدولة العثمانية واقتسام أراضيها وخاصة القدس . كذلك كان اليهود أغنياء ، ولهم نفوذ في الحياة العثمانية واستطاعوا بغناهم هذا أن يوجدوا علاقة وثيقة مع الإنكشارية على الرغم مما شاب هذه العلاقة من صراع ، إلا أن اليهود بقوا المسيطرين إلى حد كبير على إمداد وتموين الإنكشارية بكافة مستلزماتها ، وكان القضاء على الإنكشارية عام ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م ضربة قوية للمصلحة اليهودية في إستانبول وغيرها من الولايات العربية .^(٢)

لقد أثر انخفاض العملة وتخطبها على سلوك الإنكشارية ، فقد كان دينار الذهب السلطاني وزنه درهم وقيراطان ، واحد منه يساوي ستين عثمانياً في أوروبا ، وفي مصر بثمانين عثمانياً ، وفي اليمن بثلاثمائة عثماني ، واستمر في الارتفاع حتى وصل الدينار الذهب بألفين من العثمانية ، وكانت علوفة الجندي الإنكشاري تبدأ من عشرة عثمانة ، حتى تصل إلى مائة عثماني ، ومن له هذا

^(١) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص ٤٥ . سليمان قوجسه باشي : مصدر سابق ص ١٦ .

^(٢) أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ،

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، ص ٢٠٥ .

المبلغ في كل يوم ، يأخذ في الشهر ثلاثة آلاف عثماني ؛ فيصرف له من الديوان عن الثلاثة آلاف عثمانية دينار واحد ونصف ، وكان هذا المبلغ لا يفي بثمان فنجان القهوة التي يشربها، إضافة إلى باقي حوائجه ^(١) وهذا يعني أن سعر العملة لا يكفي لشراء أي سلعة بالراتب الذي يتقاضاه جندي الإنكشارية . مما أدى إلى ثورة الإنكشارية وتمردهم على السلطان ، والمطالبة باستمرار بزيادة الأعطيات . وهذا جعل الإنكشارية أيضاً جنوداً فقراء ، وفي وقت السلم بلا مسؤولية وبلا عمل ، حتى أنهم بذلك مثلوا خطراً كبيراً على الدولة ، ففي أي وقت كانوا يقومون بنهب منازل الأهالي حتى أن السلطان في بعض الأحيان كان يطالب أغا الإنكشارية بإعادة هذه الأموال وإضرار النار فيها ، وقد وصل الأمر إلى نهب بيت الصدر الأعظم نفسه . ^(٢) فقد ظلموا الأهالي واستولوا على أموالهم وابتزروهم وذلك لضيق معاشهم دون وجه حق ، وكان السلاطين والولاة يتغافلون عن أعمالهم ، لعلمهم بقوة الإنكشارية ، حتى استبدوا بالرعية تماماً وأنهكوها . ^(٣)

ولكثرة عدد الإنكشارية جعل الخزينة تعجز عن القيام بنفقات الجند في أيام السلم ، أضف إلى ذلك فراغ خزينة الدولة في أحياناً كثيرة ، نظراً لكثرة حروب الدولة العثمانية ، وكذلك زيادة

^(١) كامل باشا : مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ٨١ . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٥ ، نقلاً عن قطب الدين المكي .

^(٢) أرشيف تسوب قابي سراي : تصنيف فرمان لر . رقم ٢٦/٩٢٨٧ E ، ألبرت هوبولير : مرجع سابق ، ص ٩٣ .

^(٣) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

مصروفات بعض السلاطين مما يؤدي إلى تأخير صرف رواتب الجند ، فيزيد ذلك من تمرد الإنكشارية وعصيانهم ، مما دفع بالدولة العثمانية إلى زيادة الرسوم الأميرية على الأهالي ، كما أدى فراغ الخزينة إلى وقوع كثير من الظلم والجور والاعتداء على الأهالي فكان ذلك سبباً في كراهيتهم للدولة العثمانية وجيشها . (١)

ولكثرة ما حملوا الخزينة فوق طاقتها كان السلطان يخرج مرتباتهم من خزينته الخاصة ، أو من بيت مال المسلمين ، وهذه تعتبر خيانة لقانون الخلافة ولبيت مال المسلمين (٢) كما أنهم في بعض الأحيان كانوا يصرفون لهم مواجب إضافية بسبب حراستهم للقلاع في بعض المناطق. (٣)

وكانت أعداد الإنكشارية المسجلة في الدفاتر كثيرة ، أغلبهم متقاعدين ، أو خدم وأتباع لا يخرجون للحرب أصلاً ، حتى أنهم لا يصلحوا للقيام بأعمال الحفارة في الشوارع والطرق ، ونتيجة لهذه الأعداد كانت الدولة تعجز عن صرف رواتبهم (٤) وبالتالي تقوم بفرض ضرائب جديدة، على الأهالي المثقلين بالديون ، ويتم جمعها بتعسف وشدة من قبل جندي الإنكشارية ، الذي صار مع

(١) أحمد جودت : مصدر سابق ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٠ . حسين كمال البغدادي القادري . ورقة ٢١ .

(٢) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص ٤٨٠ ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص ٤٧، ٤٨ .

(٣) أرشيف توب قابي سراي أستانبول : ٩٢٩٦ / ٢٩ E فرمان لار ، ١٨٨٧ E ، ٩٢٨٤ / ٢ E .

(٤) أحمد جودت : مصدر سابق ، ص ١٨١ .

مرور الزمن مجرد رجل يجوب الشوارع لجمع الأموال ، وكان هذا أبلغ تشويه لصورتهم .

نذكر على سبيل المثال أنه أثناء تولي محمد الثاني الحكم للمرة الأولى وهو صغير السن في عهد مراد الثاني ، استغل جباة الأموال وكبار رجال الدولة الوضع ونهبوا أموال الخزينة ، وحرمت الإنكشارية من رواتبهم ، وكان هذا بالطبع أحد الأسباب التي أدت إلى ثورتهم وتمردهم ، فاضطربت الأمور في أدرنة ، وسالت الدماء ، حتى تضرر الناس وضجوا ، وناشدوا مراد الثاني بالعودة للعرش . (١)

كما أن أفراد الإنكشارية الأقوياء ضعفت همهم ، بسبب أن مرتبات خدم القصر تزيد عن رواتبهم ثلاثة أضعاف ، وهو من يتحمل مشاق البرد وحفر المتاريس وتعرضهم للجراح والعاهات ، مما أثر على نفوسهم وضعف همهم أثناء الحرب والجهاد . (٢)

وإذا أخذنا اليمن كمثال لتسلط الإنكشارية على الأهالي نجد أن ابتزاز أموال الأهالي لم ينفذ وضعهم المادي ، إذ لجأوا إلى بيع متاعهم وأسلحتهم وثيابهم الرسمية ، زاد عددهم مع ازدياد فقرهم ، إلى أن استولى الزيديين على بلاد اليمن ، حيث ردت الإنكشارية على الضائقة المالية ، ليس بالتمرد أو الاستئثار بالحكم ، بل بلجوتهم بسبب ضعفهم إلى الإمام مطهر الزيدي ، والذي استفاد من ذلك لإعلان التمرد على العثمانيين . (٣)(*)

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٠ ، محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٢) أحمد جودت : تحقيق عبد اللطيف الحميد ، ص ١٩٥ .

(٣) لقد لجأوا إلى أعداء الدولة العثمانية الزيدية ، والذين استغلوا الوضع وأعلنوا الثورة على الدولة العثمانية ، أما الجنود الذين بقوا مواليين للعثمانيين كانوا في زييد وعدن ، فحاصروهم الزيديون ، وقد تمكن سنان باشا في الفترة ما بين ٩٧٧هـ - ٩٧٨هـ / ١٥٦٩م - ١٥٧١م من إخضاعهم ، وعمل =

كما أن انتشار القحط والطاعون ، أدى إلى ارتفاع أسعار الحبوب في بلاد الشام ، ومن ثم ارتفاع ثمن الخبز إلى حد كبير ^(*) ، ولم تنفع جهود الدولة في استيراد القمح من مصر وقبرص ، إذ أنه سرعان ما زاد ارتفاع الأسعار ، بسبب جشع التجار وأصحاب الأفران ، والذين ساهموا بشكل كبير في تفاقم هذه الأزمة ، ولم تفلح جهود الدولة في القضاء على هذه الأزمة بالقضاء على جشع التجار لأن الجنور كانت أعمق من ذلك بكثير . ولضيق ذات اليد وارتفاع الأسعار ، لم يكن يستمعوا إلى أوامر السلطان أو قائد الجيش العام ، بعدم التعرض لأهالي المدن المفتوحة ، فقد كان الأهالي لا يستطيعون التصدي لهم أو لأعمالهم التخريبية حتى أنهم عند وفاة أي سلطان يستغلوا فترة فراغ العرش حتى صعود السلطان الجديد، في القيام بنهب المدينة وابتزاز أهالي إستانبول.^(١)

لقد كان أفراد الإنكشارية عماد الجيش ، وكان لتربيتهم الإسلامية العسكرية التي نشأوا عليها أكبر الأثر في ذلك ، معنوياتهم مرتفعة ، وهمهم الإسلامية قوية جعلتهم لا يخوضون حرباً إلا وكان النصر حليفهم ، أسدوا للدولة خدمات عظيمة ، فكافأهم السلاطين على ذلك وأعطوهم امتيازات وإقطاعات زراعية فأرتبطوا بأراضيهم ، وما لبثوا بعد فترة أن تغيرت حياتهم فبدأوا

= على تحسين حال العساكر ، وتشجيعهم على البقاء في ولاء الدولة العثمانية ، وزاد في مرتباتهم وعطاياهم .

(*) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

(٢) استغرب من أسعاره الإخباري المعاصر ، شرف الدين موسى الأنصاري : مرجع سابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(١) ألبرت هوبلير : مرجع سابق ، ص ٩٣ .

يتخلفوا عن الخروج للحرب معللين ذلك بسبب البرد القارس ، وهم في الواقع يهدفون إلى حياة الدعة والراحة والاستقرار .^(١)

إن منحهم الأراضي الزراعية جعلهم يرتبطون بالأرض ويرفضون مغادرتها للاشتراك في الجهاد ، اختلطوا بالسكان ومالوا لحياة المدن ، وتخلقوا بأخلاق أهلها ، وفقدوا الهمة العسكرية .

ومما ساعد على هذا الأمر السماح لهم بمزاولة التجارة ، والبيع والشراء ، فاتسعت امتيازاتهم في المدن ، وقوى نفوذهم ، إضافة إلى أن ارتباطهم بالثكنات العسكرية قد خف أساساً ، فأصبحوا لا يذهبوا إلا لاستلام رواتبهم أو العلوفة والتي كانوا يبيعونها في أغلب الأحيان للحصول على العائد المادي .^(٢)

كان الاقتصاد العثماني شبه منهار ، والدولة العثمانية لم تكن تصنع أي مصنوعات خاصة بها تقريباً ، فُسمح للإنكشارية بالاستغلال في الحرب والصناعة ، وذلك بهدف إثراء الصناعات المحلية ولو قليلاً .^(٣)

هذا الأمر أدى إلى ضعف ارتباطهم بالثكنات العسكرية ، فلم يعد يذهبوا إليها إلا لتسلم الرواتب فقط ، لا للتدريب العسكري ، أو

^(١) محمود شاكر : مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١١١ ، ١١٢ . علي محمد الصلابي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار البيارق ، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م ، ص ٥٤٢ ، إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

^(٢) السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، د. ط ، القاهرة : المطبعة العالمية ، ص ١٥ . محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٥١ . محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٢١٤ .

^(٣) بييري أندرسون : مرجع سابق ، ص ٣٠ ، ٣١ .

المبيت فيها مما ساعد على ازدياد ارتباطهم بحياة المدينة ورفاهيتها وركونهم لحياة الحرفيين والصناع وليس حياة المجاهد في سبيل الله .

وقد ساعد أغوات الإنكشارية على فساد الفئة ، فقد كانوا يدفعون مقدار عشرة أيام أو عشرين يوماً ، من رواتبهم الشهرية لكبار رجال الدولة لشراء المناصب ، ولاستجلاب خواطرهم ونفسياتهم ، وإذا كان أغا الإنكشارية هذه أخلاقه ، فبالتالي لم يبق من رجال الإنكشارية رجال يعتمد عليهم .^(١) وكان لأغا الإنكشارية دور كبير في مساعدتهم على العصيان والتمرد ، وخدم أغراضهم ومصالحهم ، بهدف المحافظة على مناصبهم .^(٢)

إن نظام الإنكشارية أصبح للأسباب السابقة نظام ارتزاق ، فكان لكل جندي تذكرة يحصل بمقتضاها على مرتب " العلوفة " وفي بعض الأحيان كانت تعجز الدولة عن دفع مرتبات هؤلاء كما سبق ذكر ذلك، فكان الجندي يلجأ أحياناً إلى القوة للحصول عليها ، أو يلجأ إلى بيع هذه التذاكر لمن يدفع لهم قيمتها وبالتالي يصبح الشاري " جندي إنكشاري " وهذا جعل أسماء الكثير من عامة الشعب تدخل في قوائم الإنكشارية ، حتى أنه وجد أسماء سيدات ، وهؤلاء جميعاً قد اشتروا التذاكر للحصول على الامتيازات الخاصة بالإنكشارية ، وعامة الناس لا يمكن الاعتماد عليهم وقت الحرب ،

(١) أحمد جوندت : مصدر سابق ، ص ١٩٥ .

(٢) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص ٤٧٧ .

في حين أنهم يشكلون عبئاً اقتصادياً على الدولة.^(١)
أما عن الأسباب الاجتماعية فقد تركزت في السماح لهم
بالزواج وتكوين أسرة وتربية الأطفال ، مما حدا بهم الارتباط
بأسرهم وحياة المدينة إضافة إلى الرفاهية التي تسببت في زيادة
تكاليف معيشتهم ، حيث زادت متطلبات حياتهم اليومية إضافة إلى
ارتفاع في الأسعار وانخفاض في المعيشة .

وعندما تم دخول عدد كبير من المسلمين في الإنكشارية ، في
عهد مراد الثالث أي أواخر القرن السادس عشر الميلادي ترتب
على ذلك إلغاء الحظر المفروض عليهم بعدم الزواج ، فأصبح لهم
أسر وانشغلوا بمشاكل الحياة اليومية والزوجية ، وهذا بالتالي أدى
إلى تقاعسهم عن الخروج للحرب ، وضعف الاستعداد الحربي
لديهم .^(٢) وفي الماضي لم يكن يسمح لهم بالزواج خوفاً من أن
الروابط الأسرية قد تؤدي إلى تقاعسهم عن الجهاد وتجعلهم يعيشون
خارج تكتاتهم ويخف ارتباطهم بها.^(٣)

والحقيقة أن هناك تساؤل عن مدى صحة قرار العثمانيين
بتحريم الزواج على الجند الإنكشارية ، بحجة أن ذلك سيكون عائفاً
لهم بالانصراف عن أعمال الجندية والاستماتة في القتال ، ولكن
يوجد لدينا في التاريخ الإسلامي مثال في صحابة رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، إذ أنهم كانوا متزوجين ولديهم الأبناء ، ولم

(١) خلف الونيناني : مرجع سابق ، ص ١٦٦ .

(٢) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

(٣) السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ١٥ .

يصرفهم ذلك عن تلبية نداء الجهاد في أي وقت ، كما أنهم كانوا يستमितون في ساحة القتال دفاعاً عن الإسلام ورفع رايته ولا يطلبون سوى الشهادة . كما أن هذا الحظر يتعارض مع الفطرة التي فطرها الله سبحانه داخل كل نفس بشرية ، مما قد يترتب عليه آثار سلبية قد لا تلمس إلا بعد مرور فترة من الزمن وهذا ما حدث فعلاً ، فقد تحولت الإنكشارية إلى جنود يجوبون الشوارع لنهب المنازل وهتك الأعراض ، دون الالتفات إلى حرمانية البيوت ، أو حتى المدن التي تسلم بمعاهدة ، لا تسلم من انتهاك الحرمات وهتك الأعراض.

ومما لا شك فيه أن حظر الزواج على الإنكشارية ، كان له أبلغ الأثر في تكوين جيش قوي ، بعيداً عن العواطف الأسرية وإنما عاطفة نحو الإسلام وخدمة السلطان العثماني فقامت بذلك على أكتافهم الفتوحات الإسلامية ، حيث كانوا يدخلون المعركة لا يرجون سوى النصر أو الشهادة في سبيل الله .

أما عن الأسباب النفسية ، فقد تركزت حول أن الخدمات والأعمال الجليلة والبطولية التي قام بها الإنكشارية في بادئ الأمر قد أكسبتهم تقدير واحترام العامة والخاصة ، وربما شعروا بالتميز وشعروا بأنهم هم الذين فتحوا المدن ، ومن حقهم نظير ذلك أن تحقق جميع مطالبهم بلا استثناء . فهم الذين تحملوا المشاق في سبيل الدفاع عن الدولة العثمانية، فكانت هذه المشاعر من الأمور

التي دفعتهم إلى التمرد والاعتداء على الأموال والأرواح . (١)

كما أنه بسبب فتوحاتهم وانتصاراتهم الماضية ، اعتقد الإنكشارية بأن القوة والشجاعة ، والفضيلة التي تتواجد عند جنودهم تجعلهم يتغلبون على كل جيش منظم بقيادة محكمة . هذا الوهم الذي ترسخ في أذهانهم ، جعلهم يرفضون أي محاولة للإصلاح أو التطوير ، كما أن أغنيائهم (*) اقتنعوا بأبسط الأمور إلا تقليد الأمم الأخرى ، وبذلك عمت فكرة أن استخدام نفس أسلحة هذه الأمم للدفاع عن الدولة العثمانية وولاياتها يعتبر جريمة ، وأن الشعوب الأخرى على ضلال ، وأساعوا إلى الرجال (**) الأكثر خبرة وعلماً وذكاءً . (٢)

كما كانت لدى الإنكشارية قناعة داخلية بأن دعاء الشيخ بكتاش قبل مئات السنين لهم بالنصر الدائم ، سيفيدهم على الرغم من اختلال تنظيمهم العسكري وكانت هذه من أكبر الأخطاء التي وقعت فيها الإنكشارية ، ورفضوا استخدام الأسلحة الحديثة والتطور ولم يفكروا لحظة كيف سيواجهون العدو في ساحة المعركة بأسلحته الحديثة ، مما أدى إلى هزيمتهم في أغلب الأحيان .

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٢ ، ٨٣ . إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٢) لم يوضح المؤلف ماذا يقصد بكلمة الأغنياء ، ولكن من الواضح في السياق العام أنه يقصد قادة الإنكشارية وزعمائها ، وأغواتهم ، فهم من يمتلك النفوذ والقوة والسطوة . ويقصد أيضاً شيوخ الإسلام الذين كثيراً ما ساندوا الإنكشارية .

(٣) يقصد هنا المؤلف السلطان سليم الثالث ، وبعض الصدور العظام الذين وقفوا بجانب الإصلاح .

(٤) سيد مصطفى - خالد زيادة : مرجع سابق ، ص ٦٨ ، ٩٩ .

وقوف شيخ الإسلام والعلماء إلى جانبهم في أغلب التمردات التي قاموا بها منذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ، زاد من ضغط الإنكشارية على السلاطين واستبدادهم فغالباً ما استندت ثوراتهم إلى فتاوي شرعية من شيخ الإسلام عادة ما كانت تمثل الرأي العام . (١)

كما أثر على نفسياتهم ، اختلاطهم بأهل المدن ، مما أدى إلى فساد طبيعتهم الحربية ، وتغيير أخلاقهم ، فأصبحوا أعداء لأنفسهم وأعداء لسكان المدن المحليين ، وانغمسوا بالتالي في حياة اللهو والملذات ، ورفضوا الخروج للحرب في البرد القارس ، وأثروا حياة الاستقرار والدفع ، مع استمرارهم في طلب علوفاتهم .

وقد أوجز عبد العزيز نوار أسباب ضعفهم وفسادهم في عدة نقاط هي :

- ١- كبد العثمانيون خسائر فادحة في الأرواح والأموال نتيجة للحروب المتتالية التي خاضتها الدولة العثمانية ضد الدولة الفارسية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري ، السابع عشر والثامن عشر الميلادي .
- ٢- وأدى هذا الأمر إلى فقد أجزاء متتالية من الأراضي البلقانية، والتي كان يجمع (*) منها الأطفال المشردين والأيتام لنظام

(١) خليل إينالجيک : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

(٢) لقد أشار هنا إلى أن أطفال الديوشمره كانوا من ضربية الغلمان والتي قلل منها السلاطين العثمانيون .

"الديوشرمة " وبذلك ضعف الأساس الذي الأساس الذي قامت عليه الإنكشارية .

٣- استشعار الإنكشارية بقوتها ومكانتها في الجيش العثماني ، جعلها تغالي في طلباتها وهباتها من كل سلطان جديد ، وإذا رفض السلطان إعطائهم أثاروا الفتن عليه .

٤- إقامة الإنكشارية في القلاع والمدن النائية لمدة طويلة ، جعل الهدف الإسلامي العام غير واضح أمامهم ، إضافة إلى فقد الإنكشارية للروح المعنوية ، بسبب ضعف التدريب ، وقلة العتاد الحربي ، فلم يعد للسلطان تلك القداسة التي شب عليها الإنكشاريون من قبل وأصبحوا عناصر فساد ، حتى أن الولاة أرادوا التخلص منهم .

٥- لقد كان النظام أن يربط الإنكشارية في قلاعهم وثكناتهم مدة معينة، ثم يستبدلون بقوة أخرى ، ولكن الوضع تغير خاصة في القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ، إذ استقرت قوات الإنكشارية في قلاعها ، وصارت تقوم بجباية الضرائب ، فاندمجت الإنكشارية في حياة المدن ، وغادر رجالها ثكناتهم وعاشوا حياة عادية ، لهم أسرهم ومشاكلهم ، فتحولوا إلى عنصر فساد وليس عنصر دفاع عن الدولة العثمانية .

٦- تحول نظام الإنكشارية إلى نظام ارتزاق ، فقد كان لكل جندي إنكشاري تذكرة يحصل بمقتضاها على " علوفة " نقدية أو عينية ، وعندما ضعفت الدولة العثمانية عن دفع رواتب

الإنكشارية صاروا يحصلون على حقوقهم بالقوة ، أو يبيعوا
تذاكرهم لمن يدفع أكثر ، والشاري يصبح صاحب التذكرة
وبالتالي جندي إنكشاري ، حتى لقد وجد في قوائم الإنكشارية
أسماء آلاف من أصحاب الحرف والسيدات . (١)

هذه الأسباب اجتمعت ، وأدت إلى قيام صراع بين أطراف
السلطة ، والصدر الأعظم ، والإنكشارية ، فتدخل النظام العام
وفسدت الدولة على الصعيد الداخلي . (٢) في القرنين الحادي عشر
والثاني عشر الهجري ، السابع عشر والثامن عشر الميلادي .

هذا الصراع أصاب الوضع الداخلي بأشكال مشوهة ، بين
السلطين الذين حاولوا جاهدين تقوية قدراتهم العسكرية للدفاع عن
الدولة العثمانية ، وذلك باللجوء إلى الإصلاحات ، راغبين أم
كارهين ، وبين الإنكشارية التي باتت مؤسسة عسكرية بائنة تعاني
من الهزائم المتلاحقة ، ولكنها برغم من كل شيء بقيت السلاح
التقليدي الوحيد في أيدي الأصالة وعلماء الدين . (٣) لقد كانوا جنوداً
أشداء يصعب السيطرة عليهم وكبح جماحهم .

وبهذا افتقدت الإنكشارية الأساسيات التي قامت عليها وفقدت
مقدرتها الحربية ، وأصبحت هيئة عسكرية صورة تعكس فساد هذه
الفرقة ، ومع مرور الزمن أصبح الإنكشارية مرضاً داخل جسم
الدولة العثمانية .

(١) عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) شبكة المعلومات العالمية " الإنترنت " .

(٣) قيس جواد العزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، الطبعة الأولى ، الدار
العربية للعلوم ، ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٤ م ، ص ٥٣ .

عندما كثرت حركات تمرد وعصيان الإنكشارية لجأ بعض السلاطين إلى بعض الإجراءات في محاولة منهم للحد من تلك الظاهرة ومن أهم هذه الإجراءات ما يلي :

أولاً : إتباع سياسة تفريق أو تشتيت جموع الإنكشارية بحيث لا يتواجد أو يتزايد عددهم في مكان واحد ، ولا سيما استنابول ، وتنفيذاً لهذه السياسة لجأ السلاطين إلى توزيع جنود الإنكشارية على حاميات الحدود والقلاع والمدن المفتوحة حديثاً ، وأيضاً إرسال فرق منهم لتلبية نداء المستجدين داخل ولايات الدولة العثمانية كما فعل السلطان سليم الأول حين أرسل إلى خير الدين بروسيا عام ٩٢٥هـ / ١٥١٨م ألفين من جنود الإنكشارية ، بعد أن استتجد به خير الدين وطلب العون لمحاربة الأسبان في الجزائر .

ثانياً : السماح لأعداد كبيرة من الجند المسلمين الذين ولدوا من آباء مسلمين في الديار الإسلامية بالانضمام إلى الإنكشارية ، بعد أن كان هذا الأمر محذوراً تماماً ، وذلك للحد من طغيانهم وتعصبهم وإظهار إمكانية الاعتماد على غيرهم .

ثالثاً : السماح للإنكشارية بممارسة بعض الحرف أو مزاولة التجارة في أوقات السلم ، في حين كان هذا محرماً عليهم فيما سبق ، والغرض من ذلك إشغالهم في وقت السلم حتى لا يدفعهم الفراغ للتفكير في إثارة الفتن، ورغم نجاح هذا الإجراء فيما يتعلق بشغل أوقات الفراغ عند الإنكشارية فقد

كان له أثراً سلبياً من ناحية أخرى ، حيث أدى إلى ابتعادهم عن ثكناتهم العسكرية ، وبالتالي عدم ممارسة التدريبات العسكرية مما ترتب عليه هبوط مستواهم القتالي .
رابعاً : عدم السماح لجندي الإنكشارية بحمل السلاح في أوقات السلم وذلك تجنباً لاستخدامه ضد المدنيين . (١)

على أنه مرت فترة هدوء نسبياً للإنكشارية في عهد صدارة كوبرللي محمد باشا وابنه فاضل أحمد باشا ، فقد كانوا غاية في الطاعة ولم يتدخلوا في شؤون القصر أو السياسة العليا مطلقاً وأهتموا بشؤونهم فقط ، وانضبطت صفوفهم ، ولكن هذا لم يستمر طويلاً فبعد نهاية صدارتهم عادت الإنكشارية لسابق عهدها . (٢)
إذا عقدنا مقارنة بسيطة بين الإنكشارية وجيش المعتصم ، في الدولة العباسية نجد أن جيش هذا الأخير قد تكون من عنصر الأتراك والذي اشتراهم المعتصم لينخرطوا في الجيش العباسي ، فصاروا وبال على الدولة العباسية ، مما أدى إلى ضعفها . ومن ثم سقوطها ، وهذه الحالة تكررت مع الإنكشارية في الدولة العثمانية ، مع الفارق أن الإنكشارية عماد الجيش العثماني وصاحبة أروع الفتوحات العثمانية ، ولكن مع مرور الزمن تكرر الوضع بنفس النمو في الدولة العباسية ، حيث سيطر الجنود على الحكام والدولة ، مما أدى إلى سقوطها .

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٠١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية : مادة بني تشرى ، ص ٥١١ .

كلا الجيشين طغى على الحكام واستبد بالسلطة وتحكم في
وضع السلاطين والخلفاء ، أو عزلهم ، ووصل الأمر إلى حد
القتل ، ووصلت أمور الفساد إلى أقصاها ، حتى أضعفوا كيان
هاتين الدولتين ، وبقيت مصالحهم فوق الدولة والشعوب .
ولهذا فرجل الحرب ، لا يصلح أن يتحول إلى رجل سياسة
وإدارة وحكم ، فهو جندي لخوض حرب وفتح حصون ، ولا يمتلك
مرونة وليونة رجل السياسة .

المبحث الثاني : نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني

أعتبرت الدولة العثمانية فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي ، تميزت بميزات جعلتها في مقدمة الدول ، وأول هذه المميزات أنها كانت دولة إسلامية حملت راية الجهاد الإسلامي عبر الآفاق ، ساعدها في ذلك، الميزة الثانية وهي الفئة العسكرية المعروفة بالإنكشارية ، ذلك الجهاز العسكري الذي فتح البلاد وضم المدن ، وكانت لها اليد الطولى في مختلف الفتوحات العثمانية ، ولكن دوام الحال من المحال ، فقد بدأت هذه القوة العسكرية في التمرد والعنف والبطش مما أدى إلى صراع مستمر بينها وبين الحكام ، كان من نتائجه إضعاف هيبة الدولة العثمانية وإضعاف البنية الداخلية للدولة وقصورها في مواجهة البلاد الأجنبية حتى أبتلع الاستعمار أراضيها .

وبعد معرفة أسباب تمردات الإنكشارية ومدى السيطرة والقوة التي وصلت لها هذه الفرقة سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ، نتتبع تدخلهم في السياسة الداخلية أي في القصر السلطاني في عهد كل سلطان .

لم تورد المصادر التاريخية أي معلومات عن أي تمرد قامت بها الإنكشارية منذ نشأتها وحتى أوائل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، إلا أن المصادر التاريخية تسجل لنا حوادث وشغب الإنكشارية الذي بدأ يظهر على المسرح التاريخي

في أواسط القرن التاسع الهجري الموافق النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي.^(١)

ولكن لابد أن نأخذ في الاعتبار أن بداية تمردهم لم يكن بتلك الصعوبة ، واستطاع السلاطين التحكم فيها ، لكنها تطورت بعد ذلك وتعدت لشخصية السلطان وعزله ثم قتله .

ففي عهد السلاطين الأقوياء لم يكن للإنكشارية نفوذ ، وكانت تحت سيطرة السلطان ، ولكن مع مرور الوقت تبدل الحال بسبب ضعف بعض السلاطين أولاً وزيادة نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني ثانياً وبالأخص ذلك النفوذ الذي ظهر في شخصية الأغا الإستبدادية .

لقد كانت مفاصد الإنكشارية من أكثر العلل التي أصابت الدولة العثمانية وساعدت على ضعفها الداخلي ومن ثم سقوطها ، لقد استفحل الأمر بعد أن تسرب الفساد لها ، وسمح لأي فرد الانضمام بسلوكها دون قيود ، وأول بواكير هذه الأعمال الخارجة عن طبيعة عمل الجند ، هو أول إضراب يذكره لهم التاريخ ، بعد وفاة السلطان محمد الأول " ٧٨١هـ - ٨٢٤هـ / ١٣٧٩م - ١٤٢١م " في منطقة غاليبولي ، وقصة ذلك أنه عند وفاة السلطان محمد الأول ، خاف الوزراء ورجال القصر من إشاعة خبر الوفاة قبل مبايعة أبنه مراد الثاني^(٢) الذي كان في آسيا ، وقد أتفق الوزيران في عهد محمد الأول وهما " إبراهيم وبايزيد " على إخفاء خبر الوفاة

(١) إسماعيل حقي أوزون : المرجع السابق ، ص ٥٠٦ .

(٢) فريد بك المحامي : المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

عن جنده خوفاً من حدوث طارئ لا تحمد عقباه ، وأشاعا أن
السلطان مريض ، وأرسلا إلى ابنه مراد ، والذي وصل بعد واحد
وأربعين يوماً واستلم مقاليد الأمور والحكم هذه رواية . (١)

وهناك رواية أخرى تذكر أن خبر وفاة السلطان شاع بين
الجند ، ولم تهدأ ثائرتهم حتى احتال رجال القصر على الجند
وأوقفوا جثة السلطان خلف نافذة القصر وجعلوا يحركوا يده كتحية
للجند أثناء مرور صفوفهم أمام القصر . (٢)

ولكن هذه الرواية الأخيرة كما يبدو مشكوك في مدى
صحتها ، فليس من المعقول أن تكون شخصية السلطان سهلة
بحيث يستطيع وزرائه التعدي على هوية جثة السلطان ، وحمله
وإيقافه أمام النافذة ، ولنفترض حدوث ذلك فيكف يستطيع وزرائه
إيقافه بشكل مستقيم وهو جثة هامة ، بل وتحريك ذراعاه بالتحية
بأيديهم ، ليراها الإنكشارية ، إضافة إلى أن الميت عيناه مغمغمتين
فكيف سيفتحها هؤلاء الوزراء ، وهل بقيت جثة السلطان لم تتحلل
أو يصيبها العطن خاصة وأنه لا يوجد وسائل لحفظ الجثة بهيئتها
كاملة لمدة طويلة ، فالوسائل لا شك أنها بدائية نوعاً ما ، كذلك
النافذة هل هي بعيدة بدرجة كافية حتى لا يلاحظوا الإنكشارية
ملامحه عن قرب ، فلا يعتقد أنها بعيدة جداً فبإمكان الجند الاقتراب
لدرجة تسمح بتفحص ملامحه الميتة واكتشاف الحقيقة ، وعلى هذا

(١) محمد فريد المحامي ، مصدر سابق ، ص ١٥٢ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ
العثماني ، ص ١٣١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٣١ .

فإن الباحثة ترجح الرواية الأولى وذلك لقربها للمنطق والصحة ولقرب فريد بك المحامي من الفترة الزمنية .

وبعد تولي مراد الثاني بن محمد الأول الحكم " ٨٠٦ - ٨٥٥ هـ / ١٤٠٣ - ١٤٥١ م " صارت الأمور هادئة مع الإنكشارية حتى حدثت معركة وارنة التي دارت أحداثها على سواحل البحر الأسود عام ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م وقد انتصر فيها السلطان مراد الثاني على جيوش الحلفاء المسيحيين (*) واستعاد مدينة وارنة من المجر والبولونين وغيرهم ، ثم عاد السلطان إلى العاصمة ، ومرض بعدها إثنان من أبنائه بمرض معد توفيا على أثره ، فحزن عليهما حزناً جماً ، وعفّت نفسه عن الملك ، فقرر أن ينادي بابنه محمد الثاني سلطاناً والذي لم يتجاوز ١٥ عاماً ، وانسحب إلى إحدى المدن . (**) (١)

ولكن هذا الطفل الذي حكم لم يعجب الإنكشارية وثاروا عليه وازدروه ونهبوا عاصمة الدولة أدرنه . (٢) على الرغم من أنهم ساعدوه في الغارات على بلغراد ، وعندما جرح في فخذه أنقذوه

(*) ومضوا معاهدة ساكه دين مع جان هويناد عام ٨٤٨ هـ / ١٤٤٤ م . إسماعيل حقي أوزون : المرجع السابق ، ص ٥٠٦ .

هو ينادي : ولد عام ١٣٨٧ م وتوفي ١٤٥٦ م من أسرة مجرية الأصل عُين ملكاً للمجر من قبل ماتيوس إين لارسلان - أشتهر بمحاربة العثمانيين ، ومات متأثراً بجراحه أثناء حصار محمد الفاتح لبلغراد . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٥٦ .

(**) مدينة مغنيسا ، انسحب مراد الثاني لها للاستجمام . محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣١ .

(١) حبيب السيوفي : المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٢) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ١٥٨ ، إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٥٠٤ .

ودافعوا عنه، وكان اعتراضهم على حكمه بسبب صغر سنه وليس شخصه ، وساعدهم في ذلك وحرصهم رؤساء الإنكشارية وهم ذا غانوس باشا .^(١)، وشهاب الدين باشا الخادم ، كما ساعدهم في هذا التمرد رجال الدولة الذين لم يرضيهم سلطان الخامسة عشر عمراً .^(٢)

ولم يهدأ الوضع حتى عاد السلطان مراد الثاني مرة أخرى من عزلته ، وقام بإخماد الفتنة ، وإنزال العقاب الشديد بمديريها ورؤوس الفتنة فيها ، وهكذا عاد الأمر كما كان وهدأت البلاد ، ولكي يضمن السلطان مراد الثاني عدم إثارتهم للقلق مرة أخرى أشغلهم في حرب بلاد اليونان عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م وساعدهم في ذلك ظروف اليونان الداخلية .^(٣) (*)

وهكذا رضخ مراد الثاني لمطالب الإنكشارية وعاد إلى السلطة ، ولكنه قضى على رؤوس الفتنة ، وهذا يدل على قوته وخوف الإنكشارية من شخص السلطان ، الأمر الذي سيتحول فيما بعد كما سنرى .

واستمرت الأحوال هادئة حتى توفي مراد الثاني وتولى الحكم بعده ابنه محمد الثاني " ٨٣٣هـ - ٨٨٦هـ / ١٤٤٧م - ١٥١٢م " ثم بدأ تمرد الإنكشارية مرة أخرى وأضربوا عن العمل ، حتى

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٢ .

(٢) إسماعيل حقي أوزون : المرجع السابق ، ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٣) ساعده تقسيم الملك إيمانويل بلاده على أولاده ، مما أدى إلى إضعافهم ومن ثم يسهل القضاء

عليها . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٥٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

أجبروا السلطان على زيادة رواتبهم . وحققوا مبتغاهم ، ولأن محمد الثاني كان يحتاجهم في فتوحاته فقد إزدادوا إلحاحاً في مطالبهم . (١) وإذا دققنا هنا نجد أن تمردهم في عهد محمد الثاني تلخصت في زيادة الرواتب ، وربما يعود رفضهم وتمردهم على مراد الثاني في البداية لصغر سن محمد الثاني ، ولكن بعد ذلك رضخوا له ولأوامره وساروا تحت طوعه .

على أن تدخل الإنكشارية الفعلي كان واضحاً بعد وفاة السلطان (*) محمد الثاني ، فبعد وفاته في سكوتاري ، بشكل مفاجئ ، أخبر الصدر الأعظم محمد باشا قرماني (**) بوفاته بسرية تامة ، وأخفاه عن الجنود جميعاً وخاصة الإنكشارية لما عرف عنهم من سرعة التمرد . حيث خاف من آثار الخبر عليهم قبل الوصول إلى إستانبول ، وأشاع بين الجند أن السلطان مريض يحتاج إلى الحمامات الدافئة حتى يتمثل للشفاء، وقام بنقل الجنمان في

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٢ .

(٢) لقد توفي محمد الفاتح في ١٤٨١/٥/٣م في مكان يسمى " سلطان جابري " بالقرب من خيرة ، وكان في طريقه لإحدى الحملات الحربية ، وكان على رأس جيش ، وفجأة وهو في الطريق مرض مرضاً شديداً منعه من السير ، وبالطبع توقف الجيش عن المسير ، وذهب المعسكر في المكان المذكور وتوفي السلطان نتيجة لهذا المرض . انظر رشاد أكرم قوجسي : الإنكشارية ، د. ط ، إستانبول : ١٩٦٤م ، ص ١٤٥ .

(**) محمد باشا القرماني : أحد الكتاب والصدور العثمانية ، في عهد محمد الفاتح ، من نسل جلال الدين الرومي ، تربي في قونية ، وكان تلميذ علاء الدين علي جلبي أحد العلماء الكبار في عهده ثم صار صهره بعد ذلك ، ترقى في المناصب حتى وصل الصدارة العظمى في عهد الفاتح ، أهم أعماله إعداد مجموعة من القوانين عرفت باسم " فاتح قانون نامه ، أو قانون نامة آل عثمان ، " عين قاضي عسكر الأناضول . وكان بارعاً في الخط ، والرماية والقوس . انظر الموسوعة التركية الوقف الديني بتركيا ، ج ١ ، د. ط ، إستانبول ١٩٨٨م ، ص ١٣٣ .

قارب (*) مغلق إلى العاصمة بحجة المحافظة على صحة السلطان من البرد بعد خروجه من الحمام الدافئ،^(١) وكان ذلك من أجل كسب الوقت حتى يستطيع إشعار بكر أبنائه " أبو يزيد " (**) ، ولكنه في نفس الوقت كان يميل إلى ابنه الأصغر " جم " الذي تربطه به علاقة مودة ، فأرسل الصدر الأعظم قرماني محمد باشا سراً إليه يخبره ب وفاة والده ويستعجله العودة إلى العاصمة ليتسلم مقاليد الحكم قبل أخيه ، وكان هذا في بلاد قرمان ومركزه قونية. (***) (٢)

وقبل ذهاب الصدر الأعظم إلى إستانبول حذر الجنود بعدم تركهم لأماكنهم أو التفرق ، حتى يعود إليهم مع السلطان مرة أخرى وبمجرد وصوله إلى إستانبول ، أمر بإغلاق الموانئ وعدم عبور أي قوارب ، وقام بإخراج فرقة الأعجمي أوغلان لحماية المدينة سراً وأعلن أنهم خرجوا لإصلاح الجسور ، وأغلق أبواب المدينة ، وهنا وضح أن الصدر الأعظم قد سيطر على الأمور في العاصمة ،

(*) ذكرت بعض المراجع أن الصدر الأعظم نقل النعش في عربة ولكن بشكل لا يشك فيه أحد . أنظر رشاد قوجسي : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٢ . أنظر إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٧ . أنظر رشاد قوجسي : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

(**) يرد إسم هذا السلطان في الغالبية من الكتب العربية مكتوباً " بايزيد " وهذه الكلمة في النطق التركي لاسم العربي " أبو يزيد " وفي آسيا الصغرى هناك مدينة باسمه حاضرة صنجق في ولاية أرضروم بناها بايزيد الأول . أنظر عبد العزيز الشناوي ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥٠٤ .

(***) قونية : بضم ثم السكون ونون مكسورة . وهي مدينة تركية تقع وسط تركيا إلى الجنوب من أنقرة ، وإلى الشمال من البحر الأبيض المتوسط . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٩ . أنظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

وعندما رأى إسحاق باشا محافظة إستانبول هذا الوضع ، أحضر عدداً من الإنكشارية مسلحين وأنحاز إلى صف بايزيد .^(١) والذي كان علاقته مع أبيه فاترة ، وكان على علاقة وثيقة مع بعض الشخصيات التي لها تأثير قوي على الإنكشارية أمثال سنان باشا حاكم الأناضول وإسحاق باشا عدو الصدر الأعظم قرماني محمد باشا .^(٢)

وكان على كل أين الإسراع بالعودة للعاصمة حتى يتولى العرش، لكن خبر وفاة السلطان انتشر بين الإنكشارية المرابطين في المعسكر في سكوتاري ، وعلى الرغم أن الإنكشارية في ذلك الوقت كانت لا تزال تلتزم بالطاعة إلا أنهم لم ينفذوا أمر الصدر الأعظم ، وسارعوا بالعودة إلى إستانبول ، بالقوارب الموجودة عندهم ، وعبروا البوسفور إلى العاصمة وقتلوا الصدر الأعظم ، ونهبوا قصره ، وعاثوا في المدينة نهباً وسلباً ، وأقاموا ابن السلطان بايزيد " كركود " قائمقام للدولة مكان أبيه لحين وصوله ، وعندما تلقى إسحاق باشا^(*) خبر مقتل محمد باشا القرماني، أرسل أوامره

(١) رشاد قوجسي : مرجع سابق ، ص ١٤٦ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٧٩ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

(*) إسحاق باشا : من أصل يوناني ، كان في الدوشرمة ، أرتقى في المناصب أمير أمراء البوسنة ثم أمير أمراء الأناضول ، حظي بمكانة عالية عند بايزيد الثاني ، تولى الصدارة العظمى مرتين ، ساعد الإنكشارية في مقتل محمد باشا قرماني ، اعتذر عن الاشتراك في الحرب التي بين بايزيد وجم ، له جامع بإسمه ، ومسكن للفقراء ، وقصر كبير له . ولم تعرف سنة وفاته . الموسوعة التركية : ج ٢٠ ، د. ط ' أنقرة ١٩٧٢م ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

إلى الإنكشارية بالتزام الهدوء والسكينة والرجوع إلى ثكناتهم ،
وامتثلوا لأوامره . (١)

ونلاحظ هنا أن تمرد الإنكشارية كان ضد الصدر الأعظم ،
وتمكنهم من قتله يعتبر مؤشر خطير ، حيث يدل على أنهم بإمكانهم
القيام بتمرد في أي وقت متى أرادوا .

وعندما وصل بايزيد إلى إستانبول استقبله كبار رجال الدولة
عند مضيق البوسفور وأثناء اجتيازه البوغاز أحاطت به قوارب
مليئة بالإنكشارية يرحبوا به ، ويطالبون بعزل أحد الوزراء وهو
مصطفى باشا وتعيين إسحق باشا مكانه ، فأجيب طلبهم ، وكان هذا
دليل كاف على تأثيرهم وأن لهم الفضل في اعتلائه العرش ، وعند
وصول بايزيد إلى القصر السلطاني وجد الإنكشارية مرابطة أمام
القصر ، ومصطفين أمام البوابات بما يشبه المظاهرة العسكرية ،
وطالبوا السلطان بايزيد بالعفو عنهم عما وقع من قتل للصدر
الأعظم ونهب وسلب المدينة ، كما طالبوا بأن يعطيهم مبلغاً من
المال ، تعبيراً عن السرور بتعيينه فأجابهم على جميع
مطالبهم . (*) (٢)

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٧٩ . عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، ص ٥٠٤ ، رشاد
قوجسي : ص ١٤٧ .

(٢) نجح السلطان عبد الحميد الأول " ١١٣٧ - ١٢٠٣ هـ / ١٧٢٤ - ١٧٨٨ م " في إلغاء هذا التقليد
بحجة الحرب مع روسيا . محمد فريد المحامي . مصدر سابق ، ص ١٧٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٧٩ . أنظر عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، ص ٥٠٤ ، أنظر أيضاً محمد
سهيل طقوش ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٢ .
بسام العسلي : ج ٥ ، مرجع سابق ، ص ١٠٥ .

ولم يكن من السهل عدم قبول مطالبهم ليس ضعف في شخصية السلطان ولكن لأنه سيدخل في صراع مع أخيه جم وكان لابد من أن يضمن تأمين ولائهم له ، وهدوء جبهته الداخلية ، حتى يخوض المعركة مع أخيه وهو متأكد من تأمين الجبهة الداخلية ، لكن لا شك أن هذا الأمر ساعد الإنكشارية كثيراً وجعلهم يصابون بالغرور والطمع في فترة مبكرة جداً ، ويدل أيضاً على أنهم أرادوا تثبيت إسحق باشا في الصدارة العظمى وصرف أعطيات لهم ، إضافة إلى أن السلطان سامحهم على أعمال السلب والنهب في العاصمة ، وقتلهم للصدر الأعظم - مهما كانت أسبابهم - هذه الأمور جعلتهم يحسون أن أوامرهم دائماً مطاعة ، خاصة وأن عادة إعطاء العطايا عند جلوس كل سلطان أصبحت فريضة رداً من الزمان .

على الرغم من ذلك كان السلطان بايزيد يأخذ رأيهم في كل أمر حتى في القضاء على الصدر الأعظم ^(١) ، الذي أثر إعلان الحرب على الإستراتيجية لأنها قامت بحماية الأمير جم ، وقد كان السلطان بايزيد يؤثر عدم معاداتهم إلا أن الصدر الأعظم أصر على الحرب فغضب عليه بايزيد ، وأخذ يتحين الفرص للتخلص منه ، حتى جاءت هذه الفرصة في وليمة أقامها السلطان ، وأمر بخنقه ، لكن الصدر الأعظم طلب من السلطان فرصة حتى يعلم بما سيكون من أمر الإنكشارية لأنه الرئيس الأعلى لهم ، فأعتقله السلطان في أحد أبراج القلاع ، إلى أن يفصل في أمره . وعندما علم ابن

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٣-١٤ .

الصدر ما حدث لأبيه غضب ، وطاف بين ثكنات الإنكشارية ،
يحثهم على التمرد على السلطان من أجل قائدهم الذي ذهب ضحية
ظلم السلطان له ، فتأروا وتجمعوا في الشوارع أكثر من عشرة
آلاف ، مهددين بالهجوم على القصر لإحراقه وإخراج قائدهم من
السجن إذا كان لا يزال حياً والفتك بالظالم إذا كان قائدهم قد قتل.^(١)
فخاف السلطان منهم ، ولكي يسكن ثورتهم أظهر لهم قائدهم
الأعلى ، وعندما رأوا على جسمه آثار الضرب ، زاد صراخهم ،
عندها أمرهم الصدر الأعظم بالهدوء، فعادوا إلى ثكناتهم ، وهكذا
نجا السلطان من أذاهم ، وعاد الصدر الأعظم إلى منصبه لكن لم
يهدأ بال السلطان، حتى عقد النية على إبعاده عن الإنكشارية
ليستطيع التخلص منه ، وفعلاً أصطحبه معه إلى أدرنه ، وهناك
قتله ، وأذاع أنه قضى نحبه بداء السكته ، وهكذا تخلص منه وقام
بنفس العمل بباقي قادة الإنكشارية . فقد كان يرسلهم إلى أماكن
بعيدة بحجة أشغال مهمة ، ويتخلص منهم بالقتل. وعندما رأت
الإنكشارية عداوته لهم ، غضبوا غضباً شديداً وأصرروا على
الانتقام ، وبينما هو عائد إلى العاصمة تربصوا به ، فعلم
واستولى عليه الخوف ، وحاول إرضائهم بجميع الطرق ،
والاستجابة لرغباتهم ، حفاظاً على حياته .^(٢)

ونأتي إلى نقطة مهمة في تدخل الإنكشارية في القصر
السلطاني ، وهي في نهاية عهد بايزيد حيث كانت المشاكل تعصف

(١) حبيب السوفي : مرجع سابق ، ص ١٣ و ١٥ .

(٢) مرجع سابق ، ص ١٤ ، ١٥ .

به من جميع الجهات مشاكل داخلية ، صراعه مع أخيه الأمير جم ، ثم صراعه مع الشاه إسماعيل الصفوي ، ثم في وقت متأخر كما سنرى صراع أبناءه الثلاثة على العرش ، كل ذلك جعله دائماً مشغول ، فتقبل تدخل الإنكشارية في القصر السلطاني مما أوجد لهم المجال في كثير من الأمور التي سارت وفق هواهم . لقد لعبت الأطماع الداخلية دورها في إفساح المجال أمام الإنكشارية وتقبل بايزيد لذلك ليس لأنه ضعيف أو لأن الإنكشارية جنود مرتزقة همها العنف ، ولكن لأن بايزيد لم يكن يريد فتح جبهة داخلية عليه ، إضافة إلى الجبهات الخارجية ، فأثر أن ينفذ رغباتهم، لكي يضمن ولائهم في الفتوحات وفي صراعه مع الشاه إسماعيل الصفوي .

ولنرى الآن لماذا فضل الإنكشارية سليم على باقي أبناء بايزيد ، لقد كان للسلطان بايزيد ثمانية أبناء ، توفي خمسة منهم وهو على قيد الحياة ، وبقي ثلاثة أبناء ، ^(١) وكان الثلاثة مختلفي الأهواء ، فخشي والدهم من وقوع فتنة بينهم مما دعاه إلى تفريقهم فعين احمد والياً على أمسيا ، وكوركود والياً على صاروخان ، أما سليم فولاه على طرابزون ^(٢)، وكان أحمد شخصية يحبها الأعيان وكبار الدولة، إضافة إلى أنه كان أكبر الأبناء فعينه في ولاية العهد، وكوركود كان ميالاً للعلم والعلماء، ومحباً للآداب ، فلم يتقرب منه

(١) عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥٠٤ .

(٢) طرابزون : مدينة تركية أسيوية " الأناضول " تقع على البحر الأسود ، وموقعها أعطاه أهمية استراتيجية س. موستراس : المعجم الجغرافي للإمبراطورية العثمانية ، ترجمة عصام محمد الشحات ، الطبعة الأولى ، بيروت: دار إين حزم ، ١٤٢٣ هـ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

الجند ، أما سليم فقد كان يلعب بالورقة الراحبة عند الجنود وهي
ميله للحرب ، وحبها لها مما جعل الإنكشارية تميل إليه . (١)
لكن وضع أحمد في ولاية العهد لم يعجب الإنكشارية الذين
كانوا تواقين للحرب والجهاد ، خاصة بعد مرور فترة من الحروب
الدفاعية في عهد بايزيد ، وإصابته بمرض النقرس ، وهو أكثر
الأمراض شيوعاً في آل عثمان . إضافة إلى ضعفه وقلة حركته ،
وميله للسلم والكف عن سفك الدماء ، وتركه للسفر سنين طويلة إذ
لم تزد في عهده أملاك الدولة كثيراً ، وكانت حروبه مجرد الحفاظ
على الدولة ، وعقده مع الأعداء البيزنطيين هدنة مدتها عشر
سنوات ، مما جعل الإنكشارية تنثور لكثرة راحتها وسكونها ،
وتطالب بسلطان قوي قادر على السفر ليجاهد بهم في سبيل الله ،
فاتجهوا إلى سليم لأنه أجلد إخوتهم ، وأكثرهم ميلاً للحرب
والفتوحات ، إضافة إلى جرأته وصرامته في اتخاذ القرار حتى لقب
بـ "ياوز " (*) (٢)

كما أن سليم كان يعتبر جميع الولايات الأوروبية دار
الحرب ، لذلك أراد ولايتها رغبتاً في الجهاد ، وهذا السبب

(١) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ١٢٧ . بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١١٠ .

خليل إينالجيک : مرجع سابق ، ص ١٠١ .

(٢) معناه الحاد الباتر العنيد ، القوي . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٠٥ .

(٣) علي إبراهيم البويتجي الشافعي : سلوك سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد يشتمل على تاريخ
سلاطين آل عثمان ، محفوظ في مركز البحث العلمي بجامعة أمر القرى تحت رقم ٦٧٥ تاريخ ،
ورقة ٢٣ . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٨٧ . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ،
ج ١ ، ص ٥٠٥ ، إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٧ .

جعل الإنكشارية تساعده في التمرد على أبيه بايزيد الثاني . (١)

وقد كان لعقد الهدنة مع البيزنطيين عشر سنوات ، أبلغ الأثر في ميل الإنكشارية لسليم ، حيث رغبت فيه لعلو همته ، ولأنه شاب محارب ، أما بايزيد كان رجلاً كبيراً في السن صالحاً مباركاً ، لا يحب العظمة ولا التجبر ، حتى أن أغا الإنكشارية يونس أغا مال لسليم (٢) ولم ترتاح الإنكشارية لتعيين أحمد ولياً للعهد ، فعندما طلبوا منه زيادة رواتبهم لم يجب طلبهم بسبب عدم وجود أعمال لهم في تلك الفترة ، فحنقوا عليه وقرروا أن لا يتولى هو عليهم أبداً . (٣)

في هذه الأثناء لم يقبل سليم تعيين أبيه له على ولاية طرابزون ، وترك مقر الولاية وسافر إلى كافا من بلاد القرم ، وطلب من أبيه أن يعينه في إحدى الولايات الأوروبية ، فلم يقبل السلطان ذلك وأصر على بقاء سليم في طرابزون ، فحدثت بين السلطان وسليم مشادة ، أصر خلالها سليم على القتال ، الأمر الذي دفع بسليم إلى العصيان وتجهيزه جيشاً كبيراً من قبائل التتار ، وسار به إلى بلاد الروملي ، فأرسل له والده جيشاً ليرهبه ، وعندما لمس السلطان من إينه التصميم على الحرب ، قبل بمطالبه

(١) محمود شاكر : مرجع سابق ، ص ٩٤ ، ٩٥ ، للاستزادة عن صراح بايزيد مع أبيه سليم الرجوع محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) محمد الزنبلي الرمال : سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن بايزيد بن السلطان محمد الفاتح القسطنطينية من الحروب والقتال ، محفوظ في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم ٦٣٢ تاريخ . ورقة ٥ . انظر جيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٥ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥ .

وتم تعيينه في سمندرية (*) وودين (**) حقناً للدماء وكان ذلك عام ٩١٧هـ / ١٥١٢م . (١)

في هذا الوقت غادر السلطان بايزيد العاصمة إستانبول ، وذلك بعد وفاة ابنه شاهنشاه ، واشتد عليه المرض ، وفي هذا الوقت وجد كل واحد من أبناء الثلاثة المتصارعين على الحكم أن خلو العاصمة من السلطان فرصة بأن يجمع جيشاً ويتوجه به للعاصمة وينصب نفسه سلطاناً على العثمانيين ، فولي العهد أحمد قد أرسل له السلطان بايزيد الثاني ليأتي ويبقى بجواره إذا ما وافاه الأجل المحتوم ، لكن الإنكشارية لم تسمح بدخوله العاصمة مع جيشه ، بل واتهموه بعدم الكفاءة وتمردوا عليه . وبما أن أحمد لم يكن يطمع في الملك ، فقد رأى أن الإنكشارية لا يريدونه سلطاناً عليهم ، فهو أيضاً يكره ذلك . (٢)

أما كركود فقد علم بنجاح تمرد أخيه سليم فانتقل إلى ولاية صاروخان واستلم إدارتها دون أمر أبيه ، وذلك لكي يكون بالقرب من العاصمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، لكن بايزيد أرسل له جيشاً

(*) سمندرية : معناها أندريا وهي مدينة واقعة على نهر الطونة وتبعد ٤٥ كيلو متر عن العاصمة بلغراد ، ولها أهمية حربية عظمى ، وهي تعريف من أندريا .

(**) ودين : مدينة حصينة في الشمال الغربي من بلغاريا ، قرب الحدود اليوغسلافية تقع على نهر الدانوب ، لها أهمية حربية كبرى ، تبعد ٢٢٥ كيلو متر عن بلغراد . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٥٥ - ١٨٦ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص ١١٠ ، ١١١ .

(١) مصدر سابق : ص ١٨٦ . انظر أحمد زيني لحلان : مصدر سابق ، ص ١٤٠ . محمود شاكِر : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٨٧ . عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص

٥٠٦ - ٥٠٧ . أيضاً محمد سهيل طقوش : ١٢٧ - ١٢٨ حبيب السيوفي ، ص ١٥ .

أرشيف توب قابي سراي ، ٢/٥٨١٤ E .

تمكن من هزيمته . (١)

أما سليم وهو الأهم فلم يقتنع بولاية ودين وسمندرية ولم يهدأ باله، فقد عرف أن الحرب آتية لا محالة في ذلك ، ولكنه كان يقول " ليحدث ما يحدث " وكانت الإنكشارية تسانده في جميع المراحل ، وتقوي من ساعده ضد أبيه، وزينت له أن يسير إلى أدرنه ويعلن نفسه سلطاناً ، فجمع قواته وسار إلى أدرنه وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، فأرسل له والده من هزمه وجعله يفر إلى بلاد القرم ، لكن الإنكشارية بدأت بالإلحاح على السلطان حتى يعفو عنه ، ويعيده إلى سمندرية ، ووافق بايزيد وأصدر خط شريف بذلك . (٢)

ولم تلبث الإنكشارية أن ألحّت على السلطان حتى يعين ابنه مكانه ويتنازل عن العرش ، فخاف بايزيد على دعائم الدولة ، وأشار عليه وزرائه بأن ينزل عن العرش لابنه وينسحب ، فوافق السلطان حقناً للدماء ومحافظة على الدولة ، وأثناء عودة سليم إلى سمندرية ، سارت إليه الإنكشارية ، وتأكد أنهم معه ، وعاد معهم إلى إستانبول في احتفال زائد عن اللائق ، وساروا به إلى السراي ، حيث تنازل بايزيد عن الحكم في ٨ صفر سنة ٩١٨ هـ / ٢٥ أبريل ١٥١٢م رغماً عن أنفه ، وبعد ذلك طلب سليم من أبيه أن يرحل إلى ديموثيقاً (*) وكان ذلك بعد التنازل بعشرين يوماً ، وأثناء رحلة

(١) بسام العسلي : ج ٥ ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٨٧٥ . انظر عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع

سابق ، ص ٥٠٦٥ - ٥٠٧٠ . انظر بسام العسلي : ج ٥ ، مرجع سابق ، ص ١١١٥ .

(*) ديموثيقا : مدينة تقع إلى الجنوب من أدرنة في اليونان ، على الحدود التركية أنظر بسام العسلي :

ج ٥ ، مرجع سابق ، ص ١١١ .

السفر وافته المنية عن عمر يناهز السبعة والستين عاماً ودام حكمه
اثنتين وثلاثين سنة . (*) (١)

وهكذا نجد أن سليم الأول قد تولى العرش ، بحركة إنقلاب
حقيقية، من قبل الإنكشارية لأنهم رأوا فيه السلطان المجاهد . مما
جعله دائماً يأخذ رأيهم وشعروا هم كذلك بأنه يدين لهم بالعرش ،
فضلاً عن الانتصارات الواسعة التي أحرزوها مما جعل السلطان
سليم يغمرهم بالعطايا في كل مناسبة ، وربطهم مباشرة بشخصه ،
فتمكن بهذا الأسلوب من السيطرة على كل أمورهم . (٢)

وهنا نجد أنهم رفعوه لكرسي العرش ، ولكنهم طالبوا
بالثمن ، وهذا يدل على مبلغ قوتهم وطمعهم ، فقد تصدوا لولي
العهد أحمد بكثرة عددهم ومنعوه من دخول العاصمة ، ونصبوا بدلاً
منه سليم مما يدل على إمساكهم بزمام الأمور جيداً .

(*) لقد تحدثت بعض المصادر التاريخية على أن بايزيد لم يمّت ميتة طبيعية وأن سليم أرسل من دس
له السم في طعامه وقالوا أنه من طبيبه اليهودي ، وبذلك مات بطريقة مشكوك فيها لأن سليم خاف
من عودته للمنصب كما فعل مراد الثاني ، وقد أورد ذلك محمد فريد المحامي وحبيب السيوفي
والبرت هويلبير . .

ولكن قصة كهذه لا يجزم بحقيقتها أبداً إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن بايزيد كان طاعناً في السن
مريضاً جداً وحزيناً على فقد عرشه وإينه شاهنشاه فهذا يؤدي إلى موته هماً وحزناً وليس بضرورة
أن يقتل . كما أن سليم غضب من أبيه لأنه عين أحمد في ولاية العهد وطالما هو أصبح السلطان فلما
يقتل والده فلا معنى لخوفه من استرجاع العرش لكبر سن والده ولأن سليم تسانده الإنكشارية . .

(١) علي إبراهيم البويتجي الشافعي : سلوك سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد ، ورقة ٢٣-٢٤ انظر
حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٥ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ١٢٧ -
١٢٨ . انظر بسام العسلي : ج ٥ ، مرجع سابق ، ص ١١١ ، أنظر أحمد زين دحلان : مصدر
سابق ، ص ١٤٠ انظر محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٢ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ١٨٧ . بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١١٥ .

أما تفصيل أولى مشاكلهم في عهد سليم عام ٨٧٥هـ - ٩٢٦هـ / ١٤٧٠م - ١٥١٩م في أن سليم خرج إلى أسوار العاصمة حتى يودع والده المسافر ، وعاد إلى القصر ليباشر أعماله ، لكن ترامت إلى مسامعه أن الإنكشارية محتشدون في تمرد عسكري في الطريق المؤدي للقصر في العاصمة يطالبوا بمكافآت سخية لقاء مساعدتهم ، فأنزعج السلطان من هذا التصرف وسلك طريقاً آخر وصل منه إلى القصر ، لكن الإنكشارية لحقت به وأضطر أن يدفع لكل واحد منهم خمسين دوكاً^(١) ، وزادوا في مطالبهم وطلب أحد رؤسائهم زيادة في المرتبات فضرب عنقه .^(٢) وهكذا نجد أن الإنكشارية كان لهم دوراً واضحاً في تعيين سليم سلطاناً ، وكانوا في البداية مدفوعين بحب الجهاد وإعلاء كلمة الله ، ولكن هذا لم يمنع خطورة تدخلهم فيما يتعلق بتحديد من سيجلس على العرش وترجيح كفة على الأخرى .^(٣)

تولى العرش بعد سليم الأول السلطان العثماني الشهير سليمان القانوني ٩٠٠هـ - ٩٧٤هـ / ١٤١٤م - ١٥٦٦م ونستطيع أن نقول أن عهده كان أهدأ من عهد بايزيد وسليم الأول ، وذلك لقوة شخصيته و مع ذلك حدثت بعض الاضطرابات في عهده بعد تدخل

(١) : دوكاً : قيل هو النقد الذهبي المضروب في البندقية قديماً ، وهي محرقة لكلمة دوكاتو الإيطالية ، وكانت تزن العملة ما بين عشرة إلى اثني عشر فرنكاً : سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، د. ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، ص ١١٥ ، حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٦ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥٠٩ . محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ١٤٩ .

(٣) ألبرت هوبولبير : مرجع سابق ، ص ٩٥ .

الإنكشارية في شؤون القصر السلطاني عندما دارت مؤامرة مقتل
إبنه الأكبر مصطفى .

عني السلطان سليمان كثيراً بإصلاح شؤون الجند ، إذ ألف
فرقة لحراسة بلاطه إضافة إلى الاعتناء بالحدائق ، ولم يعجب هذا
العمل الإنكشارية ، لكنهم لم يتجرأوا على الظهور بأسلحتهم أمام
القصر السلطاني بل هجموا على منزل أمين بيت المال وقتلوه ،
واستولوا على أمواله ، بل وحاولوا نهب التحف الثمينة في أحد
المساجد لكن قادة الإنكشارية منعوهم من دخول المسجد ، وقتلوا
اثنين من أكثرهم وقاحة ، إضافة إلى تذكيرهم بفضل المسجد وما
للنبي صلى الله عليه وسلم ثم السلطان من حقوق وواجبات ، وتمكن
السلطان بفضل حكمته من تهدئة التمرد ، إضافة لشدة خوفهم من
العقاب إذا ما استمروا على تمردهم.^(١)

ومن أجل هذه التمردات والأعمال فكر السلطان سليمان في
تشيت رؤسائهم في عدة أماكن وقتل البعض وعزل الآخر ، من
أجل أن يأمن شرهم .^(٢)

وكان أكبر دور لعبته الإنكشارية في عهد السلطان سليمان
القانوني ما حدث عند وفاة إبنه مصطفى وبايزيد ، حيث تم قتل
إبنه مصطفى بمؤامرة من زوجة أبيه روكسلانة " خورم " ^(*)

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٨-١٩ .

(٢) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ .

(*) اللفظ الصحيح هو خرم ومعناه السعيد أو المسرور وليس الباسمة وفي إقليم كردستان من إيران بلد
باسم خرم شهر أي البلاد السعيد . كانت روكسلانة تنق برستم باشا فكاشفته عن رغبتها في القضاء
على إبن سليمان مصطفى ، فحاكوا مؤامرة مضمونها أن يكتب الوزير رستم السلطان في أثناء =

بالاتفاق مع الوزير رستم باشا ، وذلك حتى يتولى الحكم بعد سليمان
إبن روكسلانه سليم الثاني ، وقد أدى ذلك إلى تمرد الإنكشارية ولم
يكن بسبب رغبتهم في زيادة الرواتب أو الأعطيات ، وإنما بسبب
أن الوزير رستم باشا كان له ضلع في مقتل مصطفى الابن البكر
للسلطان سليمان ، ففي عام ٩٦٠هـ / ١٥٥٣م ثارت الإنكشارية
على السلطان والوزير معاً بسبب مقتل مصطفى ، لأنه كان محبوباً
عندهم وهم الذين قاموا بتربيته ، وثاروا جداً وطالبوا بعزل رستم
باشا بل وقتله ، فعزله السلطان تهدئةً لنفوسهم ، وترضية لهم ،
وعين بدلاً منه أحمد باشا . (*) (١)

أما بايزيد الإبن الثاني فتشير المصادر أنه مات مقتولاً وأن
الإنكشارية كان لهم دور في مقتله ، وهم بذلك حققوا لأوروبا فوائد
عظيمة أدت إلى توقف الفتوحات . (٢)

هناك رواية تقول بأن الذي قتله هو أبوه سليمان ، ولم يكن

= حربه مع الفرس ، ويوغر صدره على ابنه ويوهمه أن مصطفى يحرض الإنكشارية على عزل
والده وتعيين نفسه سلطاناً ، كما فعل سليم الأول مع أبيه السلطان بايزيد الثاني ، وعندما وصل هذا
الخبر إلى سليمان للأسف تغيرت أفكاره على ابنه ، وسافر لبلاد الفرس قاصداً ابنه متظاهراً بأنه يريد
قيادة الجيوش ، وما أن دخل عليه ابنه في سرائقة حتى قتله الحاجب الموكل له هذا الأمر خفناً وبذلك
مات ابنه مغدوراً به نتيجة وشاية وتدخل حريم . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ص ٢٤٦ .
(*) لم يستمر أحمد باشا في منصب الوزير كثيراً ، إذا لم يهدأ بال روكسلانه حتى أغرت زوجها مرة
أخرى على قتل الوزير البريء وإرجاع رستم باشا للوزارة مرة أخرى حتى ينفذ أغراضها ، وهكذا
أصبحت سبب رئيسي في فساد حكم سليمان القانوني . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ،
ص ٢٤٦ .

(١) ألبرت هوبولبير : مرجع سابق ، ص ٩٥ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٤٦

- ٢٤٧ .

(٢) ألبرت هوبولبير : مرجع سابق ، ٩٥٨ .

للإنكشارية دخلاً في ذلك .^(١) ولم يرد في المصادر التاريخية أن الإنكشارية اتفقت مع روكسلانه زوجة سليمان لقتل الأبناء ، ففي تلك الفترة لم يكن هناك اتفاق بين الإنكشارية وحريم القصر . ولكن خطورتهم كمنت في أن الإنكشارية لم يمنعوا سليم الثاني من اعتلاء العرش ، فلو قدر لمصطفى أو بايزيد حكم الدولة لأختلف الوضع لأنهما من أقوى أبناء سليمان وأكثرهم نشاطاً وحيوية وموهبة في إدارة دولة مترامية الأطراف .^(٢) أو بمعنى آخر لو قدر لهما حكم الدولة العثمانية لكانت السيادة العثمانية ستصل بصورة أكبر وأكثر مما كانت عليه ولتغير مصير معركة لبانتو سنة ٩٧٩هـ / ١٥٧١م . وكذلك حصار فينا ٩٧٩هـ / ١٥٧١م ولطال عصر القوة في الدولة العثمانية ولتأخرت سيطرة الإنكشارية على السلاطين والأحداث لفترة من الزمن .

بنهاية عصر سليمان تبدأ نقطة التحول في مسار الدولة العثمانية حيث بدأت بوادر عصر الضعف واتضحت الصورة التي بقيت عليها بعد ذلك وهي سيطرة قوى أخرى غير السلطان على الدولة وعلى السلطان نفسه .

توفي السلطان سليمان القانوني أمام قلعة سكودار^(٣) وقد أخفى الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا خبر وفاته حيث خاف من حدوث ما يربك الأمن العام أو قيام الإنكشارية بأي تمرد ، وأرسل

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٤٨ .

(٢) محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٧٩ .

(٣) سكودار أوسكيتوا مدينة حصينة في بلاد المجر . راجع إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٠٩ .

إلى سليم الثاني رسالة بكوتهاهيه (*) يخبره ب وفاة السلطان سليمان ، وكان ذلك على يد رجل من رجال الدولة المؤتمنين (**) ، وبعد ثمانية أيام أقبل سليم الثاني مسرعاً إلى العاصمة ، (١) ودخل استانبول وسط مظاهرات صاحبة قامت بها الإنكشارية ، فبعد انتهائه من الصلاة على أبيه أتجه إلى السراي السلطاني فعلى صراخهم وطالبوا بالعطايا والهبات التي جرت عليها العادة ، واتجهوا للوزير وطالبوا بها ، فلم يستمع لهم ، فقرروا الوصول إلى السلطان الجديد . (٢)

واعترضوا طريق سليم الثاني مظهرين استياءهم الشديد له ، بعربة مليئة بالتين ، وأوقفوا الموكب (***) وطلبوا الأعطيات من السلطان بمنتهى الجراءة ، لكي يسمحوا له باستكمال طريقه ، وطبعاً رضى لهم ، حيث توجه له محمد صوقللي ، وقال له أنهم لن يبارحوا أماكنهم حتى يسمعوا منك الوعد بالعطايا والترقيات ، وبالفعل وعدهم بإعطائهم الأموال بل وزيادة المرتبات بمناسبة

(*) كوتاهية : تقع في غرب الأناضول إلى الجنوب من باليقيصر وإسكي شهر . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٦٩ .

(**) يدعى الرجل حسن جاويش . انظر إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٠٩ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥١١-٥١٢ ، انظر إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٨ .

(***) لقد وقعت الإنكشارية عند مسجد شاه زاده حيث دبوا لملاقاة سليم الثاني ، واعترضوه بعربة فيها أعشاب وتين ، وأبدو ضجرهم أمامه ، عندما أراد أحد الوزراء تهدئتهم صرخوا به وقالوا نحن ليس عبيدك أو أنت صاحب الأمر والنهي ، وأوقعوه أرضاً وكل قائد أو وزير يتكلم يوقعوه أرضاً ولم يرضوا بأي ، تهدئة ، وأغلقوا باب السرايا حتى تم صرف الأعطيات . انظر إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٤ .

جلوسه على العرش ، حتى سمحوا له بالمرور والوصول إلى السراي ، وهكذا فتح الباب لعصيان الجيش وشق الطاعة على السلطان ، وبدأت القلاقل تدق الأبواب العثمانية . (١)

وهنا يتضح مدى ضعف شخصية سليم الثاني وعدم مناسبة الحكم ومدى خوف الصدر الأعظم منهم لإخفاء خبر الوفاة ثمانية أيام وفي أثناء هذه التمرد طالبوا السلطان بزيادة مرتباتهم بمناسبة جلوسه على العرش (٢) وقد أعطاهم ضعف رواتبهم خوفاً منهم (٣) . ويعتبر هذا العمل تدخلاً سافراً في حياة القصر السلطاني مع بروز حسد الإخوة بين بعض وتدخل الحريم بالأمر . (٤)

وعند سفر سليم الثاني إلى بلغراد صحبته الإنكشارية ، وعندما طالبوا بزيادة الرواتب ولم يلب رغبتهم ، أظهروا في طريق العودة التذمر وعدم الانصياع للأوامر وأتوا كثيراً من قبائح الأعمال وأسوأها ، وقد أرسل سليم الثاني إلى إستانبول ليرسلوا له الأموال ، فأرسل له الصدر الأعظم يخبره بفراغ الخزينة وعدم وجود أموال بها إلا قليلاً ، وأرسلها له ، فصرف لهم بعض العطايا ووعدهم بالباقي عند عودته إلى إستانبول .

وبدأ المسير لكن الإنكشارية قررت التشاور في الأمر عند التوقف في منطقة " لتروز " ، وتم القرار هناك ، أنه بعد دخول

(١) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٨ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٢ علي حسون : مرجع سابق ، ص ١١٣ إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

(٢) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٨ .

(٣) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٩ .

(٤) محمود شاكر : مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١١٣ .

إستانبول ، يقوموا بالوقوف والتجمهر والتمرد ، بل وبدأوا في الاعتداء على الوزراء، ومن ضمنهم الوزير الثاني برتو باشا (*) عندما أراد تهدئة ثائرتهم فقبضوا عليه وقتلوه وأهانوا فرهاد باشا ، وفي النهاية أشار الأمراء والصدر الأعظم على السلطان أن يهدأ ثورتهم بنفسه فتكلم معهم وسكن نفوسهم وصرف لهم المقدار المتبقي من المال (**) ، ثم ضرب الصدر الأعظم على يد العصاة وعاقب المتمردين ، وبذلك خاف الباقي وسكنوا إلى الهدوء . (١)

وهكذا قامت ثورتهم داخل القصر السلطاني وخارجه ، وأغلقوا الأبواب على السلطان ، وذلك بسبب ضعف الحكم وسوء التدبير والظلم وضياع الأموال ، وضعف شخصية السلطان . (٢)

وهنا نلاحظ خطوة مهمة عند الإنكشارية ، وهي تقديمهم على شخصية الوزراء بل وقتل بعضهم ، كما أنهم اتخذوا أسلوب التمرد وسيلة للحصول على الأعطيات ، وهذا مؤشر خطير سيرتفع مع مرور الأعوام .

(*) برتو باشا : من أصل كرواتي ، أو ألباني ، كان مدير مالي في عهد القانوني ، تدرج في الوظائف حيث صار أغا الإنكشارية لمدة ١٢ عام ثم أمير أمراء الروملي لعب دوراً أثناء صراع سليم الأول مع أبيه بايزيد ، ثم عين قائداً للأسطول العثماني ، وقام بعدة معارك بحرية ، وعلى عكس ما قيل عنه أنه فاشل وجبان فقد واجه الإنكشارية الغاضبة ونال منهم ضرراً كبيراً وقت اعتقاله سليم الثاني العرش ، توفي ١٥٧٤م وله زوجة اسمها فتوحة خاتون . الموسوعة التركية : ج٢٦ ، د.ط ، أنقرة ١٩٧٧م ، ص٤٧٦ ٤٧٧ .

(**) كان سبب تأخير توزيع المال فراغ الخزينة ، إضافة إلى عدم وصول الإيرادات للخرينة من الأقاليم . إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١١٠ .

(١) مرجع سابق ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٩ . علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(٢) حسين كمال البغدادي القادري : ورقة ٢١ .

وفي عهد السلطان مراد الثالث ٩٥٣هـ - ١٠٠٣هـ /
١٥٤٦م - ١٥٩٦م صرف للإنكشارية مائة وعشرة آلاف دوكة
ذهبية، وأعطى للوزراء أيضاً مثلها ، وذلك لكسب ودهم ومحبتهم
ولكن هذه العطية لم تؤت ثمارها المرجوة مع مراد الثالث . (١) فقد
انتشرت حالة الفساد العامة بين أفراد الإنكشارية والتي هزت جسم
الدولة منذ بداية عهده ، حيث بدأت تظهر أن طاعتهم كاذبة
ونظامهم خداع ، وانتشرت الرشوة بين الأفراد لنيل المناصب داخل
القصر وخارجه . (٢)

وفي عهد مراد الثالث بلغ الاستهتار عند الإنكشارية مداه ،
فقد ثاروا عليه لأنه صرف لهم رواتبهم بعملات ناقصة القيمة ، مما
أدى إلى تظاهرهم أمام القصر وطالبوا بالأموال الصحيحة ، وقد
ساعد على صرف هذه الأموال الناقصة تدخل اليهود في إستانبول
بشكل كبير في الاقتصاد العثماني ، كما سبق وأن أوضحت ، وهم
بذلك ساعدوا على إشعال الفتنة عند الإنكشارية ، مما ساعد على
إضعافها ، وهي التي تحمي الدولة العثمانية فتزيد بالتالي في ضعف
الدولة وهو ما كان يريده اليهود ، وما أن تم توزيع هذه الأموال
حتى ثاروا وتجمعوا حول القصر رغبة في قتل قائد الجيش ، (*)
والدفتر دار ، واستمروا على هذا الشغب حتى طلب منهم الوزير

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٥٩ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني : ص

١٣٣ علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٠٦ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية : مادة بني تشري ، ص ٤٤ .

(*) قائد الجيش محمد باشا والدفتر دار محمود أفندي . أنظر دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ،

ص ٤٥ .

فرحات باشا ، الهدوء والسكينة ، وقال أن طاعة ولاية الأمر واجبة ، ولكنهم شكوه للمفتي ، حيث اعتبروا ذلك تحقيراً لهم ، فرد عليهم المفتي بأن لا يقلقوا من هذا الأمر ، مما زاد في الأمر سوءاً ، وزادت ثائرتهم ، حتى طلب منهم السلطان أن يكفوا عن الشغب مقابل إعطائهم المال الصحيح ، وصرفت لهم من الخزينة أربعين ألف دوكة ذهبية ، وقد نثرها " الخازندار " عليهم في محاولة لتهدئتهم.^(١)

إلا أن هذا الأمر لم يفلح ، فقد استمر التمرد بل وطالبوا برأس فرحات باشا لأنه حقرهم في دينهم ، بل وقتل قائد الجيش الدفتردار^(*) إضافة إلى زيادة الأموال ، وهددوا السلطان بحرق المدينة ونهب المنازل مما جعل السلطان يحتاط داخل القصر ، كما تعدوا على المفتي بالحجارة وعلى الوزير محمد باشا ، حتى اضطروا إلى دفعهم بالهراوات حتى يذهبوا إلى منازلهم آمنين . وإزاء هذا الموقف الخطير اضطر مراد الثالث إلى إصدار قرار يقضي بقتل قائد الجيش والدفتردار ، وقطع رؤوسهما وإلقائهما من القصر على الجند حتى يهدأوا ، لكن ذلك لم يمنعهم من إشعال النيران في المنازل والفساد في المدينة ونهب بيوت الأهالي ، وتم توزيع مئة ألف دوكة ذهبية عليهم ، وهكذا انتهى تمردهم.^(٢) بتنفيذ جميع رغباتهم بالقوة دون نقص ، مع ترايد طمعهم . وقد ذهبت

(١) سليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص ١٦، ١٧ . أنظر دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ،

ص ٤٥-٤٦ . انظر جوزيف فون هامر : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(*) الدفتردار أي ناظر المالية " كوزير المالية في وقتنا الحالي .

(٢) مرجع سابق ، ص ١٣١ . انظر دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص ٤٥-٤٦ .

هاتان الشخصيتان ضحية لطغيان الإنكشارية . وكان في قتلها تحدياً لإرادة السلطان مراد الثالث حيث أرغموه على الأقدام على أمر ضد رغبته .

والواقع أن تمرد الإنكشارية في عام ٩٩٨ هـ / ١٥٨٩م لم يكن حادثاً سهلاً في التاريخ العثماني، بل كان ذو تأثير ووقع كبير ، فقد ازدادت بعدها شوكة الإنكشارية ، وأصبحت لهم صلاحيات ، ونفوذ في القصر السلطاني أكثر من السلطان ، بالإضافة إلى دخول عناصر جديدة في صفوف الإنكشارية ، وكان هؤلاء بمثابة جواسيس على الدولة ، مما مثل خطورة على أمن الدولة الداخلي والخارجي . (١) (*)

وقد أكد المؤرخون أن عدد تمرداتهم في عهد مراد الثالث ، بلغ عشر تمردات ، وكان المحرك الأساسي لكل واحد هو تأخير رواتبهم مدة طويلة . (٢)

وهكذا كانوا يرون ما سيحدث في أحوالهم داخل القصر وإذا لم يستجيب لهم أحد ثاروا وقاموا بالفساد . (٣)

وكانت زيادة التمردات في عهد مراد الثالث مردها إلى عدة أسباب أخرى منها أنه أمر بضم عدد كبير من المجندين المسلمين ،

(*) لقد أرجع بعض المؤرخين الوضع الحالي في تركيا الآن من تدخل للجيش في أمور الدولة ، ووجود صلاحية للجيش في تغيير السلطة إنما يعود بجذوره التاريخية إلى تمردات الإنكشارية ، انظر سليمان قوجسه باش : مرجع سابق ، ص ١٨ .

(١) مرجع سابق ، ص ١٧-١٨ .

(٢) جيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٠ .

(٣) حسين كمال البغدادي القادري : ورقة ٥٥ .

فترتب على ذلك إلغاء الحظر المفروض عليهم بعدم الزواج ، وقد طالب الإنكشارية بذلك وثاروا ، فاستجاب لهم السلطان .^(١) إضافة إلى دخول عناصر جديدة تفتقر إلى التدريب والمهارة العسكرية في صفوف الإنكشارية ، ساهم في إثارة الشغب والأعمال السلبية التي لا تخدم توجه الدولة واهتماماتها . وبالطبع هذا الخليط غير المتجانس لا يمكن أن يكون قادراً على خوض معركة أو فتح بلاد . وبالمقارنة بما حدث متأخراً في تركيبة الجيش الإنكشاري سيتضح الفرق الشاسع ، فعندما كان الجيل الأول من الإنكشارية متقارب في تكوينه ويعيشون في ثكنة واحدة ، في سن متقارب نشأوا كفرقة واحدة، متجانسين متفاهمين ، استطاعوا تحقيق الفتوحات العظيمة لأنهم بنيان واحد ، أما ما حدث في العصور المتأخرة من اختلاط كبير غير متجانس في الجيش الإنكشاري فقد كان له آثاره ، بحيث أصبح الجيش يمثل عبأً كبيراً على كاهل الدولة ، إضافة إلى ما يثير من شغب وقلق وفساد ونهب وغير ذلك من الأعمال التي لا تنتهي .^(٢)

وينتهي عهد مراد الثالث الذي يعتبر نقطة التحول الحقيقية في أعمال الإنكشارية، ويأتي بعده محمد الثالث ٩٧٤هـ - ١٠١٢هـ / ١٥٦٦م - ١٦٠٣م الذي شهد زيادة في تمرد الإنكشارية وتدخلاتهم في السلطة دون رادع .^(٣)

(١) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ص ٢٥١ .

(٢) مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

(٣) محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٤ .

وقد ترك السلطان محمد الثالث الحبل لهم كما أرادوا وأهمل شؤون دولته وغرق في الملذات والسمر ، ونتيجة لإهماله لشئون البلاد عمت الفوضى في القصر السلطاني وسائر أنحاء البلاد .^(١)

وكان أهم تمرد للإنكشارية في عهده عام ١٠٨١هـ / ١٥٩٩م وكان السبب الرئيسي لتلك الحركة امرأة يهودية من الحريم إسمها إستر كيرا تعمل وصيفة عند إحدى أمهات السلاطين وهي نوربانو ، وقد اشتهرت هذه المرأة بأنها كانت تتلقى رشاي في مقابل تسهيل منح الرتب والإقطاعيات لمن يريد من الأغنياء ، وحققت بذلك أموالاً طائلة وقد استطاعت أن تُعين شاباً يهودياً كاتباً للواء الإنكشارية ، فرفضوا هذا الأمر وثاروا عليها ودخلوا منزلها وقتلوا وصادروا أموالها،^(٢) التي بلغت خمسة ملايين أقة .

ويعتبر هذا التمرد من التمردات المقبولة في أسبابها ، فلم تكن لطلب المال أو عزل سلطان أو صدر أعظم ، وإنما كانت ضد عمل خطير يمس سياسة الدولة العامة .

وفي عهد محمد الثالث كان الصدر الأعظم حسن باشا مشهور بأنه لا يولي أحداً في منصب إلا بالرشوة ، فثارت الإنكشارية باستانبول وهجموا على السراية ، وطلبوا من السلطان ، مقابلتهم على الباب الخارجي فهددهم وسأل عن طلبهم ، فقالوا إن الصدر الأعظم مذنب، فرد عليهم السلطان ، هذا رأيكم ، سوف أرى ما

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٢) وقد ذكرت توضيحات عن هذه التمرد في تاريخ نعيماً حيث ذكرها كسبب رئيسي لحدوث التمرد .

انظر سليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص ١٨ .

لصالح الدولة (*) (١)

وفي غمرة الأحداث السابقة قامت الإنكشارية بتمرد عنيف امتدت مضاره إلى داخل القصر السلطاني ، وكان سبب هذه التمرد تأخر دفع رواتب الجند لمدة طويلة ، مما جعلهم يجتمعون في ساحة القصر الداخلية، كل يوم مطالبين بحقوقهم ، وعندما لم يجدوا نتيجة ولم يعيرهم أحد انتباهه ، قاموا بإشعال النار في القصر بمن فيه ، وعندئذ صحا السلطان من غفوته بين الحريم في القصر ، وطلب منهم إرسال من يمثلهم ، فتقدم رئيس (**) الوفد من السلطان وشكا إليه بكل جرأة الظلم الذي وقع عليهم ، وطلب من السلطان أن يضرب عنق الصدر الأعظم ورئيس الخصيان ، إضافة إلى دفع رواتب الموظفين ، ولم يرفض السلطان طلباتهم ، " ثم تعيين فرهاد باشا (***) في الصدارة العظمى " فأمر بإحضار رئيس الخصيان والصدر الأعظم واللذان حاولا تبرئة نفسيهما ، بأن قالوا أنهما كانا ينفذان أوامر السلطانة الوالدة ، ولكن ذلك لم يفيدهما بشيء ، حيث

(*) عندما لمس الشاه عباس ، شاه إيران ارتباك الدولة العلية ، هجم على العراق ، معتبراً أنها من أملاكه وأجداده. إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص ١١١ .

(١) مصدر سابق ، ص ١١١ .

(**) كان أحد قادة الصباحين واسمه حسين ، حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(***) فرهاد باشا : من أكثر الوزراء براعة في الدولة العثمانية ، تولى منصب الصدارة العظمى مرتين ، في عهد مراد الثالث ومحمد الثالث . تم إحضاره من ألبانيا وهو طفل وتم عزله وهو أغا الإنكشارية من قبل سنان باشا ، فقد كانت علاقتهم على نزاع دائم ، ومات في "سجن يدي" قوله بتحريض من سنان باشا ، الموسوعة التركية : ج ١٦ ، د.ط ، أنقرة ١٩٦٨م ، ص ٢٥١ .

تم خنقهما أمام السلطان ، وألقيت جثثهما أمام الإنكشارية مع أكياس النقود ، فكان هذا كفيلاً بتهدة ثورتهم .^(١)

وبعد ذلك حدثت حادثة أخرى في عهد أحمد الأول ٩٩٨هـ — ١٠٢٦هـ / ١٥٨٩م — ١٦١٧م ، حيث ثارت الإنكشارية على السلطان عندما منع تدخين التبغ^(٢) بفتوى أصدرها المفتي ، وتجمع الإنكشارية والجند في ساحة القصر حتى اضطر السلطان إلى إياحته مرة أخرى.^(٣)

لقد زادت تعديات الإنكشارية على الأهالي ، وعلى رجال الدولة ، فتعدوا على القاضي العام وعاملوه معاملة حقيرة ، وعندما حاولت السباهية التصدي لهم اشتبكت معها الإنكشارية وقتلت منهم الكثير، ونفت الباقي ، فشكوا للصدر الأعظم هذه المعاملة القاسية ، إلا أن الصدر الأعظم لم ينصفهم ، وانحاز إلى الإنكشارية على الرغم أنه يعلم أن هذا العمل سيغضب الأهالي عليه ، لكن الإنكشارية انقلبت عليه ، لأنه ليس لها حليف ، وتم عزل الصدر الأعظم وتعيين غيره .^(٤)

كانت العادة المتبعة في تعيين السلاطين ، إختيار الإبن الأكبر للحكم ، ولكن السلطان أحمد الأول خالف هذه العادة وأوصى بالحكم لأخيه من بعده لصغر سن إبنه ،^(٥) فتولى أخيه مصطفى

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) لقد أدخل القلمنك استعمال التبغ إلى البلاد الإسلامية أي تدخين الدخان ، أنظر محمد فريد

المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٥ .

(٣) مصدر سابق ، ص ٢٧٥ .

(٤) كامل باشا : ج ٢ ، مصدر سابق ، ص ٤٤ .

(٥) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٥ .

الأول الحكم (*) ١٠٠١هـ - ١٠٤٨هـ / ١٥٩٢م - ١٦٣٨م وفي عهده لعب الإنكشارية دوراً في السلطة داخل القصر ، لا سيما وأنه كان قليل الخبرة ، ضعيف الإرادة ، فغداً ألعبوبة في يد الإنكشارية . ولهذا لم يستطع القيام بأعباء الحكم في الوقت الذي كان لابد فيه أن يتم تنصيب عثمان الثاني الشاب الذي كان قوي البنية ، سليم العقل ، معافى ، لسبب لم يعرف حتى الآن . (١)

تري الدراسة أن الإنكشارية اختارت تنصيب السلطان الأنسب لها ، لا سيما أن مصطفى الأول كان ضعيف الشخصية مسلوب الإرادة ، وهو ما أرادته الإنكشارية لاستمرار نفوذها الذي بنته في عهد أحمد الأول ومن سبقوه ، كما أن أحمد الأول هو من وضعه في ولاية العهد ، لصغر سن ابنه عثمان ومراد ، كما أن الإنكشارية نصبته حتى تأخذ العطايا والهبات التي تصاحب تولي كل سلطان ، وقد أرادته الإنكشارية لكي تسيطر على مقاليد الحكم ، ويبدو أن هذا هو السبب . أما عن عزله فلم يعرف سبب ذلك ، فقليل أنه عزل لاختلال في عقله ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه يعاني من ضعف في البنية ، والإرادة ، فهذا سبب واهي ، كما وأن الإنكشارية لكي تبرر عزله أطلقت هذه الكذبة ، ساعدها في ذلك قلة

(*) مصطفى الأول : قضى هذا الأخير طوال عمره داخل سراي الحريم في القصر السلطاني ، ولم يعرف أشغال الدولة مطلقاً ، ولم يعرف من الأمور السياسية شيئاً كما كان عادة بني عثمان أن يولوا الأمراء الصغار بعض المدن والولايات للتعرف على الأمور السياسية ، لقد ولي السلطنة مرتين وخلع مكرهاً من العرش مرتين ، كان ضعيف الإرادة لا رأي له وكان ألعبوبة في يد الإنكشارية والمنتفعين من حوله . راجع محمد جميل بيهم : أوليات سلاطين تركيا ، د. ط ، صيدا : مطبعة العرفان ، ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١م ، ص ٢٧ .

(١) عبد القادر ده ده أوغلو : ألبوم العثمانيين ، ترجمة محمد جان ، د. ط ، استانبول : الدار العثمانية للنشر ، د.ت ، ص ٦٠ .

خبرته السياسية، أو ربما لأن الإنكشارية تآقت نفسها للعطايا والهبّات.

وقد حصلت الإنكشارية على حوالي مليوني دوكا ، كهبات وعطايا بمناسبة جلوسه ، وانتقل من قصر داود باشا إلى القصر الهمايوني لتولي مقاليد الأمور . (١)

عندما رأى المفتي أن " مصطفى الأول " لا يملك من الهمة والدراية السياسية ما يؤهله للجلوس على عرش آل عثمان ، حاول إثارة الإنكشارية عليه ، ولكن الإنكشارية كانت تريده لكي تسيطر على الأمور، وعندما غادر الإنكشارية العاصمة بقيادة الصدر الأعظم لمقاتلة الفرس، انشغل السلطان مصطفى بأحواله ، ولم يبال بأمور دولته ، وأشاع المتآمرون عليه أنه يعزم على قتل أولاد أخيه ، لخوفه من أن يخلفوه ، وانتشرت هذه الشائعة حتى وصلت إلى مسامع الإنكشارية فسارعوا في العودة إلى العاصمة . وأثناء ذلك استطاع القائمقام أن يخرج السلطان من العاصمة بحجة الصيد ، وأثناء غيابه دخلت الإنكشارية العاصمة . فسارع المفتي بإصدار فتوى بخلعه . (٢)

ومن جراء هذه الإشاعة الفاسدة التي لفقت له وبولغ فيها كثيراً صاحبت الإنكشارية إليه مطالبة بتولية سلطان آخر ، وعزل مصطفى ولم تصل أيدي الإنكشارية إليه ، ولم يقتلوه بسبب عدم

(٢) كامل باشا : ج ٢ ، مصدر سابق ، ص ٤٤ .

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٥-٢٦ .

وجوده في العاصمة ، وأتمت الإنكشارية ما أرادت . (١)
وعملت الإنكشارية على استبدال مصطفى الأول فلم يكن قد
مضى على ولايته ثلاثة شهور حتى خلعه بمؤامرة سنة
١٠٢٦هـ / ١٦١٨م . بناء على فتوى من شيخ الإسلام أصدرها
لعزله وتولى عثمان الثاني الحكم . (٢) وقد اشترك في عزله
الإنكشارية وأرباب الغايات ، وعلى رأسهم المفتي وقيز لراغا سي (*)
وهو أغا القصر السلطاني وذلك لتوزيع الهبات والعطايا عند
تولي كل سلطان جديد . (٣)

تولى عثمان الثاني الشاب الحكم ١٠١٣هـ - ١٠٣١هـ /
١٦٠٤م - ١٦٢١م وقد حكم لمدة أربع سنوات وأربعة أشهر . (٤)
واستهل حكمة بنشر النقود على الإنكشارية مكافأة لهم على تنصيبه
سلطاناً . (٥)

وعندما بدأ بعض الإنكشارية يتعاطون شرب الخمر أجاز
السلطان قانوناً بمعاقبتهم ، وأغلق حانات الخمر (٦) كان يقتل كل من
يصادفه ثماً سواء من الإنكشارية أو أهالي المدينة ، وبما أن

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٢) عبد القادر أوغلو : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٣) قيز : معناها بنت وقيز لربنات والأصح أن تترجم هذه الكلمة بأغا المحظيات محمد فريد المحامي :
مصدر سابق ، ص ٢٧٦ .

(٤) مصدر سابق ، ص ٢٧٦ . سعيد أحمد برجوي : الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي
والعسكري ، د. ط ، بيروت : الأهلبي للنشر والتوزيع ، ١٩٩٣م ، ص ١٥١ .

(٥) مؤلف مجهول : مخطوط تاريخ آل عثمان ، محفوظه في مركز الملك ، فيصل للبحوث
والدراسات الإسلامية تحت رقم ٦٠٠٤١٩ ، ورقة ٣٥ .

(٦) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٧) أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص ١٩٥ .

الإنكشارية كانوا يميلون أكثر من سواهم إلى شرب الخمر ، فمعظم من قتلوا من أفرادهم . وشيئاً فشيئاً أخذت الإنكشارية تضمر له السوء والشر ، ومما زاد في الأمر سوءاً أن الصدر الأعظم عزل أغا الإنكشارية عن منصب قائم مقام الصدارة ، مما زاد من حقدهم على السلطان عثمان الثاني ، إضافة إلى أن السلطان كان لا يتفق مع الإنكشارية ويكرههم ويجاهر بمقتله للإنكشارية على الرغم من تنصيصهم له فهو لا يثق بهم ويكرههم .^(١)

وكان لإعلانه الذهاب إلى الحج ، ورفض كل محاولات رجال الدولة لإثنائه عن هذا السفر ، تصادف هذا مع عصيان الإنكشارية ، والتي كانت لا تريده أن يغادر القصر دون معرفة نيته .^(٢)

وبالنسبة لهذا السلطان فإننا نجد أن تعدي الإنكشارية على السلطان والقصر بلغ مداه من القسوة ، والخشونة وعدم وجود رادع يثنيهم عن أفعالهم فقد كان نقطة تحول خطيرة في الدولة العثمانية سيطرت بعدها الإنكشارية على السلطان ونسيت ماضيها في الجهاد .

وكان معروفاً أن سلاطين العثمانيين لا يخرجون للحج برغم أنهم خلفاء ، لأن مناسك الحج تستغرق وقتاً طويلاً ، مما يؤدي إلى ابتعاده عن أعمال الدولة مدة طويلة ، وقد كانت لهم فتاوي صدرت من شيوخ الإسلام تفيد بأن أداء السلطان لعمله في العاصمة ،

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٦-٢٧ .

(٢) يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

واشتغاله بأمور الدولة والأهالي ، عبادة تفوق عبادة الحج . وما هي إلا ساعة حتى اجتمعوا أمام سراي طوب قابي ثائرين ، حاملين في أيديهم الفتوى التي حصلوا عليها من شيخ الإسلام خوجة أسعد أفندي ، والتي تقول " لا لزوم لحج البادشاه (أي السلطان) ، البقاء في مكانهم والحكم بالعدل أولى لهم . حتى لا تكون هناك فتنة " . وكانت الإنكشارية ترغب بعدم مغادرة عثمان لإستانبول ، فما كان منه إلا أن مزق الفتوى وألقاها في وجوههم وأصر على الخروج للحج ، فأنقلب الوضع إلى تمرد ، فتأكدت الإنكشارية أن السلطان سيبيطش بهم مع أول فرصة ، وهنا نجد أن السلطانة الوالدة ، والدة مصطفى الأول تعاونت مع الإنكشارية في هذا التمرد ، ^(١) وكان ذلك من أهم أسباب التمرد على عثمان الثاني ، وقد برز فيها تدخل الحريم بشكل كبير مما أدى إلى مقتل عثمان في النهاية .

وخير دليل على سيطرتهم على القصر ، ما حدث للسلطان عثمان الثاني عندما أراد أن يتزوج من أخت السلطان محمد الثالث مع عزمه على إبطال الإنكشارية ، ولكن العلماء ورجال الدين حذروه من عاقبة هذا التصرف ، ومن العاصفة التي ستهب عليه ، وأنه لن يرى من رعيته إلا العصيان والتمرد والتخريب ، فأجابهم بغطرسة بأنه سيمحق كل ما يعترضه ، وأنه سيبيد الإنكشارية على الخصوص عن بكرة أبيهم ، ويقتلهم وسيسحق علماء الشريعة سحقاً فألقى هذا الجواب الرعب والفرع في قلوب العلماء ، وانطلقوا إلى

(١) يلماز اوزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

جامع السلطان أحمد وأخبروا زعماء الإنكشارية بوعيد وتهديد السلطان لهم . (١)

وما هي إلا لمحة عين حتى سار الشعب والجند إلى القصر السلطاني صائحين ، ومطالبين بضرب عنق الصدر الأعظم والشيخ عمر مؤدب السلطان ومستشاره وأكبر خصم لأغا الإنكشارية ، ومع كل الغيظ الذي يعتل في نفوسهم ، والصخب الذي أحدثوه لم يؤنوا أحداً وعادوا إلى ثكناتهم يعدون العدة للانتقام . (٢)

وعلم الناس بما أجاب السلطان فسيطر عليهم القلق والفزع واشتعلت بينهم نيران الفتنة وأصبحت الأوضاع داخل القصر غير مطمئنة وأُنذرت الغيوم الملبدة في سماء القصر أن مأساة كبيرة ستحدث . (٣)

وفي اليوم التالي مع طلوع الفجر ، خرجوا من ثكناتهم ، بكامل أسلحتهم وتوجهوا إلى القصر ، وأرسلوا الدفتردار إلى السراي ، نائباً عنهم وطالب برأس الشيخ عمر قوجه والصدر الأعظم وبعض الرجال من نوي المناصب في الدولة مثل كبير أمناء بيت المال ، فزجرهم السلطان ورفض طلبهم ، غير مدرك لخطورة الموقف ، ورفض قطعياً إجابة طلبهم ، فهجمت الإنكشارية على جدران القصر وحطمتها ، والإنكشارية الباقية كانوا يحملون

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٨ . انظر خليفة محمود : المرجع السابق ، ص ٣٧٩ .

(٢) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٨ .

(٣) خليفة بن محمود : مرجع سابق ، ص ٣٧٩ .

السيوف في يديهم ، متأهبين لدخول القصر ، والفتك بمن فيه ، وعندما حاول الصدر الأعظم تهدئتهم ثاروا وانقضوا عليه وقتلوه . (١) كما أعتقد العلماء أنه بالإمكان إقناع عثمان الثاني وإثناؤه عن أسلوبه الفظ ، ولم يطلبوا خلعه بشكل قطعي . (٢) وكان الشوربجي داود قائد الإنكشارية ، في أقصى درجة التمرد والهياج ، وعندما صاح بهم رجل وقال " لا نريد سلطاناً إلا مصطفى . أين هو . ليأت ويجلس على العرش " وأخذت تردد الإنكشارية هذا القول . وانطلقت تبحث عن مصطفى ، في المكان المحبوس فيه ، واهتدت لموقعه وكسروا سقف الغرفة ببيلطانهم ودخلت عليه الإنكشارية فوجتته نائماً على فراش بال ، وعنده خادمان أخرسان جالسان أمامه ، استيقظ مصطفى على جلبتهم ، وظن أنهم جاءوا لقتله فمد لهم عنقه بكل خضوع وخوف ، فأكبوا على أقدامه يقبلونها ، وقالوا له أنت سلطاننا ، فأخرج معنا ، وأخرجوه فما أن صار في الهواء الطلق حتى أغمي عليه ، وساروا به إلى جامعهم ونصبوه سلطاناً . (٣)

وقد حاول العلماء طلب العفو من الإنكشارية عن السلطان عثمان الثاني ونصحوهم بأن يتركوا مصطفى وشأنه ، وهو الذي

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٨ . يوسف أصاف : تاريخ سلاطين بني عثمان ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مديولي ، ١٤١٥هـ - ١٩٥٠م ، ص ٧٧ . للاستزادة عن هذا الصراع الرجوع إلى جوزيف فون هامر : مرجع سابق ، ص ٢٢٨-٢٣٠ .

(٢) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤١٣ .

(٣) أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص ١٩٥ - ١٩٦ . انظر حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٨ . للاستزادة الرجوع لأحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

أرغمهم على خلعه المرة الأولى لضعفه وعدم قدرته على القيام بمهام الدولة . وأثناء ذلك استيقظ مصطفى الأول من إغمائه ، وطلب أن يكون هو السلطان، فجدت الإنكشارية سيوفها مهددة العلماء والمفتي بالقتل إذا لم يوافقوا ، فأقسم المفتي يمين الولاء لمصطفى ثم حذا حذوه جميع العلماء . (١) وفي أثناء هذه الأحداث ، علم السلطان عثمان ما جرى فأسرع على أمل أن يجد حلاً يجعل التأثيرين يكفوا عن العصيان ، فنصح ضابط الجند بأن يعطي العسكر خمسين دوكاً ، وخمسة أذرع من الجوخ ، وعندما ذهب للعسكر ، وقال لهم ذلك ، تأثروا من صغر سنه وصرخوا ليتنحى عن الملك وإنما ليس لأحد أن يمسه بأذى فذهب من فوره إلى قصره . (٢)

لكن الإنكشارية عادت وهجمت على أبواب القصر ، وسلطت مدافعها حتى سقطت الأبواب ، ودخل الإنكشارية القصر كالسيل الجارف لا يردهم شيء ، حتى استطاعوا الوصول إلى مكان السلطان عثمان فأخذوه عنوة وشدوه خارج القصر ، وطافوا به في شوارع إستانبول طواف الازدراء والمهانة ، وبمنتهى الذل قادوه إلى قلعة ذات السبع (*) مع شتمه ونعته بأبشع الألفاظ ، موسعينه ضرباً ، وسجنوه في هذه القلعة، بأمر من صاحب الديوان ، وكان هذا يحدث لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية ، حيث كان ذلك

(٢) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٩ .

(١) مرجع سابق ، ص ٢٩ . انظر أحمد زيني تحلان : مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

(٢) تدعى بقلعة ذات السبع " يدي قوله " . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٨ .

إهانة وتحقير لهيبة السلطان ، ولم يكتفوا بذلك بل انتهكوا حرمة قصره بالقبض على نساءه وزوجاته والاستيلاء عليهن،^(١) ونجحت الإنكشارية بذلك في خلع السلطان عثمان الثاني في ٩ رجب ١٠٣١هـ / ٢٠ مايو ١٦٢٢م ، بعد حكم دام أربعة سنـوات وأربعة شهور وكان عمره ثمانية عشر عاماً ، وأعيد مصطفى الأول مرة أخرى للحكم .^(٢)

أما عثمان سجنوه في نفس السجن الذي كان فيه مصطفى الأولي، والذي أصبح فيما بعد السجن الرسمي للدولة العثمانية ، وفي اليوم التالي للفتنة سلموه لرجال^(*) موكلين به ، حيث كانوا في انتظاره ، وأوسعوه ضرباً وتولوا قتله شنقاً^(**) حيث خنقوه بخيط من حرير في ظلام السجن بشكل بشع منتهكة حرمة ولادة الأمر ، بأمر من داود باشا ،^(٣) وهذا الصدر الأعظم قد عينته الإنكشارية ،

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٨ . انظر يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص ٧٧ .
(٢) محمد مختار : التوقيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنيين الإفرنجية والقبطية ، ج ٢ ، دراسة محمد عمارة ، الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م ، ص ١٠٦٧ . انظر محمد فريد المحامي : ص ٢٧٨ .

(٣) أسماء الرجال الذين تولوا قتله هم : داود باشا وعمر باشا الكيفيا وقتلر أوغلي انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٨ .

(**) وردت رواية أن داود باشا اخذ السلطان عثمان الثاني إلى مكان آخر ليبيعه عن الإنكشارية ، وفي اليوم التالي أمر بقتله أمامهم ، ثم قطع أنفه وأرسلها في صندوق إلى السلطان مصطفى الأول ، بعد أن كتب عليها "هدية يقدمها لجلالة السلطان وزيره الأمين المخلص" انظر حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٩ ولكن هذه الرواية لا يجزم بحجتها لعدم إجماع المؤرخين عليها ، فقد وردت في مرجع واحد .

(٣) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٩ انظر محمد الفريد المحامي ، ص ٢٧٨ . محمد جميل بيهـم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٤ عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، ص ٥١٤ . يوسف أصاف : ص ٧٧ .

حيث قاموا في تلك الفترة بتعيين ستة وزراء كل من يدفع أكثر يتم تعيينه . (١)

لقد كانت هذه الحادثة الأولى من نوعها في الدولة العثمانية وكان قتل السلطان بهذه الطريقة البشعة لم يكن إلا نذير شؤم على الدولة وإيذاناً بقوة سيطرة الإنكشارية على مقاليد الحكم ، لقد ارتكبوا هذه المعصية والإثم غير مبالين بالجرم العظيم الذي ارتكبوه ، ولقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بطاعة ولاة الأمر من دون معصية الخالق لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فمندوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) (*) ولكن أين كانت هذه الآية عن ذهنهم وهم يقومون بهذه الفعل الشنعاء البغيضة ، استهانوا بشخصية الحاكم وخطوا من قدر السلاطين ، فكانت إبادتهم أفضل من استمرارهم .

وهكذا أصبح السلطان عثمان الثاني أول ضحاياهم البارزين ، ونقطة انطلاق جديدة للإنكشارية في اتجاه طغيانهم وجبروتهم ، وجراتهم وممارستهم لكثير من السيطرة على السلاطين ، إضافة إلى العنف والقسوة مع الأهالي ، وابتزاز الأموال في أعقاب مقتل عثمان ، الذي أراد إيادة الإنكشارية ليتخلص من شرورهم فتخلصوا منه وقتلوه . (٢)

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٣ .

(٢) سورة النساء ، آية ٥٩ .

(٣) محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٤ . انظر عبد الكريم رافق : مرجع سابق ،

وأصبحوا مثل الطوفان الجارف الذي لا يردّه شيء وبدلاً من أن يكونوا حماة للدولة أصبحوا من أهم معاول الهدم والتخريب فيها .

وبعد هذه المأساة نصبوا مصطفى الأول للمرة الثانية على الرغم من بقاء ضعفه في الحكم ، وأصبحت الحكومة العثمانية من يومها ألعوبة في أيدي الإنكشارية ، تسلطوا على القصر السلطاني وأصبحوا يولون ويعزلون الوزراء كيفما شاءوا ويبيعون مناصب القصر والوزراء لمن يجزل العطاء ، وكان ذلك جهاراً وعلى مسمع الناس ، وارتكبوا كافة أنواع المظالم في القصر وأصبح لا يردّهم أحد . (١)

فمثلاً عزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضعة أيام ، لقد ارتكب هذا الأخير عدة جرائم فقد قتل القائم مقام ، ورئيس الخصيان ، وثلاثة آخرين ولم يلبث أن تلقى العقاب الذي استحقه ، حيث هال الإنكشارية ما ارتكبه من فظائع فساقوه إلى نفس الحجرة التي قتل فيها عثمان الثاني وقتلوه هناك . ثم تقلد منصب الصدارة العظمى حسين باشا الذي كان محبوباً من الإنكشارية ، فهدأت أحوالهم ، بتوزيع الأموال عليهم . (٢)

لقد جرت المؤامرة والتمرد بشكل لم يخطر على بال أحد ، فقد وقع العلماء في حيرة من أمرهم ، خافوا من فكرة إجلاس مصطفى الأول ، والذي لا يصلح للحكم بأي شكل ، كما وأن مراد الرابع كان لا يزال دون العاشرة ، وأصبح واضحاً أن التمرد فقد

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٩ .

(٢) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٩-٣٠ .

منطقيته ، وأن الإنكشارية ستضع مصطفى الأول حتى تحصل على إكرامية الجلوس ، ثم تخلعه وتحصل على إكرامية أخرى عند تعيين مراد الرابع وهذا يدل على طمعهم ، ومرة أخرى يظهر الحريم على السطح بشكل سيء ، فقد حصلوا على وعود ورشاوي من والددة السلطان مصطفى الأول – السلطانة الوالدة – وأخته زوجة الوزير داود باشا حتى يتم تعيين مصطفى الأول في الحكم ، فقد بايع العلماء السلطان مصطفى الأول تحت ظل السيوف ، ولأول مرة في التاريخ العثماني منذ جلوس محمد الفاتح في ٨٥٥هـ / ١٤٥١م يتم جلوس سلطان مرتين ، ولن يتكرر هذا الأمر بعد هذا الحادث . (١)

لقد كان رؤساء الإنكشارية يريدون الإبقاء على حياة عثمان خاصة وأن مصطفى معتل الصحة وغير قادر على الحكم ، لكنهم تلقوا أوامر من السلطانة الوالدة وأخت مصطفى الأول ، بضرورة قتل عثمان ، فلم يستطع رؤساء الإنكشارية التحكم في متبوعيه من الإنكشارية . (٢)

وقد ظهرت هنا سطوة الحريم خاصة في هذا التمرد ، حيث استطاعوا تحريكه كما أرادوا ، فقد تمكنت السلطانة الوالدة ، وابنتها وزوجها من تعيين مصطفى الأول على الرغم من معرفتهم بعدم قدرته على الحكم ، إلا أنهم دفعوا الرشاوي ، وحركوا التمرد في

(١) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٦٣ . لمزيد من التفاصيل عن دور الحريم في هذا

التمرد الرجوع إلى محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٥٨٨ .

(٢) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٦٣ .

اتجاه قتل عثمان الثاني حتى يتم لهم الأمر ، ولكن فسدت الأمور بتدخل الحريم وإرضاء رغباتهم ونزواتهم .

وكانت السلطة الحقيقية في يد الإنكشارية ، وقد طالت سلطنة السلطان مصطفى الأول على نحو غير متوقع كانت السلطنة الوالدة خلالها بمثابة نائبة السلطنة ، وانتشرت الفوضى في القصر ، كردة فعل لمقتل السلطان عثمان ، فكان الشعب يبكيه ، فأمر مقتله يعتبر كربلاء^(*) التاريخ العثماني ، وقام داود باشا زوج أخت السلطان مصطفى على أثر هياج الإنكشارية ، بنهب سراي طوب قابي ، وسرقة الخيول والسيوف والحاجيات الأثرية ، ولم يترك ثمين إلا واستولى عليه .^(١)

وهذا تمرد الإنكشارية بعد توزيع مبلغ مليون ونصف عملة ذهبية عليهم ، هبة الجلوس للسلطان الجديد .^(٢)

على أن هدوء الأوضاع لم يستمر طويلاً ، إذ أن مصطفى الأول لم يكن أحسن حالاً من الأولى إذ عمت الفوضى الأقاليم ، لأن السلطة الفعلية كانت بيد الإنكشارية ،^(٣) وتعرضت البلاد للنهب ، واستشعرت الإنكشارية من كما نكش^(**) علي باشا تأيدهم ، فعينوه في الصدارة العظمى ، وزادوا في النهب والسلب ، وما أن شعبوا

(*) كربلاء : هي الموقعة التي قتل فيها الحسين بن علي عام ٦١هـ ، على يد عبيد الله ابن زياد إبان حكم الدولة الأموية في دمشق .

(١) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦٤ .

(٣) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣٠ ، أنظر سعيد أحمد برجاولي : مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

(**) معناها اللغوي : الماهر بالرمي عن القوس ، واصطلاحاً تعني الماهر الحاذق . انظر محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٤ .

حتى بدأوا يخططوا لعزل مصطفى الأول ، فأجتمع حسين باشا بعد عشرة أشهر بالعلماء ، وكبار رجال الدولة ، للتفاوض في ما هو أصلح للدولة ، فاستقر الرأي على عزل السلطان مصطفى الأول مرة ثانية ، ومبايعة مراد بن السلطان أحمد ، وكان عمره خمسة عشر عاماً أي صغير السن يسهل التحكم فيه ووافقت الإنكشارية على ذلك . (١)

وتم عزل مصطفى الأول في ١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م بفتوى من شيخ الإسلام أسعد أفندي جاء فيها " أنه لا يجوز خلافة مختل عقلياً " (٢) والغريب في الأمر أنه خلال هذه الفترة كانوا يعلمون أنه مختل عقلياً وضعيف الإرادة ، ولكن الطمع هو الذي سيطر على نفوسهم جعلهم ينصبوه حتى يكتفوا من النهب ، ثم يعزلوه ، وقد مات بعد عزله بسبعة عشر عاماً .

وعموماً فقد اشتهر في تاريخ الدولة العثمانية ، أن الإنكشارية أجلسوا مصطفى الأول لأنه ضعيف الشخصية ، فأصبح ألعبوبة بينهم ، وأعيد للحكم مرة أخرى لنفس السبب ، وطوال الوقت كانت الإنكشارية يستمعون لكلام قادتهم وضباطهم وتتفذه ، وعرف هذا العهد بعهد الإرهاب . (٣)

تولى مراد الرابع الحكم في سن صغيرة " ١٠٣٤ هـ - ١٠٥٠هـ / ١٦٢٤ - ١٦٤٠م " واستفحل في عهده نفوذ

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٩ ، مرجع سابق ، ص ١٢٤ . انظر حبيب

السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣٠ .

(٢) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص ٦٠ .

(٣) رشاد أكرم قوجسي : مرجع سابق ، ص ١٨٤ .

الإنكشارية بشكل كبير ، ^(١) حيث لعبوا دوراً كبيراً مؤثراً في الدولة سواء منذ قتل عثمان الثاني وحتى تعيين الوزراء وعزلهم .

وعندما تولى مراد الرابع حاول قدر الإمكان التخلص من الوصاية حتى يدير الدولة كما يشاء . ^(٢) ولصغر سنه فشل في التخلص من الوصاية بسرعة واستمرت عليه ، قرابة عشر سنوات ، لم يحكم الدولة خلالها أبداً . ^(٣)

وهكذا نجد أن العشر سنوات الأولى من حكم مراد الرابع كان الإنكشارية فيها أصحاب الكلمة ، وقد فسدوا ونهبوا وسلبوا وقاموا بعدة تمردات وكان السلطان لا يزال صغير السن فلم يجد مفر من تنفيذ أوامرهم وتحقيق رغباتهم . ^(٤)

وبعد مرور فترة من الزمن على تولي مراد الرابع ، أقدمت الإنكشارية على قتل الصدر الأعظم حسن باشا ، وثاروا وتجمعوا حول القصر يهددون ، ثم أقدموا على قتل الصدر الأعظم الثاني حافظ باشا وتم تعيين رجب باشا صدراً أعظم بضغط من الإنكشارية وتنفيذاً لرغبة نائبه السلطان وكان يسميه مراد الرابع رئيس الأشقياء ، ثم لجأوا إلى حيلة التظاهر بأنهم ينفذون كلام السلطان ، وهدأوا وتظاهروا بأنهم خضعوا له ، لكن ذلك لم يكن إلا تمويهاً للسلطان حتى يوقف المذابح التي أمر بها ، وتمردوا ثانية بعدها وتجمعوا في ساحة القصر الداخلية وكانوا بقيادة رجب باشا ،

^(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ٢٠٩ .

^(٢) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص ٥١٠ .

^(٣) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص ٦٣ .

^(٤) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٨٩ .

فأمر السلطان بقتله وإلقاءه من شباك القصر ، وهنا هدأ تمردهم وأدركوا أنهم أمام سلطان قوي . ^(١) ولم يستطع إظهار قوة شخصيته إلا بعد فترة من الزمن ، حين استطاع التخلص من سيطرة الإنكشارية عليه .

في أثناء هذا الفترة زاد نهبهم للقصر السلطاني وإستانبول نفسها، مارسوا القتل وانتهاك المحرمات وكافة الأفعال المشينة . ^(٢)

وقد بدأت تظهر سيطرته على الأمور ، عندما استطاع إخماد تمرد السابق الذكر والذي يشبه التمرد الذي أودي بحياة السلطان عثمان الثاني، لكنه أخمدته بمنتهى البراعة وجعله بلا تأثير ، وقد ألقى كلمة بليغة تمكن من خلالها جعل المتمردين له لا عليه ، ثم ألقى القبض على الرؤوس المدبرة للتمرد وقام بإعدامها . ^(٣)

وأعلن مراد الرابع ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤م أنه منع شرب الخمر ، وأعدم كل من تسول له نفسه عصيان هذا الأمر . كما قام بإعدام كل من تثبت عليه أنه يحرض على تمرد ، كما أسس تشكيلة قوية من المخابرات التي جاءت بجميع أسماء المستبدين بالسلطة ليس داخل إستانبول فقط بل في جميع أنحاء الدولة ، فكان يقوم بإعدامهم كلما مر في أسفاره بأحد البلاد . ^(٤)

^(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٥-٥١٦ . أنظر يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٠ .

^(٢) رشاد أكرم قوجسي : مرجع سابق ، ص ١٨٥ .

^(٣) عبد القادر ده ده أو غلو : مرجع سابق ، ص ٦٣ .

^(٤) المرجع السابق ، ص ٦٣ .

وهكذا استطاع مراد الرابع إخماد هذه التمردات ببراعة ، وأكد على كونه سلطان قادر على حل المشاكل بشكل أفضل من سابقه ، ولقد كان حاكم مستبد برأيه ، ولكن هذا جاء بنتيجة إيجابية مع الإنكشارية حيث أننا نجد أن العشر سنوات الأخيرة من حكمه كانت هادئة نسبياً حيث أدركت الإنكشارية أخيراً أنها أمام سلطان قوي مقتدر .

لقد استطاع مراد الرابع أن يلجم تصرفات الإنكشارية ، بشكل جيد وكان من الممكن أن يستطيع القضاء عليهم في فترة مبكرة ، ولكن فكرة القضاء على الإنكشارية لم تكن تبلورت في أذهان السلاطين بعد ، وكان أول سلطان فكر في هذا الأمر هو عثمان الثاني ، وقتلته الإنكشارية ، لذلك لم ترد على ذهن مراد الرابع ، على الرغم من امتلاكه القوة اللازمة لذلك.

على أية حال لم يستمر هذا الوضع طويلاً إذ سرعان ما عادت الإنكشارية إلى سابق عهدها في عهد السلطان إبراهيم الأول ١٠٥٠هـ - ١٠٥٨هـ / ١٦٤٠م - ١٦٤٨م ، وزاد طغيانهم حتى أنهم كانوا يوجهون انتقاداتهم الواضحة والصريحة أمام السلطان دون خوف أو جزع .^(١)

كما أننا نلاحظ أن قاعدة تولي الأبناء قد زالت وسارت قاعدة الإنكشارية ورغباتها ، تولي من تريد وفق أهوائها الشخصية ، فإن إبراهيم لم يكن ابن مراد الرابع وإنما أخيه ، وقد تولي الحكم لأن الإنكشارية أرادت ، ولأنه كان الوحيد الموجود من الذكور من

^(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

سلالة آل عثمان ، وقد ولد محمد الرابع بعد توليه ، وهكذا نجت
السلالة العثمانية من الانقطاع .

منذ تولي إبراهيم الأول الحكم ناضل ضد الإنكشارية ، وحاول كبح
جماحهم ، لكنه لم يتمكن من اجتثاث الفساد من رؤوسه والقضاء
عليهم. (١)

فقد أراد السلطان إبراهيم أن يتزوج ببنت المفتي
وأسمها " راجيل " ولكنها رفضته ، فقام بإحضارها إلى سرايته ،
ولكنه لم يجد منها إلا الاحتقار والإساءة ، فأعادها إلى والدها المفتي
دون أن يصيبها بسوء ولكن المفتي أصر على الانتقام ، فاجتمع مع
العلماء وأخبرهم وأتفق مع الإنكشارية على عزله بل وقتله إذا
تطور الأمر لأنه أراد الزواج من بنت المفتي (٢) كما وأن
الإنكشارية أحست بأن السلطان إبراهيم يريد التخلص منهم والفتك
بقادتهم ، لأنهم عارضوه في كثير من الأمور ، وعلموا أنه حدد
موعداً لذلك في ليلة زفاف إحدى بناته على ابن الصدر الأعظم. (٣)
فقررروا القيام بمؤامرة لعزله ، والقيام بتمرد عظيمة لذلك متخذين
أسباب واهية ، وهي أن السلطان إبراهيم يقف موقف عدائي منهم ،
فبدأوا في نقده وتجريحه ، وانتهزوا فرصة إنشغاله بحفلة العرس ،

(١) بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٧٩ .

(٢) خليفة محمود : مرجع سابق ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(٣) بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٧٩ . انظر محمود شاکر : مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١٣٥ .

انظر محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

وأجتمعوا في جامع الفرقة (*) ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام عبد الرحمن أفندي ، وغيره من علماء الدين ، والذين أقرّوا عزله بتحريض من جند الإنكشارية . والفرسان السباهية ، وتولية إبنه محمد الرابع رغم أنه لم يكمل عامه السابع .^(١) وفعلاً قام تمرد عظيم على إبراهيم في إستانبول وتم عزله في ١٨/٥/١٠٥٨ هـ ٨/٨/١٦٤٨ م ، وقاموا بكافة الإجراءات لضمان نفاذ قرارهم ، واستعدوا عسكرياً حتى استطاعوا الإمساك بزمام الموقف^(٢)

تبع عزل السلطان إبراهيم ، تضجر الإنكشارية من الصدر الأعظم قارة مراد باشا ، وسعوا خلفه لقتله ، رغم أنه كان من أغوات الإنكشارية لكنه استطاع التخلص منهم .^(٣)

وبعد مرور عشرة أيام أظهرت الخيالة عدم ارتياحها لتولي العرش السلطان محمد الرابع وهو صغير السن لا يزيد عن سبعة أعوام ، ولم يبلغ الحلم ، وأرادت إعادة السلطان إبراهيم الأول مرة أخرى ، فخاف قادة المؤامرة من إعادة السلطان رغم أنوفهم ، نظراً لما قد يقوم به السلطان من انتقام من الإنكشارية ، فقرروا قتل السلطان إبراهيم باشا مثلما قتلوا عثمان الثاني قبله ، وساروا إلى

(*) يطلق عليه جامع الوسط أو أورطة جامع . انظر عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، المرجع السابق ، ص ٥١٦ .

(١) بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٨٠ . انظر عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥١٦ . انظر دائرة المعارف الإسلامية ، ص ٥١٠ .

(٢) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص ٦٤ . انظر عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥١٦ .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ٥١٠٨ .

القصر الموجود فيه ، وحاصروه ، وقام الجلاء بالدخول عليه و
خنقه حتى توفي . (١)

وهكذا ارتكبوا ثاني أبشع جرائمهم ، وهكذا سيطروا تماماً
على هذا السلطان الصغير ، دون أن يلتفتوا إلى أمور الدولة
وأصبحوا يرتعون في العز والرخاء ، وارتاحوا لهذا الوضع
الرخيص وعاثوا فساداً في القصر وأصبحوا يتدخلون في كل الأمور
حتى ساءت أحوال الدولة وعمت في أرجائها الاضطرابات ،
وأصبح نفوذ الإنكشارية لا يضاهيه أي هيئة أخرى في الدولة.

وعلى هذا حدثت خلافات بين الخيالة والإنكشارية ، ولضغط
الإنكشارية في القصر السلطاني ، تم الاعتماد عليها بصورة أكبر
من الخيالة ، وكانت هذه ضربة لفرقة الخيالة . (٢)

وهكذا جلس محمد الرابع على العرش وهو صغير السن
١٠٥٨هـ — — ١١٠٤هـ / ١٦٤١م ، ١٦٩٢م . مما أبعدته عن
ممارسة الشؤون السياسية وأصبحت الإنكشارية ، وأصحاب النفوذ
من الشخصيات الكبيرة في القصر هي المتحكمة في جميع الأمور ،
وعزل بين الحريم وأصبح وجوده مثل عدمه ، (٣) وقد تميز عهده
ببروز تدخل نساء القصر في السياسة ، أمثال تورخان سلطان وهي
والدته ، والتي سيطرت عليه لصغر سنه وأدى هذا إلى تراجع دور
السلطان في قيادة الجيش والدولة، وقد انعكس هذا التراجع على

(١) محمد شاكر : مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١٣٥ . انظر عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ،

ص ٥١٦ . انظر بسام العسلي : ج ٥ ، ص ١٨٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص ٥١١ .

(٣) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص ٦٥ ، مخطوط تاريخ آل عثمان : ورقة ٣٥

أُمور الدولة والقصر الداخلية ، فقد زاد تسلط الإنكشارية على الوضع داخل القصر والعاصمة، وأصبح الصدر الأعظم ضحية لهذا التسلط . (١) كما وأن نفوذ الإنكشارية زاد عن الحد حتى صارت تحدث مشادات بين الإنكشارية والسباهية في القصر حول السيطرة على السلطان و الغلبة دائماً للإنكشارية . (٢)

وقد زاد تسلط الإنكشارية على الصدور العظام في عهد محمد الرابع فنجد مثلاً أنه عندما حاول الصدر الأعظم أحمد باشا الألباني ١٠٦٣هـ — ١٠٦٤هـ / ١٦٥٢م — ١٦٥٣م أن ينفذ الوضع ويكافح الرشوة وتنظيم أول ميزانية للدولة لضبط النفقات ، واجهته مقاومة عنيفة جداً وقاموا بقطع رأسه بعد تسعة أشهر فقط من توليه المنصب . كما واجه نفس المصير الصدر الأعظم مراد باشا الألباني الأصل والذي قتلته الإنكشارية مثل الآخرين ولحق بهم من جاء بعدهم وهو مصطفى باشا ، الذي عزل ، وأصبح اهتمام الإنكشارية بالسلطة والنفوذ ، أكبر من اهتمامهم بحياة الجهاد والوضع العسكري . (٣)

يتضح لنا أنهم أصبحوا مرابطين داخل القصر لا يبارحوه أبداً ، وكأنهم وجدوا لمراقبة السلطان وأفعاله ، وليس للجهاد وإعلاء راية الإسلام .

(١) محمد مفاكو : تاريخ بلغراد الإسلامية ، الكويت : دار العروبة للنشر ، المكتبة البلقانية ، د.ط ، د.ت ، ص ٥٧ .

(٢) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص ٦٥ .

(٣) محمد مفاكو : مرجع سابق ، ص ٥٧ .

وقد استحال أمر الإنكشارية في القصر وأصبحوا شوكة في ظهر الدولة العثمانية ، لكن ظهور آل كوبرلي غير كثيراً من الأوضاع الخاطئة للإنكشارية داخل القصر ، وكان ذلك سنة ١٠٦٢ هـ / ١٦٥١م^(١) حيث تمكن آل كوبرلي من تثبيت الوضع في الداخل وقضوا على الفساد والرشوة ، وضبط الإنكشارية ، وعملوا على إحياء روح الجهاد في الجيش، فانتعشت الدولة العثمانية من جديد . (٢)

وقد مهد السبيل لظهور آل كوبرلي مقتل كوسم سلطان زوجة السلطان أحمد الأول ووالدة إبراهيم الأول و مراد الرابع عام ١٠٦٢ هـ / ١٦٥١م والتي كانت مسيطرة على الأمور داخل القصر ، وفي أعقاب ذلك تم تعيين محمد باشا كوبرلي في الصدارة العظمى ، حيث عاملهم معاملة شديدة ، وقتل كثيراً من ضباط الإنكشارية ، بسبب مقتل كوسم ، كما هدد بقتل الآخرين إذا لم يلتزموا الهدوء والسكينة ، ولكنهم ثاروا عليه لأنهم أدركوا أنهم أمام خصم قوي قادر على معرفة أساليبهم وقمعهم ، (٣) إلا أنهم فشلوا فقد أدبهم الصدر الأعظم وأمر بإلقاء جثثهم في البحر وبلغ عدد قتلاهم أربعة آلاف جثة . (٤)

(١) محمد مفاكو : مرجع سابق ، ص ٥٧ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٩٠ . عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص ٦٥ .

(٤) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

وبهذه المعاملة الشديدة على التوالي بين الصدور العظام محمد باشا ثم ولده محمد باشا وقرة مصطفى باشا (*) في عهد محمد الرابع أحس الأهالي بالسكينة والهدوء والأمن لمدة من الزمان .

ولكن للأسف هذا الوضع والهدوء لم يستمر طويلاً فقد هزم العثمانيون بإنكسار فظيع عند أسوار فيينا ، وطبعاً انتهز الإنكشارية وسارعوا إلى العاصمة ، وقاموا بعمل تمرد كبير فيها ، وخلعوا السلطان محمد الرابع ونصبوا سليمان الثاني مكانه ، (١) وكانت هذه فرصة لا تعوض لهم حتى يوضحوا للأهالي عدم كفاءة آل كوبرللي في الصدارة، ويوقفوهم عند الحد الذي يريدوه وبذلك يتخلصوا من شخصيات حدثت من نفوذهم كثيراً داخل القصر وخارجه .

ولقى محمد الرابع نفس مصير من سبقوه ، ولكنه كان أوفر حظاً منهم حيث لم يقتل وإنما عزل في سنة ١٠٩٨هـ / ١٦٨٦م ، ومات بعد عزله بحوالي خمس سنوات ، وقد ظل معزولاً في قصره بعيد عن الحياة السياسية ومات طبيعياً . (٢)

(*) مصطفى باشا : صدر أعظم تلقى تعليمه في الدائرة السنية السلطانية ، ترقى في المناصب حتى وصل سلحدار للسلطان محمد الرابع ثم وزير ورئيس البحرية ثم أمير سليترية وطرابلس الشام وقد حرر عاصمة بولونيا من الألبان ثم صار بعدها صدر أعظم ، وحرر بلغراد من الألمان ، ترقى بعد خدمة خارج القصر لمدة ١١ عام كان ذو قيم شديدة وإدارياً جيد وشجاع ومستقيم . الموسوعة التركية : ج ٢٤ د. ط ، أنقره : دار المعارف ، ١٩٧٦م ، ص ١٧٠ لقد كانت الإنكشارية من أحد الأسباب الرئيسية لهزيمة العثمانيين عند أسوار فيينا ، كما سيتضح ذلك في المبحث القادم ، وعلى الرغم من ذلك فقد استغلوا هذا الوضع اسواء استغلال .

(١) محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٧١

نصب الإنكشارية سليمان الثاني ابن إبراهيم الأول ١٠٩٩هـ — ١١٠٢هـ / ١٦٨٧م — ١٦٩٠م على العرش ، ^(١) والذي تجاوز عن أعمالهم القبيحة وأفعالهم الشنيعة بمن سبقوه ، وأغدق عليهم الهدايا والأعطيات وصفح عن تمردهم الذي نتج عنه عزل محمد الرابع ^(٢) وقد تولى أمور الدولة وهي في غاية الارتباك والفوضى ، وحاول قدر الإمكان تصحيح الأوضاع ^(٣)

السلطان سليمان الثاني كان رجلاً زاهداً متعبداً ، يفضل الانزواء ودراسة الكتب الدينية ، ولذلك لم ترض به الإنكشارية سلطاناً عليها ، إلا أنها أملت في أخلاقه الهادئة أن تفسح لهم المجال في التماذي في أهوائها دون أن يتصدى لهم ، وعندما ذهب رؤسائهم إلى الصدر الأعظم ، وطالبوا برواتبهم المتأخرة ، والأعطيات المعتادة عند جلوس كل سلطان ، حاول الصدر الأعظم تهدئتهم بالكلام العذب ، والوعود الطيبة ، وأعطاهم القليل من المال ، مع الوعد بإعطائهم الباقي حينما ترد الأموال من الولايات إذ أن خزينة الدولة كانت فارغة من الأموال . فغضبوا وتفرقوا في شوارع إستانبول ينهبون البيوت ويسلبون الأهالي . ^(٤)

وهكذا نجد أنه اتخذ سياسة مختلفة مع الإنكشارية حيث التسامح والغفران ، ولكن هذه السياسة أيضاً لم تؤتِ بنتائج حسنة

^(١) مخطوط آل عثمان : ورقة ٣٥ .

^(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ ، إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ١٨٤ .

^(٣) أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .

^(٤) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣١ .

إذ أن تمرداتهم داخل العاصمة وحول القصر زادت عن حدها مما أدى إلى نتائج سلبية على الدولة العثمانية ، حيث أدى ذلك إلى ارتباكها ، وبلغت وقاحتهم مداها حيث صاروا يقتلوا الوزراء والصدور العظام ، وزاد هياج الإنكشارية وصارت تهجم على بيوت من تريد قتلهم . مثلما تخلصوا من فاضل مصطفى باشا القائم مقام ، عندما أراد تسكين الاضطرابات فعينوه والياً على ميناء الدردنيل . (١)

وعندما اعتقل الصدر الأعظم ساویش باشا (*) بعضهم ، وحكم عليهم بالإعدام انتشرت الفوضى في شوارع إستانبول ، واقتحموا قصر ساویش باشا وقتلوه شر قتله قطعوه أرباً ، وعرف باسم قتل الإنكشارية، ونهبوا قصره وألقوا القبض على زوجاته وجواريه واتخذوهن سبايا. (**)(٢)

(١) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

(٢) ساویش باشا : لم يعرف من أين أو نسبه ، تولى منصب الصدارة العظمى مرتين ، وقد قتل أثناء تمرد الإنكشارية ونهب قصره ، ومات مأسوفاً عليه ، الموسوعة التركية : ج ٢٣ ، د. ط ، أنقرة ، ص ١١٥ .

(٣) وقد أورد محمد جميل بيهم أن الإنكشارية عندما هاجمت قصر الصدر الأعظم ، قد دخلوا على زوجته وأخته وقطعوا أيديهم وأرجلهم وأنوفهم ، ثم جروهما في الشارع بمنتهى الإهانة . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣١ .

لم ترد هذه القصة في كتب المؤرخين العثمانيين ولم يذكر المؤرخ مصدرها ، فلا يمكن الجزم بصحتها أو حتى قربها إلى الواقع ، ولكن السؤال هل وصلت بالإنكشارية الجراءة إلى درجة أنهم يقوموا بمثل هذا العمل الشنيع ، وإذا قلنا أن ذلك لعدم زواجهم ولكن هذا قانون منذ تأسيسهم والرعيل الأول لم يرتكب مثل هذه الفظاعة ، كما أنه في هذا الوقت كان قد سمح لهم بالزواج ، كذلك هل المرأتين ستعيشان بعد النزيف من هذه الجروح حتى يتم جرهما إلى الشارع ، أم أنهم جروهما وهما ميتتين وهذا يعتبر تمثيل بالجنة مخالف لتعاليم الإسلام . ولذلك فإن الدراسة لا تؤيد الرواية . =

وبهذا العمل نجد أنهم انتهكوا حرمة قصر الصدر الأعظم ، واستولوا على النساء ، وكان هذا التطور في طغيانهم قد صار يمس النساء ، وهذا يدل على ما وصلت إليه الإنكشارية من فسق وفساد . ثم هجموا على الأسواق والحوانيت ونهبوها ، وأصبحت شوارع استانبول مكاناً واسعاً للفتن والتمردات وأصبح القصر مرتعاً لهؤلاء .^(١) مرتكبين فيه الفظائع ، مما أثار غضب أهالي استانبول عليهم ، كما أنه عندما عين السلطان سليمان الثاني إسماعيل المرعشي^(٢) في الصدارة العظمى ، بذل كافة مجهوداته لتسكين الاضطراب بين الإنكشارية ، وتعاون مع أهالي استانبول الذين زادت ثورتهم على الإنكشارية واستبدادهم ، فحملوا السلاح وانقضوا على الإنكشارية وقتلوا منهم كثيراً وجرت مذبة هائلة ، وهكذا هدأت أحوالهم قليلاً ، وعاد النظام مرة أخرى ،^(٣) بعد أن وعدهم المفتي خيراً ، وحثهم على العودة إلى ثكناتهم . ومع ذلك فقد نفوا شيخ الإسلام دباغ زاده محمد أفندي .^(٤)

- ^(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٧ . سعيد أحمد برجوي : مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

^(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣١ .
^(٢) إسماعيل المرعشي : يقال أنه من حي أباش في أنقرة ، عمل أول حياته خارج القصر ، ثم صار صاحب إقطاع برتبة أمير أمراء الروملي ، تدرج في الوظائف حتى صار صدراً أعظم في عهد سليمان الثاني ، ثم عُزل وحبس في قلعة يدي قوله عام ١١٠٠هـ / ١٦٩٦م . الموسوعة التركية : ج ٢٠ ، أنقرة ، سنة ١٩٧٢م ، ص ١٦٧ .

^(٣) إسماعيل سرهنك : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٨٤ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣١ .

^(٤) هو ابن محمود أفندي شيخ دباغين منطقة يدي قوله ، تلقى التعليم على أشهر علماء عهده وعمل بالتدريس في عدة مدارس ، ومفتشاً بأوقاف الحرمين ، عين قاضي لدمشق ، ثم أدرنه ثم استانبول =

وقد حاول هذا الصدر الأعظم ، اعتقال مثيري الشغب والفتن والذين حاولوا التمرد مرة أخرى ، وكان يقضي عليهم لولا أن نجاه السلطان عن المنصب ، وعين بدلاً منه مصطفى باشا ، والذي كان صاحب ثروة كبيرة ، فوزع عليهم الأعطيات والمال ، بدلاً من معاقبتهم، فعاد إليهم الهدوء (١)

حاول سليمان الثاني بعد هذه الفوضى القيام بحركات تطهيرية كبيرة للقضاء على استبداد الجيش ، وهذه الحركات أعطت هدوءاً مؤقتاً للدولة والقصر لأنها كانت تعيش ظروفاً صعبة عند توليه الحكم . (٢)

وبعد وفاة سليمان الثاني متأثراً بمرض عضال تولى الحكم أحمد الثاني ١١٠٢هـ - ١١٠٦هـ / ١٦٩١م - ١٦٩٥م وقد حكم مدة أربعة سنوات وثمانية أشهر . (٣)

وفي عهد أحمد الثاني استمرت الإنكشارية على نفس المنوال في السيطرة على شؤون القصر ، وإن كان نفوذهم قد خفضت حدته نتيجة لتولي مصطفى باشا كوبريلي منصب الصدارة العظمى حيث استطاع هذا الأخير أن ينقل الدولة من الدمار السريع الذي كان سيصل بها نتيجة التمردات المتتالية إلى هدوءه نسبياً ، حيث

= ثم الأناضول ثم شيخ الإسلام في ١٠٩٨هـ - ١٦٨٧م وكان ضمن من أقصوا محمد الرابع عن الخلافة ، ونتيجة لخلافه مع الإنكشارية عزل من منصبه توفي عام ١١١٤هـ - ١٧٠٢م .

الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني ، ج ٩ ، ط ١ ، إستانبول ، ١٩٩٤م ، ص ٦٢ .

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣١ .

(٢) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص ٦٦ .

(٣) مخطوط تاريخ آل عثمان ، ورقة ٣٥ .

استطاع استمالة الجند والرعية لصفه وهدأت أحوال القصر . (١)
وقد حاول مصطفى الثاني ١٠٧٤هـ - ١١١٥هـ / ١٦٦٣م - ١٧٠٣م (٢) الذي خلف أحمد الثاني أن يتصدى لأطماعهم داخل القصر والعمل على الحد منها ، محاولاً إصلاح الشؤون الداخلية ، وإبطال المفاسد ، ومعاقبة المرتشين ومنع المظالم ، غير أن الإنكشارية لم تسمح بذلك لأنه كان مناخ الضعف والفوضى هو المناسب لهما ، لما يوفره لهم من فرصة للسلب والنهب وهتك الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، وبسبب ضغط الإنكشارية ، وعدم إعجابهم لهذه الشدة ، وقفوا في وجه الإصلاحات، وعزل السلطان مصطفى الثاني في ٢ ربيع الثاني ١١١٥هـ - أغسطس ١٧٠٣م ونصبوا مكانه أخيه السلطان أحمد الثالث، وقتلوا فيض الله أفندي . (٣)

تولى أحمد الثالث ١١١٥هـ - ١١٤٩هـ / ١٧٠٣م - ١٧٥٤م (٤) الحكم وهو خائف مما قد يصيبه من الإنكشارية مثل الذين سبقوه ، وخاصة أخاه (٥) فاستهل حكمه بتوزيع الهبات والأموال بكثرة على الإنكشارية ، ووافق على طلبهم بقتل المفتي " فيض الله أفندي " لأنه كان ضد أعمالهم وفعلاً قبضوا عليه

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

(٢) أحمد عرابي : مخطوط تاريخ الملوك العثمانية والوزراء والصدور ومشايخ الإسلام والقبودانات ، ١٣٧٧هـ ، القاهرة : مكتبة فاروق قديماً ، ورقة ٣ .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٦ . انظر سعيد أحمد برجاوي : مرجع سابق ، ص ١٧٤ .

(٤) مخطوط آل عثمان ، ورقة ٣٥ .

(٥) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣٣ .

وقتلوه ، ونفوا أولاده ، وهكذا عادت السكينة والراحة إلى القصر في استانبول ^(١) لقد اتخذت طلباتهم منحني جديد وهو قتل كل من يقف بطريقهم حتى ولو كان المفتي أو شيخ الإسلام .

وعندما هدأت الأوضاع واستقرت الأحوال ، بدأ السلطان أحمد الثالث الانتقام من الإنكشارية والاقتصاص من رؤوس الفتنة ، وإنزال العقاب العادل عليهم ، فحاول تفريق الإنكشارية عن القصر والعاصمة بكافة الأعدار ، وقتل عدداً كبيراً منهم ، ومن ضمنهم من أجلسوه على العرش وحتى المفتي الجديد ، وعزل الصدر الأعظم تشانجي أحمد باشا الذي انتخبه الإنكشارية في ثورتهم ، وعين مكانه زوج أخته داماد ^(*) حسن باشا ^(**) ، وبلغ عدد من قتلهم خمسة عشر ألف ، ويرى أن جرائد وصحائف أسماءهم كانت تظهر كل يوم لمدة ستة شهور عن الذين يقتلون أو يلقون في اليم. ^(٢)

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٢ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ن ص ٢٠١ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣٣ .

(*) داماد : لفظ فارسي أستعمل في التركية ومعناه الصهر وكان هذا اللفظ يستعمل مضافاً إلى الاسم بمعنى الشريف لمن كان متزوجاً من بنت السلطان ، أو من أخته انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٢ .

(**) حسن باشا : من بلاد المورة ، أخذ لقب داماد لأنه تزوج من خديجة سلطان أخت مصطفى الثاني واحمد الثالث وبنت مراد الرابع : لم يعرف متى دخل القصر السلطاني تدرج في الوظائف حتى صار والي مصر برتبة وزير في عهد سليمان الثاني . ثم فقد سمعته وفقد وظيفة والي لخيانته لأغا دار السعادة ، وأثناء ولايته على صاقز سقطت في يد البندقية ، تنقل بين عدد كبير من الوظائف السياسية كان شجاع كريم ، أهتم بتاريخ نعيمه وشجعه على الاستمرار في الكتابة ، والتأليف وأمر ببناء عدد من التكايا وتوفي عام ١٧١٣م عن عمر يناهز الستين عاماً . الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني ، ج ١٦ ، د.ط ، إستانبول : ١٩٩٧م ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢) محمد فريد المحامي ، مصدر سابق ، ص ٣١٢ . انظر حبيب السيوفي : مرجع سابق ،

ص ٣٣ ، انظر بسام العسلي : ج ٥ ، مرجع سابق ، ص ٢٠١ .

هذا يدل على كثرة عدد الإنكشارية ، وبالتالي ليس كل هذا العدد قد دُرب عسكرياً أو خضع لأنظمة الإنكشارية ، وبالتالي فإن الفساد والإنحلال الذي أصابهم ، جاء نتيجة العناصر الفاسدة التي دخلت فيها وأدخلت مفاهيم جديدة عليها .

وبالطبع بدأت الإنكشارية تنور على أحمد الثالث بسبب هذه الأوضاع الجديدة ، خاصة بعد تعيين داماد حسن باشا ، في منصب الصدارة العظمى، وإنصرافه للإصلاح ، حيث جدد الترسانة ، وأنشأ كثيراً من المدارس ، لكن هذه الإصلاحات وكذلك مصاهرته للسلطان ، لم تضمن له الحماية ، إذ أنه أصبح هدفاً للمؤامرات والدسائس من قبل الإنكشارية، وأعداء الإصلاح ، وهم الذين لا يعجبهم وجود رجل حازم يقبض على الأمور بشكل يحول بينهم وبين تحقيق رغباتهم ، فدبروا المؤامرة حتى استطاعوا عزله في ٢٨ جمادى الأولى ١١١٦هـ - ٢٨ سبتمبر ١٧٠٤م.^(١)

ومن بعده كثر تغير الصدور العظام في عهد أحمد الثالث تبعاً لأهواء الإنكشارية ورغباتها^(٢) فقد جاء نعمان كوبربلي في الصدارة العظمى ، وحاول أن يأخذ على عاتقه مهمة إصلاح الإنكشارية ودفع رواتبهم بانتظام منعاً لأي تمردات قد يقومون بها لكنه للأسف لم يستمر في الصدارة العظمى .^(*) وعين بدلاً منه

(١) محمد فريد المحامي ، مصدر سابق ، ص ٣١٢ . انظر بسام العسلي : ج ٥ ، مرجع سابق ، ص ٢٠١ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٢ .

(*) لقد كان هذا الصدر الأعظم متطي بصفات جده وأبيه ، وكان يأخذ رواتب الإنكشارية من بيت المال ، ولا يأخذها قسراً من الأهالي بالظلم والجور ، ولكن هذا لم يعجب السلطان إذ أنه لا يريد =

إبراهيم باشا ، والذي أراد توفير الرواتب للإنكشارية ، لأن السلطان رفض أن يؤخذ من المال الذي يدخل في الخزينة ، مما جعل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، يفرض ضريبة جديدة أسمها " بدل " على التجار وأصحاب الدكاكين ، لكن هذه الضريبة جاءت بنتائج عكسية حيث أن كثيراً من التجار كان من الإنكشارية ، الذين يمارسون البيع والشراء فبدأوا في التذمر علانية ، ولكن ولادة الأمر لم يأخذوا هذا التذمر في الاعتبار ، حتى تطورت وأصبحت فتنة في البلاد ، فقد حدث أن ثلاثة من أفراد الإنكشارية قد أثارت حنقهم هذه الضريبة لأنهم كانوا يتاجرون في التجارة البسيطة مثل الملابس القديمة ، أو الفواكه أو القهوة ، لذلك أخذوا يصيحون ويشتمون الصدر الأعظم ، وصار ينضم إليهم الإنكشارية وأفراد الشعب ، حتى كثر عددهم شيئاً فشيئاً ، وأخذوا قطعاً من الملابس القديمة التي كان يبيعها أحدهم ، وساروا في الطرقات مستلين سيوفهم ، يخربوا كل من يعترضهم ، وفسدوا في العاصمة ، ودخلوا البيوت ونهبوها وقتلوا أهلها ، ثم حاصروا القصر السلطاني وطالبوا بقتل الصدر

= أن يخرج مال من الخزينة ، وعندما سأل الصدر الأعظم أن سلفه وجدوا طريقة أخرى لرواتب الجند ، فرد عليه نعمان أنه إذا كان سلفه يجيدون أسلوب سلب الناس لزيادة دخل جلاكتكم ، فمن دواعي فخري أن أجهل هذا الأسلوب ، فلم يعجب هذا السلطان وعزله . انظر حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٧٤ ، ٣٣ .

وهو الابن الأكبر لفاضل مصطفى باشا ، دخل الديوان الهمايوني ليصبح الوزير السادس ترقى في الوظائف ، وتزوج من عائشة سلطان ابنه مصطفى الثاني ، رقي إلى منصب الصدارة العظمى بعد زواجه ولكنه لم يستمر واستقال ، ومات و عمره تسعة وأربعين عام ، عام ١٧١٩م ، ودفن بجامع كوبرللي ، كان رجل فاضل تخرج من مدرسة رفيعة المستوى الموسوعة التركية : المجلد ٢٢ ، أنقرة : دار المعارف ، ١٩٧٥م ، ص ٢٩٣ .

الأعظم ، ونائبه ومساعده ، بل والمفتي أيضاً (*) ، حتى طالبوا بخلع السلطان نفسه ، وسلطوا أفواه مدافعهم على أسوار القصر . (١)

فأجبر السلطان على قتل الصدر الأعظم ، ومن شدة خوف السلطان اضطّر التنازل عن العرش ١١٤٣هـ / ١٧٣٠م لابن أخيه محمود الأول ، وكانت تمرد الإنكشارية تعبيراً عن غضبهم على المسحة الأوروبية التي طبعت حياة السلطان وسلوك بطانته ، إضافة إلى خوفهم من روح الإصلاح التي بدأت تنتشر وتظهر بوادرها ، فقلق الإنكشارية على نفوذها . (٢) كما أن الاستياء كان شديداً ضد تبذير القصر ، وكانت التمرد بزعماء الألباني باترونا خليل . (٣) كما قتلوا الصدر الأعظم والقبودان باشا ، ولم يستطع السلطان (**) أحمد منعهم وتساهل معهم كثيراً خوفاً على حياته . (٤)

ووصل تطاولهم مداه عندما أرغموا السلطان أحمد الثالث على التنازل لابن أخيه محمود الأول ١١٤٣هـ - ١١٦٨هـ / ١٧٣٠م - ١٧٥٤م وأصبح هو السلطان بالاسم وسيطر على أمور الحكم باترونا خليل قائد التمرد السابقة . (٥)

(*) ولعدة أسباب أخرى سيتم ذكرها بإذن الله في المبحث القادم .

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣٣-٣٤ .

(٢) سيد مصطفى - خالد زيادة : مرجع سابق ، ص ١٦-١٧ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٥١ .

(**) لقد عزل السلطان نعمان كوبريللي لأنه أخذ رواتب الإنكشارية في بيت المال وإبراهيم باشا وفر

أموال بيت المال بفرض ضريبة البذل ، التي قامت بتمرد ودفع السلطان ثمن طمعه .

(٤) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٨ .

(٥) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

ونتيجة لانشغال السلطان أحمد الثالث بمشاكل الإنكشارية في القصر وإستانبول ، فقد انشغل عن متابعة ما كان يجري حوله من تطورات على ساحة السياسة الخارجية ، حيث بدأ بطرس الأكبر العمل على إضعاف من حوله من الأقوياء ، أي السويد (*) وبولونيا والدولة العثمانية. (١)

وفي عهد السلطان محمود الأول تتضح لنا رؤية مهمة وهي أن الإنكشارية أصبحت تدمر كل شيء في طريقها حتى وإن كان رجلاً منهم مثلما حدث مع بترونا خليل (**).

وقد توفي محمود الأول بعد حكم دام خمسة وعشرين سنة ومات وعمره ستون عاماً ، وكانت أيامه هادئة وسعيدة لاتصافه بالعدل والرحمة بين جميع الناس ، لم يفضل فئة على أخرى وكان يميل للمساواة بين الناس ، وفي أيامه اتسع نطاق الدولة في آسيا وأوروبا . (٢)

وبالطبع فإن أحوال الإنكشارية قد هدأت وإن لم يخلو الأمر من تدخلاتهم وسيطرتهم على أمور الدولة خاصة في عهد السلطان عثمان الثالث ١١٦٨هـ - ١١٧١هـ / ١٧٥٤م - ١٧٥٧م . (٣) والذي بقي فترة وجيزة في الحكم ولكن هذا لا ينكر وجود تدخلات

(*) بدأ بملك السويد شارل الثاني عشر ودخل معه في معركة خرج منها منتصراً انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٢ .

(١) مصدر سابق : ص ٣١٢ - ٣٢٠ . انظر محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني : ، ص ١٣٦٥

عبد العزيز الشناوي ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥١٨ .

(**) سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في المبحث القادم .

(٣) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٢٥ .

(٣) مخطوط تاريخ الملوك العثمانية ، ورقة ٤ .

من الإنكشارية إلا أنه لم يرد ذكر أي تمرد أو تدخل في شئون القصر في عهده إذ أنه كان يتفقد أحوال الرعية ليلاً ، حيث ينزل متنكراً للشوارع والأزقة ، ^(١) وهذا يدل على أن الدولة في عهده كانت تسير على ما يرام مما أدى إلى هدوء الإنكشارية وتدخلاتهم . وعندما تولى الحكم السلطان مصطفى الثالث ١١٧١هـ - ١١٨٧هـ / ١٧٥٧م - ١٧٧٣م . ^(٢) أخذ يعمل من أجل الإصلاحات الداخلية، وقد أغفل اهتمامه بإصلاح الإنكشارية مما أدى به إلى مجابتهم بين الحين والآخر داخل القصر السلطاني فقط . ^(٣)

تولى بعده عبد الحميد الأول ١١٨٧هـ - ١٢٠٣هـ / ١٧٧٣م - ١٧٨٨م . ^(٤) ولكنه لم يوزع العطايا والهبات على الإنكشارية المعتادة عند تولي أي سلطان الحكم وذلك لفرع الخزينة ^(٥) ، ولكنه لكي يتجنب ثورتهم أقر كل الموظفين والقادة حتى لا يقع أي خلل من جهتهم . ^(٦) ولم يذكر أي تمرد في عهده أو تدخل في القصر السلطاني ربما لإنشغال الإنكشارية بالحرب الدائرة بين الدولة العثمانية وروسيا ، فلم يكن هناك مجال للتدخل لأن الحرب كانت تضغط عليهم .

^(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٢٧٥ .

^(٢) مخطوط تاريخ الملوك العثمانية ، ورقة ٤ .

^(٣) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٢٩ .

^(٤) مخطوط تاريخ آل عثمان ، ورقة ٣٦ .

^(٥) وذلك لأن الدولة صرفت جميع الأموال في تجهيز الجيوش ، للحرب ضد روسيا .

^(٦) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٤١ .

وفي عهد خلفه سليم الثالث ١٢٠٣هـ - ١٢٢٥هـ / ١٧٨٩م
١٨٠٧م .^(١) عادت الإنكشارية وبقوة إلى سابق عهدها في التحكم
في السلاطين وفي عزل وقتل من شاعوا .

لقد كانت مشكلة سليم الثالث الوحيدة هي إنشاء " جيش جديد "
على النظام الأوروبي وهو بذلك قد خرج من تحت سيطرة
الإنكشارية ، وكان شغله الشاغل إعادة تنظيم الجيش وتطوير
أسلحته .^(٢) فكان موقف الإنكشارية يتركز في صدهم للنظام
الجديد ، ولم تذكر لهم المصادر أي تمردات أخرى لأسباب تأخر
رواتب أو ما شابه .

وهكذا قامت بتمرد ضد السلطان سليم الثالث وإصلاحاته
أرغمته خلالها على إبطال النظام الجديد ، وإرغامه على تعيين
بعض من ضباط الإنكشارية في مناصب قيادية في أرجاء القصر
والحكومة ، وقد تقبل سليم مطالبهم وكأنه دولة مهزومة .^(٣)

ولأن الإنكشارية خافت من عودة السلطان لمشروع الإصلاح
قامت بالتجمع في ميدان آت^(٤) وقلبوا القنور ، علامة على
العصيان ، وقاموا بقتل رواد الإصلاح ، ورصوا رؤوسهم أمام
الأهالي ، وقرروا عزل السلطان سليم الثالث في ٢١ ربيع الآخر

^(١) مخطوط تاريخ ملوك العثمانية ، ورقة ٤ .

^(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٦ .

^(٣) مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٧ .

^(٤) آت ميدان : إذا خففت لفظه آت فمعناها اللحم وإذا ضمت (أط) فمعناها الفرس ، وهو المقصود

هنا ، أي ميدان الخيل . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٣ .

١٢٢٢هـ / ٢٨ يونيه ١٨٠٧م ساعدهم على ذلك المفتي الذي أصدر فتوى بوجوب عزل السلطان.(١)

وقد تعهد شيخ الإسلام بإيصال هذا إلى السلطان ، وكان ضالعاَ معهم ، بتبليغ هذه الفتوى إلى السلطان ، وأبلغه هذه الرسالة مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية ، وقد تقبل هذا الأمر السلطان وغادر القصر السلطاني (٢) ونودي بعد يومين بمصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول ، سلطاناً وخلفاً لسليم الثالث . (٣)

وهكذا أهمل المشروع الجليل ، مشروع الإصلاح ، لعدم موافقته لأغراض الإنكشارية المستبدة في القصر . (٤) وانسحب السلطان سليم الثالث إلى قصره ، حيث بدأ في تعليم ابن أخيه محمود الثاني أصول حكم الدولة العثمانية ، وعلمه كيفية الإحاطيات من الإنكشارية وتفادي ضعف السلاطين واعتبار ما حدث تجربة فريدة من نوعها (٥) ، تستحق المحاولة مرة أخرى وهكذا وضع عصارة تجربته وعلمه في ذهن محمود الثاني وعمل على إعداده ليكمل المشوار الذي بدأه .

وكان مصطفى الرابع ١٢٢٢هـ - ١٢٢٣هـ / ١٨٠٧م - ١٨٠٨م . ألعبه بأيدي المتمردين ، وكآله يحركونها وقتما شاعوا ،

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٣ . السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ١٧ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥٢٩ .

(٣) مخطوط تاريخ آل عثمان ورقة ٣٦ .

(٤) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٤ .

(٥) علي سلطان : مرجع سابق ، ص ٢٦٩ .

حيث كان نصير النظام القديم ومن مبغضين النظام الجديد ، (١) وقد فرح به الإنكشارية كثيراً ، لكن الرعب دب في قلوب أهالي إستانبول ، فأقفلوا الحوانيت ، ثم تقدم المفتي شيخ الإسلام وقائم مقام " موسى باشا " إلى الجموع التي كانت مجتمعه في ميدان آت وأخبروهم أن السلطان وعد بإبطال النظام الجديد ، فعادت السكينة والهدوء إلى صفوف الإنكشارية ، وصارت السلطة في يد القائم مقام " كوسبح موسى " باشا والمفتي شيخ الإسلام " عطاء الله أفندي " . (٢)

استهل مصطفى الرابع حكمه بتثبيت الوزراء في مناصبهم ، وأعتمد تعيين قباقي أوغلي حاكماً على قلاع البسفور ، فأعاد الإنكشارية قدورهم إلى ثكناتهم علامة على رضاهم وخلودهم للراحة. (٣) وقام بقتل كثير من ضباط النظام الجديد بناء على طلب الإنكشارية ، وقام بإعادة النظام القديم وهكذا سادت القصر الفتن والاضطرابات . (٤)

وقد نال بذلك مصطفى الرابع رضى الإنكشارية ، كيف لا وهو من صنع يدهم وهم من نصبوه وموضع ثقة الرجعيين وخصوم التجديد .

وعلى أثر تمرد قباقي أوغلي واختلاف قادة التمرد ، ومحاولة البيرقدار مصطفى باشا إرجاع سليم الثالث للحكم ، وعدم

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٤ .

(٢) أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص ٢٧٨ .

(٣) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٨ .

(٤) علي سلطان : مرجع سابق ، ص ٢٦٩ .

موافقة الصدر الأعظم على ذلك ، أثرت على مصطفى الرابع وزادت هواجسه ، وخاف على نفسه من عواقب الأمور أو أن يصيبه سوء ، فأنقلب على الإنكشارية ، فعزل شيخ الإسلام ، وأمر بتسريح فيالق الإنكشارية ، وأظهر البيرقدار قائد هذه الحركة بأنه راضٍ تماماً عما حدث ، وأضمر محاصرة القصر والمطالبة بعودة سليم الثالث للحكم ، وأمر البيرقدار بحبس الصدر الأعظم لأنه عارض في عودة سليم الثالث للحكم ، خوفاً مما قد يحدث ، فأصبح موقف مصطفى الرابع حرج ، حيث خسر أنصاره الإنكشارية ، كما خسر أتباع النظام الجديد ، فخاف على نفسه والعرش ، وأمر بقتل سليم الثالث ، وأرسل أناساً لهذا الغرض ، فدخلوا عليه وهو يصلي صلاة العصر فلم يمهلوه إلى أن يتم صلاته ، بل وثبوا عليه وأوقعوه على الأرض ، وقام مدافعاً عن نفسه ، ولكنهم تغلبوا عليه وخنقوه حتى مات ، وحملوه للسلطان مصطفى الرابع ميتاً ، فأمر بإلقاء جثته من شباك القصر للتائرين ، ^(١) ثم عمد إلى التخلص من قباقيجي أوغلي قائد التمرد السابق ، ^(٢) وأعتقد أنه بذلك سيهدأ من تمردهم ويسكن من هياج الإنكشارية ، إلا أن هذا العمل جاء بنتيجة عكسية ، فقد زاد هياجهم ، وقرروا عزل السلطان مصطفى الرابع ، وحجزه في نفس المكان الذي كان محجوزاً فيه سليم الثالث ، ولم يتم ذلك الأمر حيث تم قتله بواسطة الإنكشارية في

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٧ . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ج ٢ ،

ص ٢٧٨ . انظر عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٣٣ .

(٢) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

قصره ولحق من سبقوه بنفس الشكل. (١)

وهكذا فقد انقابت عليه الإنكشارية ، لأنه حاول إضعافهم بتسريح فيالقهم ، مما أدى إلى قتله وهم من وضعوه أصلاً ، وسيضعوا محمود الثاني من بعده ، وهو من سيقضي عليهم .

وكان مصطفى الرابع قد أمر بقتل محمود الثاني أيضاً ولكن البيرقدار مصطفى باشا ، حماه من الموت ، حيث سارع لإنقاذ سليم الثالث مع مجموعة من الرجال ، ولكنهم وصلوا متأخرين ، فعندما وصلوا كان سليم قد فارق الحياة ، فأمر البيرقدار المجموعة التي معه ، الإسراع لنجدة محمود الثاني لأنه الوارث الوحيد لتخت السلطنة الباقي من سلالة آل عثمان ، فأخذت تبحث عنه العساكر في جميع أنحاء القصر ، وكان السلطان محمود الثاني قد أصيب في يده بخنجر ، عندما هاجمه عساكر مصطفى الرابع يريدون قتله ، فوجدوه العساكر من أعلى السرايا ، فأنزروه منها ، وقد تهال وجه البيرقدار مصطفى باشا فرحاً ، وأجلسه على كرسي السلطنة ، وهكذا فقد نصبت الإنكشارية سلطاناً عليها ، فعين مصطفى باشا البيرقدار صديقاً أعظم ، الذي سارع بأخذ الثأر من الذين قتلوا السلطان سليم الثالث . (٢)

وينتهي تدخل الإنكشارية في القصر السلطاني أو في غيره بعهد السلطان سليم الثالث ، حيث كان آخر ما قاموا به هو تعيين

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٧ . انظر عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٣٣ .

(٢) أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

محمود الثاني في الحكم ، والذي لم يعطيهم فرصة التدخل في القصر السلطاني في عهده ، حيث واجههم بكل قوته ، وشعروا بأنه يريد الإصلاح وأنه يريد وضع نظام إصلاحي ، فأصبحوا يتحينون الفرص للقضاء عليه حتى وانتهم الفرصة المناسبة ، وحاصروا القصر مطالبين بعودة مصطفى الرابع لكنه كان قد مات ، فألقى بجثته من شباك القصر للإنكشارية الثائرة ، مما زاد في ثورتهم وهياجهم ، فأضرموا النار في القصر السلطاني ، لكي يلجئوا الصدر الأعظم على الفرار والخروج لهم حتى يقتلوه ، ولكنه دافع عن القصر حتى الموت ، وانتهى هذه التمرد بحرقهم لأطراف المدينة وأجزاء من القصر حتى رضخ لهم السلطان ، مؤجلاً عملية القضاء عليهم حتى يستعد لهم جيداً . (١)

وهكذا دخل محمود الثاني إلى السلطة وهو مصر على القضاء على الإنكشارية وقام بعمل الكثير حتى وصل إلى نهاية الإنكشارية التي كانت معول هدم في داخل القصر أثر بشكل سلبي على الدولة العثمانية وتطورها .

غير أن ذلك لم يمنعه في بعض الأحيان من صرف أموال على سبيل المكافأة لهم أو الهدية ، حتى تأتي إليه الفرصة المناسبة للتخلص منهم . (٢) لكن تدخلهم في السياسة العليا أثر على استمرار أوتوقف الحروب ، أو انسحاب جيش ، وبالتالي أثر على موقفها بين دول أوروبا وروسيا ، مما أضعفها فاستطاعوا التغلب عليها .

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٩-٤٠٠ .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول . خط هامبوني رقم الوثيقة ١٥٢٣٦ HH .

المبحث الثالث

تدخلهم في مسائل السياسة العليا :

لقد كانت الإنكشارية سلاحاً حاداً رهيباً استطاعت الدولة العثمانية من خلاله تحقيق أكبر انتصاراتهم ، وفتوحاتهم ، كان الجيش العثماني يخوض غمار المعركة ضد أعتى الجيوش وأقواها ، ولكن شيئاً فشيئاً تبوأَت الإنكشارية مركزاً مهماً في الدولة ، وأصبحت قوة خطيرة تحكمت رداً من الزمان في السلاطين وفي السياسة الخاصة بالدولة .

حيث بدأوا يشكلون خطراً على الدولة بتدخلاتهم في القصر كما سبق وأن أوضحت ، وكذلك تدخلهم في المسائل السياسية العليا حيث رفضوا التقدم في حرب أو الخروج لمعركة وغير ذلك مما أثر بشكل سلبي على كيان الدولة من الداخل ، إضافة إلى هذا أن الإنكشارية أدركوا أهميتهم في المعارك ومقدرتهم القتالية فداخلهم الغرور ، وبدافع هذا الإحساس وصلوا إلى أعلى مستوى وزجوا بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي بالطبع مسائل ليست من اختصاصهم وكانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد .

وتدخل الإنكشارية في السياسة العليا كان له أبلغ الضرر على الدولة حيث أنه عندما تسيطر عقلية عسكرية على الحكم ، فإن هذه الدولة كتب عليها الهلاك لأن رجل الجيش ، يفكر بالسيف فقط ، لا يفكر بعقله وهو في نفس الوقت ليس رجل سياسة وإنما رجل حرب

وفتح بلاد وحصون ، وحكمه يصبح ليس فيه أي مرونة أو ليونة ، إضافة إلى أن الإنكشارية ، ستتخذ من أسلوب التمرد وسيلة لتحقيق رغباتها ، ولن تبقى في الثكنات العسكرية للتدريب ، وإنما ستتدخل في السياسة ، مما جر على الدولة المصاعب والنكبات . (١)

أصبحت الإنكشارية هي القوة المتحكمة تماماً في سير السياسة فإذا لم تكن ترغب في شيء قضت عليه ، وهذا ما حدث بالنسبة للإصلاح ، فقد استطاعت أن توقفه لأنه ليس في مصلحتها .

وقد صدق المؤرخون عندما قالوا عنهم أنهم تحولوا من "ضباط أمن ودفاع" إلى "آلات شر وفساد" فقد تضاعلت صلاحياتهم في وظيفتهم الأساسية الحرب والقتال ، وتفاقت سلطتهم على الناس والأرواح ، وكثر تعديهم على الأموال والأعراض .

ونجد أنهم لم يتركوا سلطاناً إلا وأدخلوا آراءهم في سياسته العليا.

أول ذكر لتدخلهم في السياسة العليا في عهد بايزيد الثاني ٨٨٦ هـ - ٩١٨ هـ / ١٤٨١ م - ١٥١٢ م ، فقد ساد ، الهدوء في بداية عهده ، ولكن الإنكشارية ظلت تتحين الفرصة لتستهتر بأوامر السلطان بايزيد ، خاصة مع طول المدة التي بقوا فيها بلا

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٣ .

حرب، وجاعتهم الفرصة مناسبة عندما آوت مدينة بروسة (*)
الأمير جم (**)، فساروا إليها وهموا بسلب المدينة، ولم يوقفهم
عن هذا الأمر إلا دفع السلطان بايزيد لهم ألف أقة لكل جندي. (١)
وعلى هذا نرى أن تمردهم كان في البداية كشعلة صغيرة في
الهشيم لكن رغبة السلاطين في استمرار الفتوحات ونشر الإسلام
جعلهم يتحملون مطالب الإنكشارية وتمرداتهم المبكرة جداً . خاصة
وأن لهم الفضل بعد الله في الفتوحات ونشر الإسلام .

وبذلك أعتلى العرش سليم الأول ، والذي اعتبرته الإنكشارية
مديناً لها بحياته والعرش ، فأغدق عليهم الهدايا ، إلا أن هذا لم
يجدي نفعاً ، فقد اسهموا في تقليص الفتوحات ، وتمردوا عليه رغم
قوة شخصيته وصرامته ، ورغم محاولته أن يربطهم مباشرة
بشخصه ، إلا أن ذلك لم ينفع . (٢)

ومع هذا فقد ظل خطر الإنكشارية جاثماً على الدولة العثمانية
وعلى سليم الأول بالأخص ، إذ أنه رضخ لرغباتهم في توزيع
العطايا، لكن سرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم الصريح في السياسة
العليا بعد عام ونصف في حرب سليم الأول ضد الشاه إسماعيل

(*) بروسة مدينة تقع في الأناضول . بنيت على سفح جبل ، أسسها ملك بيثيني ، بروسة بروسياس
الثاني لها أهمية تجارية ، واستراتيجية في الدفاع ضد الأتراك فتحها أورخان سنة ٧٢٦هـ - ١٣٢٥م
وجعلها عاصمة ولاياته . س. موستراس : مرجع سابق ، ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

(**) طوال فترة حكم السلطان بايزيد الثاني كان على خلاف مع أخيه جم على العرش وهذا ما جعله
يوقف الفتوحات على الجبهة الخارجية ، ويتفرغ للجبهة الداخلية ، .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٢ .

(٢) مرجع سابق ، ص ١٣٢ .

الصفوي ، وكان تدخلهم ينذر بخطر شديد . (١)

وقد كانت أبرز أخطار الإنكشارية في عهد سليم الأول هي تسببهم في إيقاف بعض الفتوحات ، مثل إيقاف الحرب في بلاد فارس ، بل وقطع رأس الصدر الأعظم ورأس قاضي العسكر ، ورأس قائدهم أيضاً. (٢)

وتفصيل هذه التمردات أنه في أثناء حرب الدولة العثمانية مع الدولة الصفوية في فارس ، وأثناء سير السلطان سليم خلف خصمه الشاه إسماعيل الصفوي ، وكان سليم معسكر في منطقة " أق ده " القريبة من قلعة " كماخ " حيث تبادل الرسائل مع الشاه إسماعيل الصفوي ولكن دون نتيجة وبقي سليم على رأيه يسعى خلف خصم لم يخرج لمقابلته ، في الوقت الذي دمر فيه هذا الخصم الجسور وحرق الغلال وأعلاف الحيوانات، فبدأت خطة الشاه إسماعيل في الأفق للإنكشارية ، وهي أن يخوضوا في الأراضي دون مؤن أو أعلاف، خاصة وأن المواد الغذائية بدأت تقل في توزيع الجرايه اليومية ، فبدأت همسات ولمزات الإنكشارية، وكذلك أصوات التذمر في الارتفاع ، ولأن الوزراء ومستشارين السلطان خافوا من تجيش الجيوش دون فائدة ، حاولوا إيصال (*) هذا المعنى إلى السلطان

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٠ .

(٢) محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(*) وقد كلفوا همدم باشا بكاربك قرمان بمهمة إيصال تذمر الإنكشارية للسلطان وكان رفيق صباه وكانت مهمته صعبة وشاقة خاصة مع مزاج سليم المتعكر ، وقد باعت مهمته بالفشل ودفع حياته ثمناً لها ، انظر محمود حسن الصراف : معركة جالدران ٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م ، د. ط ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩١ م ، ص ٨١ .

سليم ، لكن دون فائدة ، خاصة وأن الإنكشارية قد قطعوا المسافات الطويلة دون أن يقابلوا هذا العدو الذي أتوا لمحاربته ، وبدأ عليهم الإرهاق والتعب وعدم الرضا ، وقد تمت تهدئتهم قليلاً بعد أن عين " زينل باشا " في قيادة الجيش بدلاً من همد باشا^(*) (١) في هذه الأثناء كانت موقعة جالديران^(**) على الأبواب ، أشيع بين الجنود أن السلطان مصمم على السير إلى تبريز وفتحها ، ولأن الإنكشارية قد سئموا من طول الطريق ومتاعب السفر ، إضافة إلى قلة المؤن ، ثارت الإنكشارية للمرة الثانية ولكن هذه المرة اختلف أسلوبها عن سابقتها ، فقد كان الفضل في تهدئتهم في المرة الأولى يرجع إلى سياسية همد باشا ، وهذه المرة جاء التمرد على شكل عصيان عسكري فقد وضعوا بنادقهم على الأرض وعلقوا عليها أحذيتهم ، وهذه الأعمال في عرفهم تدل على أنهم لن يتحركوا خطوة واحدة إلا في اتجاه إستانبول. (٢)

فتنبه السلطان للموقف المتدهور ، وبدأ في علاج الأمر وقد أرسل مندوبين من قبله لمقابلة ممثلي الإنكشارية ، والذين قالوا ما يلي :

(*) ذكرت بعض المصادر التاريخية أنهم أثناء هذا التمرد أطلقوا الرصاص على مقر قيادة السلطان ، وأثاروا عليه لواء الوكلاء ، راجع إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٧ . ولكن لم يأتي ذكر هذه الحادثة في مرجع أو مصدر آخر .

(١) محمود حسن صراف : مرجع سابق ، ص ٨٠-٨١ .

(**) جالديران : تقع صحراء جالداران في شمال غرب مدينة خوى ، وتبعد عن مدينة تبريز ٢٠ فرسخاً . وكانت من توابع ولاية " يخور سعد " الأرمينية ، محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ٨٦ .

(٢) مرجع سابق ، ص ٨٤-٨٣ .

" لقد حضرنا للحرب ، والحال أننا لسنا أمام عدو حتى نحاربه ، وإلى أين يمكن الذهاب في هذا البلد الخرب؟؟!!
إن سفرنا الطويل وقلة المؤن " الجراية والعلوفة " قد أصابت خيول الفرسان والمدفعية بالتعب والإرهاق ، والجيش الذي أصيب بالتعب والإرهاق لن يتمكن من التعامل مع جيش العدو المحتفظ بقوته ، علاوة على أنه في حالة الدفاع. تقصير من هذا ؟ وهذا العار الذي لحق بنا أسوأ لنا من الموت ، ويمكن إرسال شخص إلى "أردبيل أو غلو " أي الشاه إسماعيل ليغمد معه صلحا . (١)

وعلى أثر هذا الحديث اضطر السلطان إلى الخروج بنفسه من مقر القيادة، ليتحدث معهم ، واكتفى بتهديدهم ، ولمح إلى تحقيق رغبتهم كذلك، كما أنه أشاع بين الإنكشارية عن طريق جواسيسه أنه سيعقد صلح مع الشاه إسماعيل بمجرد وصوله إلى مدينة " خوى " بتكليف العلماء بهذا الأمر ، وإذا لم يتمكنوا من عقد الصلح فإنه لا مفر من الحرب . وهكذا نجحت خطة السلطان وهدأت ثورة الإنكشارية ، وعاد كل فرد منهم إلى وحدته وتحرك الجيش باتجاه " خوى " (*) .

وكانت هذه الأخبار قد وصلت إلى الشاه إسماعيل ، فأراد استغلال وضع الجيش العثماني للذيل منه ، وهو في حالة الإجهاد

(١) محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ٨٣ .

(٢) خوى : تقع في ولاية طرابزون ، لواء كردستان ، على البحر الأسود . س. - موستراس : مرجع سابق ، ص ٢٦٠ .

والإحباط النفسي وعدم الاتزان ، فتحرك صوب " خوى " وقد وصلت هذه الأخبار لسليم عن طريق جواسيسه (*) ، وفي أثناء سير سليم إلى " خوى " جاءت رسالة من الشاه إسماعيل تفيد بأنه قرر الحرب وحدد سهل جالداران مكاناً لها ، فتحرك سليم فوراً لأرض المعركة ، وفي هذا كان راحة لسليم لخوفه من التقدم أكثر في شمال غرب فارس لتعرضه لعصيان الإنكشارية من جديد ،^(١) وهكذا وقعت معركة جالديران ^(**) الشهيرة في فجر يوم الأربعاء ٢ رجب ٩٢٠هـ الموافق ٢٢ أغسطس ١٥١٤م ، وتلا ذلك بعدة أيام دخول تبريز ، وقد دخلها سليم منتصراً واستولى على كنوز الشاه وتحفه ونسائه ، وانتقل سليم من نصر إلى آخر متوغلاً في أراضي الدولة الصفوية ، وتراجع الشاه إسماعيل إلى داخل بلاده خوفاً من

(*) لقد جاءت الأخبار تفيد بأن حاكم ديار بكر محمد خان أستاجلو وهو أحد قادة الشاه إسماعيل ، قد وصل بجيشه إلى خوى ، وأن الشاه أصبح قريباً منه ، ثم جاءت رسالة أخرى تفيد أن الشاه قد التقى مع قائده في خوى على رأس قوة القزلباش ، وهذا المعلومة جاءت من شهبسوار على بيك أحد قادة فرق الفرسان العثمانيين، وهذا الخبر أسعد سليم نوعاً ما فأهدى هذا القائد فرساً قيماً مرصعاً سرجه ولجامه بالياقوت والزمرد ، وكانت هذه الهدية دليلاً على الفرحة بهذا الخبر ، لأن سليم كانت حالته النفسية سيئة للغاية ، وقد كان مثل هذا الخبر سيرجه من مغبة التقدم دون معرفة النتيجة لأنه سيتعرض بلا شك لعصيان وتمرد الإنكشارية ، إضافة إلى تعريض جيشه للدمار والخطر الكبير .

(١) محمود حسن الصواف : المرجع السابق ، ص ٨٣-٨٦ .

(**) موقعة جالديران : لها أهمية تاريخية بالغة ، حيث بلورت العداء الديني والسياسي بين الجارتين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، وكانت محصلة طبيعية للعلاقات السياسية العدائية بين الطرفين ، وأصبحت الأمور فيما بعد نتيجة للعاطفة الدينية الجياشة لكلا الشعبين التركي والفارسي ، أصبحت العصبية المذهبية عصبية سياسية ، أي العداء بين السنة والشيعة ، وأصبح العالم الإسلامي منقسم إلى قسمين السنة وتترعها الدولة العثمانية ، والشيعة وتترعها الدولة الصفوية ، مما كان له أبلغ الأثر السيئ على الدولتين . محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ١٣٨ .

الوقوع في الأسر ، وكان سليم في قمة انتصاره . (١)

وقد أراد سليم اكتساح بلاد فارس ، لكن هذا الأمر لم يتم إذ سرعان ما حدث تغير في الموقف الحربي ، فلم تطل إقامة سليم في تبريز أكثر من ثمانية أيام ، بسبب عدم رغبة الإنكشارية ، في البقاء ، أو الموافقة على خطط سليم العسكرية ، وبدأوا يلحون في العودة لديارهم ، وبدأوا حركة عصيان وتمرد ثالثة ، على الرغم من أن السلطان بمجرد نزوله في تبريز ، إذا لم يمض يومان إلا وكان قد دفع لهم رواتب ثلاثة شهور دفعة واحدة كمكافأة لهم على الانتصار في المعركة ، إلا أن هذا لم يمنعهم من التمرد والامتناع عن تناول الطعام في وقت الظهيرة ، بل وقلبوا قدورهم أمام الخيام . وكان هذا دليل على اعتراضهم وعدم رضاهم . (٢)

وهكذا نجد أن العطف الذي أحاطهم به سليم من البداية لم يكن ذا فائدة فعندما أمرهم سليم بمواصلة الزحف في بلاد فارس ، رفضوا الامتثال لأوامره والتقدم إلى ما بعد نهر آراس (*) ، بحجة البرد القارس وقلة المؤن وقد صدق القول فيهم " فإن أنت أكرمت اللئيم تمرداً " (٣)

في الناحية المقابلة كان الشتاء على الأبواب ، والجيش قد عضه الجوع ، لقلة المواد الغذائية في هذه البلاد ، خاصة وأن الشاه

(١) عبد العزيز الشناوي ، ج ١ ، المرجع السابق ن ص ٥١٠ . انظر محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ٨٦ .

(٢) مرجع سابق ، ص ١١٧ راجع بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٥٢ .

(٣) هو نهر آراس Aras وهو ينبع من جنوب تركيا ويمر بشمال إيران ثم روسيا ويصب في بحر الخزر . انظر محمد فريد بك المحامي : مصدر سابق ، ص ١٩١ .

(٣) مصدر سابق : ص ١٩١ . انظر محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٣ .

إسماعيل قد أمر بحرق المؤمن والغلال التي في تبريز وقراها ، ودمر مصادرها تماماً ، لكن السلطان استطاع بصعوبة بالغة توفير الغلال من قمح وشعير لقواته ، والأعلاف للدواب ، وقد كلفته مبالغ طائلة في شرائها من أرمينيا وكردستان ، وكذلك في نقلها ، ومن هذا المنطلق ، رأى أنه من الصعب توفير المؤن اللازمة للجيش خلال فصل الشتاء لارتفاع تكاليف شرائها ونقلها من ناحية ، ومن الناحية الأخرى انقطاع الطرق بسبب تراكم الثلوج في المنطقة ، فأجل فتح تلك البلاد إلى فرصة أخرى، وقرر الرجوع إلى بلاده أماسيا ليقضي فصل الصيف فيها ويستأنف الحرب في الشتاء ، ولكن الإنكشارية عندما علموا بذلك ثاروا وهاجوا وأقسموا على أن ما من قوة في الدنيا تستطيع إجبارهم على التوغل في تلك البلاد الفيافي الجرداء . (١)

وقد استدعى السلطان سليم أغا الإنكشارية وجماعة من قادتهم وكان في حالة غضب وسألهم لماذا لم يتناول الجنود طعامهم ، وما هو سبب عدم رضاهم، بالرغم من أنهم أخذوا رواتب ثلاثة شهور ، وحصلوا على جزء كبير من الغنائم ، وعطايا الفتح،فماذا يريدون ؟ أجابه أغا الإنكشارية ، أن مطلبهم الوحيد هو الاكتفاء بهذا الفتح الكبير والعودة إلى آسيا الصغرى بأسرع ما يمكن . فأمرهم السلطان مدة ٢٤ ساعة ليقدموا ردهم كتابة ليتسنى دراسته . (٢)

(١) محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ١١٧-١١٨ . انظر حبيب السيوفي مرجع سابق ،

ص ١٧ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٩١ .

(٢) محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ١١٨ .

وفي اليوم التالي ذهب أغا الإنكشارية إلى السلطان سليم وقدم عريضة (*) موقعة من ضباط وجند الإنكشارية ، أصرّوا على عدم محاسبة أهل فارس ، وذلك لأنهم مسلمين وموحدين بالله ، ولكن يختلف مذهبهم ، وقد تأثر سليم بهذه العريضة جداً ، وطلب من العلماء والقضاة والمفتي أن يعرف فتواهم في مذهب الشيعة هل هو حق أم باطل ؟

وقد تدارس العلماء هذا الأمر وخرجت فتواهم (**) بأن هذا المذهب باطل ويجوز محاربتهم لأنهم حلّوا أكثر الأفعال المحرمة ، والذي حلّه الله حرموه ويغيرون في أحكام القرآن ، وقد أرسل سليم إلى الإنكشارية نسخة منها ، ليقرأ على الجنود ، ولكن لم تهدأ ثورتهم إلا ظاهرياً ، وبدأوا في ممارسة أعمالهم اليومية داخل معسكراتهم ، إلا أنهم كانوا لا يزالون في داخلهم يرددون أن محاربة الفرس ليس لها داعي لأنها بدون سبب . حتى أنه في نفس الليلة قد أطلقت ثلاث سهام على مقر إقامة السلطان ومزقت خيمته وبحث في هذا الأمر ولم يجد نتيجة . وإزاء هذا الموقف قرر السلطان نهائياً العودة إلى إستانبول . (١) وقد خاف سليم من تمردهم مرة أخرى ، وهو بعيد عن قاعدة دولته مما قد يعرض الجيش للتمزق ، وكان تقدير السلطان للموقف الحربي أن الانسحاب هو أخف الضررين ، خاصة وأنه خاف من أن ينتهز الشاه إسماعيل

(*) لمراجعة نص العريضة . انظر الملاحق .

(**) لمراجعة نص فتوى العلماء والقضاة انظر الملاحق .

(١) محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ص ١١٨-١٢٠ .

هذه الفرصة الذهبية ، ويعيد ترتيب جيشه ، ويعاود الهجوم على الجيش العثماني وينال منه وتصبح الانتصار هزيمة ، فآثار سليم الرضوخ لرغبتهم والعودة . (١)

وترى الدراسة أن في تمرد الإنكشارية بعضاً من الحق حيث أن المدة طالت ، وظروف الطقس سيئة ، إضافة إلى أن قلة المؤن الغذائية والأعلاف زادت من الأمر سوءاً ، كما وأن سليم لم يستمع لهم في البداية وقتل همدى باشا ، ولكن تمردهم لا يصل إلى درجة إيقاف الحرب ، وإنما كان يكفي إظهار عدم الرضا والسخط فقط خاصة وأن سليم قد رضاهم بالعطايا ، أما بالنسبة لعدم اقتناعهم بقتال الصفويين الشيعة فهذا غير وارد لأنهم عندما خرجوا للحرب كانوا يعلموا أنهم ذاهبين لحرب الدولة الصفوية واعتبروه جهاد للقاء على المذهب الشيعي .

وقد كان في أثناء الإعداد للحملة ، أن خاف قادة الجيش والوزراء من بعد المسافة ووعورة الطريق ، ولكن حدث ما ثبت عزم السلطان هو أن أحد أفراد الإنكشارية ويدعى عبد الله أرتى على قدمي السلطان وقال:

" يا مولاي لا تتردد في هذا الجهاد المقدس ، ولكن موافقاً دائماً وسيفك بتاراً . إن جنود الإنكشارية معك ، وسوف يرافقونك إلى أي مكان تتوجه إليه ، ونحن في انتظار أوامرك لمحاربة " أردبيل أوغلي".

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤٩٥-٥١٠ .

ومن هذا النص يتضح تصميم الإنكشارية على الحرب ، وأصبح الوضع واضحاً ومهيئاً للمسير وقد نال هذا الجندي استحسان السلطان ، لدعائه ورجاءه ، حتى أنه رفع درجته من قائد فصيلة إلى درجة أعلى بجانب ولاية سالونيك .^(١) وهذا يدل على أن الإنكشارية كانت تعلم وجه الجيش ومن سيحارب ، فتّمردهم إذاً لم يكن بسبب الذي ذكروه في العريضة ، وإنما كان فقط لخوفهم من قلة المؤن ، ولطمعهم في عطف السلطان ، ورغبتهم الحقيقية في العودة لبلادهم .

على أنه يوجد أسباب أخرى لمطالب الإنكشارية ، مثل سوء الأحوال الجوية في فارس ، إضافة إلى أنهم تذرعوا بحجة الاكتفاء بهذه الفتوحات في بلاد أرمينية وما بين النهرين ، كما أوضحوا أنه من الصعب تعقب الشاه إسماعيل الصفوي ، لوعورة المسالك وكثرة المستنقعات ووجود الهضاب المرتفعة .^(٢)

و يوجد سبب آخر لتمرد الإنكشارية وإذ لم تذكره أغلب المصادر، فقد ذكر في مصدر واحد ، حيث أوضح أن الإنكشارية كانوا لا يرضخون لرغبة السلطان إذ ما قام بعمل لا يعجبهم فلم يقبلوا أن يأخذ سليم بهروزه هانم^(*) زوجة الشاه إسماعيل المسلمة ، وإزاء هذا الموقف، وحتى لا يكون سليم عرضة للقليل والقال من

(١) محمود حسن الصراف : المرجع السابق ن ص ٤٩ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٠ .

(*) بهروزه هانم هي زوجة الشاه إسماعيل والأقرب إلى قلبه ، ونفسه من بقية زوجاته ، وقد حاول استردادها مرات عدة من الأسر لكن سليم لم يوافق ولم تكتب أخبار كثيرة عنها احتراماً لسيدهم وإمام الشيعة . محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ١١٠ .

قادة الإنكشارية فزوجها لقاضي عسكر الأناضول ، لكن هذا الزواج كان مشئوم ، إذ لم يمض شهران حتى ثارت الإنكشارية أثناء طريق العودة في أماسيا ، واستمرت ثورتهم عشرة أيام ، وصبر سليم عليهم حتى وصل إلى إستانبول. (١)

وقد قرر سليم على إثر تمرداتهم المتكررة هذه أن يتخلص من رؤوس الفتنة والمحرضين على التمرد ، خاصة وأنه سمع من الإنكشارية تكرارهم لاسم ابنه سليمان ، فقلق وخاف من أن يفعلوا مع ابنه ما فعلوه معه ضد إبيه بايزيد ، وعندما اقترب من مشارف إستانبول أمر بنقل الإنكشارية عبر البحر ، وحينما رأوا الإنكشارية أنفسهم في هذا المأزق ، ليس لديهم رواتب أو سفن تدخلهم العاصمة ، فخدمت ثورتهم، وذهبوا إلى أبواب العاصمة ، حاملين عصيهم البيضاء دليل السلم ، وطلبوا السماح من السلطان مظهرين الندم على ما فعلوا ، (٢) فاجتمع بكبار شخصيات الإنكشارية وتحدث معهم على الثورتين المذكورتين وعرض أسماء مثيري التمرد ، وأصدر أمر إلى قاضي أدرنه يتضمن تنفيذ حكم الإعدام فيهم. (٣) ثم أحضرهم مكبلين بالحديد وضرب أعناقهم وتخلص من رؤوس الفتنة عند أسوار المدينة ، ثم سمح للباقي بالعودة لثكناتهم ، كما جعل لنفسه الحق في تعيين القائد العام لهم ، بدون أن يكون من قادة

(١) محمود حسن الصراف : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(٢) حبيب السيوفي : المرجع السابق ، ص ١٧ .

(٣) أرشيف توب قابي سراي : تصنيف ١١٤٥٧ E محمود حسن الصراف : المرجع السابق ،

الإنكشارية وذلك لضمان السيطرة عليهم .^(١) وفي أثناء ذلك قام بالتخلص من قاضي العسكر جعفر جبلي زوج بهروزه هانم ، وقتله ، وهكذا انتهت قصتها ولم يعرف مصيرها .^(٢) وبعد هذه الأحداث والتمردات والقضاء على من قام بها لم يسمع بعد ذلك عن ثورات أو تمردات للإنكشارية داخل إستانبول^(٣) ولكن خارجها سيكون هناك ثورات كما سيأتي ذكرها .

لقد كانت لهم تدخلات في أثناء ضم مصر فقد حصل بين الإنكشارية وبعضهم اختلاف وارتفعت أصواتهم وأرادوا الهروب من ساحة المعركة ، ولكن خافوا من عار الهزيمة ، فأثروا البقاء والتصالح والانقضاء على العدو ، وقد سمع سليم الأول أصواتهم فوقف ينظر إليهم ، فاعتقدت الإنكشارية أن السلطان يريد تركهم فأحاطوا بجواده ، وقالوا له بلسان واحد أين تذهب هل تسلمنا للموت وتتجوا أنت بنفسك ، قف وأثبت أما تغلب أو تغلب .^(٤) هذه الحادثة إن هي صغيرة وغير محدده بزمن أو مكان ولكن تدل على مدى استعدادهم للثورة والتمرد ، على الرغم من أنهم جنود دربوا على الحرب وليس العصيان .

(١) حبيب السيوفي : المرجع السابق ، ص ١٧ . أنظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ .

(٢) محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ١٢٨ . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٩١ .

(٣) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٨ .

(٤) محمد الزنبلي الرمال : سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن بايزيد بن السلطان محمد الفاتح القسطنطينية من الحروب والقتال . مخطوط ورقة ١٤-١٥ .

لقد كانت لهم حركات تمرد في القاهرة ففي ٤ شعبان ٩٢٣هـ / ٣١ أغسطس ١٥١٧م حدثت واقعة مهولة ، حيث قبض السلطان على حوالي أربعين من جنود الإنكشارية وقد أمر بشنق جماعة منهم ، وقطع أيدي البعض الآخر ، وذلك لأنه ثبت عليهم أنهم أرادوا قتل السلطان أثناء تواجده في مقياس النيل كما وأن السلطان أراد معاقبتهم على ما فعلوه مع خاير بك^(١) في نفس السنة يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان ٩٢٣هـ / ٢٤ سبتمبر ١٥١٧م حيث أرسل إليه بخبره بأن الإنكشارية ثارت وطالبت بأن يجعل لهم كل يوم لحم وعليق مثل المماليك سابقاً.^(٢)

وقد أحس السلطان سليم الأول نزعة الإنكشارية نحو التدخل في السياسة العليا والتمرد العسكري ، وقد وضحت له هذه الأمور منذ الأيام الأولى لحكمه وفي أثناء حربه في بلاد فارس ، فرأى أن يحد من قوة الإنكشارية بعد ما أحس بضغطهم الشديد عليه ، وكسر حدة قوتهم ، وجبروتهم ، مع الإبقاء عليهم كتنظيم عسكري في الجيش ، والاستفادة منهم كقوة مشاة لها ثقلها في الحرب ، فقام

(١) خاير بك أول أمير أمراء للعثمانيين على مصر . أصله شركسي ولد في إقليم قراج عام ٨٦٨هـ / ١٤٦٤م تربي في قصر قايتابي ، وصار من ممالك قايتابي ، تدرج في الوظائف ، حتى أرسل إلى السلطان بايزيد الثاني رسولاً بهدايا قيمة ، وقد شكل دوراً أثناء ضم سليم الأول لمصر ، ودوره الجيد انعكس في توليه منصب والي مصر لما له من معرفة ودراية بأحوال مصر والمماليك وقيادة العرب ، وقد نظم علاقة الأمراء العثمانيين والجيوش والمماليك وشيوخ العرب كان يقدم كل عام مقدار من خراج مصر وبارود وجنود أحياناً توفي عام ٩٢٨ هـ - ١٥٢٢م . الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني بتركيا ، ج ١٧ ، د. ط ، إستانبول : ١٩٩٨م ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) ابن إياس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، د.ت ، ج ٥ ، ص ٢٠٢ - ٢١٠ .

بتوزيعهم على البلاد المفتوحة، فعندما ضم بلاد الشام سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ثم ضم مصر ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، ترك قوات في الإقليمين لتعزيز القوات العثمانية في المنطقتين ولدعم الحكم العثماني من ناحية ، وتشثيت جموع الإنكشارية من ناحية أخرى ومنع تجمعهم في العاصمة ، وعندما عاد سليم الأول إلى إستانبول ، تلقى نداء استغاثة من خير الدين (*) بربروسا، ليعاونه في جهاده ضد الأسبان ، فأرسل له السلطان سليم الأول عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ألفين من الإنكشارية ، كإجراء سريع ، ولدعم حركة الجهاد الإسلامية في شمال إفريقيا . كما سمح له بتجنيد الأهالي من الأناضول حتى يتمكن من مواجهة الأخطار المسيحية الصليبية ، وقد أقبل أهالي الأناضول على هذا التجنيد طمعاً في الغنائم من ناحية ، وإسهاماً في حركة الجهاد الديني من ناحية أخرى ، هذه الأعمال جاءت متماشية مع سياسة سليم الأول في تفريق الإنكشارية وهي السياسة التي أرسى قواعدها إتجاه الإنكشارية (١). وذلك لأنهم إذا بقوا في العاصمة مجتمعين صاروا قوة كبيرة يصعب التغلب عليها في حالة أي تمرد .

(*) خير الدين بربروسا " أي حمر اللحية " أصله تركي نشأ في جزيرة مدلي ، في بداية حياته مارس التجارة، ثم أسس قاعدة في جريه بتونس ، انطلق منها إلى الجهاد البحري وقد صار اسم بربروسا يثير الرعب والذعر في قلوب القوى الصليبية في البحر المتوسط وعلى رأسها الأسبان . أنظر عبد اللطيف محمد الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، الطبعة الأولى ، الرياض : العبيكان ، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م ، ص ٧٦ .

(١) عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٠٠ . محمد سهيل طقوش: مرجع سابق، ص ٢٥٠ .

في أعقاب معركة مرج دابق ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، أعتقد الأهالي أن البلاد ستخلد للراحة ، ويرفرف عليها طير السعادة ، لكن الوضع لم يصبح ، إذ زادت الضرائب وصارت تجمع بقسوة ، وزاد فساد الإنكشارية فكانوا يجمعوا الأخضر واليابس في القرى ، خاصة وأن الإنكشارية كانت تنتشر في القرى ، وفي هذا الوقت يزيد الاعتداء على بيوت الأهالي وعلى أموالهم وأعراضهم ، ويكثر خطف النساء من الطرقات وهكذا .^(١)

وقد كان لهم تمرد في القاهرة حيث تذكر المصادر حادثة في يوم الإثنين ٢٧ محرم ٩٢٤هـ / يناير ١٥١٨م إذ طلب خيربك^(*) والي القاهرة من جنود الإنكشارية السفر للشام ، ولما جاء يوم الإثنين ولم يخرج الجنود وأظهروا العصيان على السفر ، قرّر خيربك الخروج لهم والقبض عليهم ، فنزل من قلعة قايتباي إلى مشارف القاهرة ، وحدثت فتنة واشتباكات بين جند خير بك وجند الإنكشارية ، حتى أن الناس خافوا على بضائعهم من نهب الجنود فنقلوها من الدكاكين إلى أماكن أكثر أمن وخاصة تجار الأقمشة ، لأن الناس كانت تعلم نهب الإنكشارية وضررها .^(٢)

لقد فسدوا كثيراً في فتوحات سليم الأول وكانوا يدخلون المدينة وينهبوها ويعيثون فيها فساداً ، مخالفين بذلك شروط

(١) محمد كرد علي : مصدر سابق ، ج ٢ ، ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) للاستزادة عن أحوالهم مع خير بك. انظر ابن إياس : مصدر سابق ، ج ٥ ، ص ٢٥٠ - ٢٥٨ .

(٣) ابن إياس : مصدر سابق ، ج ٥ ، ص ٢٣٨ .

التسليم ، وكانوا يرتكبوا شتى أنواع المعاصي والمحرمات ، خانوا الأمانات ، وقطعوا الطرق ، ونهبوا المنازل والدكاكين .^(١)

وجاء السلطان سليمان القانوني ، وتقدمت الفتوحات في أيامه تقدماً كبيراً ، وكثرت الفتوحات ، وبلغت الدولة أوج تقدمها وإتساعها ، لكن هذه الفتوحات لم تمنع الإنكشارية من القيام بتمردات ، ففي أثناء فتح رودس وعندما تم عقد الصلح وتسليم الجزيرة في خلال إثني عشر يوم ، وكان بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحاصرة ، حتى لا يتضرر الخارجين من المدينة وكان ذلك في ٢ صفر سنة ٩٢٩هـ / ٢١ ديسمبر ١٥٢٢م لكن جزءاً من الإنكشارية لم يطق صبراً فدخل المدينة في ٥ صفر مخالفين بذلك أوامر السلطان سليمان ، وقاموا بنهب المدينة وسلبها وارتكاب كافة أنواع القبائح ، ومما أغضب عليهم السلطان ، وأمر بالالتزام بشروط التسليم ، وعاقب المفسدين على أفعالهم وهكذا عاد الأمن إلى المدينة .^(٢)

لقد أصبح أسلوب الإنكشارية إذا فتحوا أي بلد السلب والنهب وحرق الزرع وتخریب الديار .^(٣) وكانت حركة تمردهم في رودس^(٤) تدل على أنه أصبح من الصعب السيطرة عليهم وأنه من

(١) حسين ابن كمال البغدادي القادري : مخطوط ، ورقة ٥ . وراجع محمد أنيس : مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٢) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ راجع بسام العسلي مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٢٤ .

(٣) حسين كمال القادري البغدادي : ورقة ١٩ .

(٤) رودس : تقع في البحر المتوسط ، تعاقب على حكمها الإغريق ثم الفرس ثم الرومان ثم فرسان القديس يوحنا ، حتى فتحها سليمان الثاني ، س . - موستراس : مرجع سابق ، ص ٢٧٨ .

الممكن خروج زمامهم من يد السلطان ، استباحوا لأنفسهم أشياء عديدة ليست من أخلاق الجندي المسلم ، وكل ذلك حدث في عهد يعتبر من أقوى عهود الدولة العثمانية ، وما سيأتي بعد ذلك كان أكثر فظاعة ، على الأقل هنا لم يفكروا مطلقاً بقتل السلطان .

وبعد فتح رودس لم يقم السلطان سليمان بفتوحات لمدة ثلاث سنوات ، هذا الهدوء لم يريح الإنكشارية ، كانوا يريدون الحرب لكثرة الغنائم ، ولأنهم لم يميلوا بعد لحياة الراحة والرفاهية ، وكانوا كالنار تَأْكُل بعضها إن لم تجد ما تأكله ، ^(١) كما أن جنود الإنكشارية القدماء كانوا يتذكرون كيف أنهم حرموا من نهب رودس عند فتحها ، وقد زاد على ذلك أنه في سنة ٩٢٩هـ / ١٥٢٢م . بقوا في المدينة متحملين آلامهم لعدم وجود حرب ، في الوقت الذي خرج فيه السلطان سليمان لقضاء الشتاء في أدرنه للصيد ، مخالفاً بذلك القواعد بتركهم ، واصطحب معه الديوان وكبار الضباط ، فشعرت الإنكشارية بألم جديد أضيف عليهم ، فقد تركهم السلطان للبرد والبطالة ، فقاموا بعمل تمرد وقلبوا قدور حسائهم، ونزلوا إلى الشوارع مسلحين بأسلحتهم النارية والرماح والسيوف ، وقاموا بحرق بيوت بعض الأهالي ونهبها ^(٢) وهنا ترى الدراسة أن الجندي الإنكشاري تخلى عن صفات الجندي المسلم الذي تحلى بروح الجهاد والعطف على الأسرى و المعاملة الحسنة و أبدلها بالتمرد والنهب وعدم الإلتزام بواجبات الشريعة الإسلامية .

(١) محمد جميل بيهيم : مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(٢) هارولد لامب : سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم ، ترجمة شكري محمود نعيم، د. ط ، بغداد

نيويورك: شركة النبراس للنشر مؤسسة فرانكلين ١٩٦١م ، ص ١٠١ .

وذهبوا إلى بيت الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان في مصر ، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على ما في ديوان الجمارك ومستودعاته ، ثم عدد من بيوت الأعيان ، ثم توجهوا إلى حارة اليهود ، قرب السوق المسقفة ، وقاموا بنهب ما فيها ، وتركوا ورائهم الخراب .^(١)

وعندما علم السلطان سليمان بالأمر ركب البحر متوجهاً للجنوب ، ولم يذهب للجموع النائرة قرب السراي ، وإنما اتجه إلى الجوسق في أعلى البوسفور على المياه العذبة ، ثم توجه مع حرس قليل إلى قاعة الاستقبال المهجورة قرب ثكنات الإنكشارية ، واستدعى ضباط وحداتهم ، وعندما حضر الضباط اندفع معه مجموعة من الجند رافعين السيوف في وجه السلطان وكان هذا خطر عظيم ، إذ من الممكن أن يقوم الإنكشارية بمهاجمة السلطان ، لكنه تدارك الأمر فسل سيفه وقتل واحد ، وجرح الآخر وعندما رأى الجنود الدماء على الأرض ألقوا سيوفهم ، فقام السلطان بعتابهم بعدل وقسوة معاً ، وأعدم أغا الإنكشارية وقادة العصيان ،^(٢) ووزع السلطان على الباقين ألف دوكة^(*) " قطعة ذهبية " كدفعة أولى تتلوها أقساط إذا هداؤا وعادوا لثكناتهم ، فرجعوا

(١) عبد العزيز الشناوي ، ج ١ ، ص ٩١ ، راجع محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص ١٣٣ ، هارولد لامب : مرجع سابق ، ص ١٠١ ، محمد سهيل طقوش : ص ٢٥٠ ، انظر إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٥٠٨ .

(٢) هارولد لامب : مرجع سابق ، ص ١٠٢ .

(*) ذكرت في بعض المصادر أنها كانت مائة ألف دوكة " قطعة ذهبية " .

راضين بما غنموا ، وأنهبوا التمرد طمعاً في مزيد من العطايا . (١)

وقام السلطان بتشتيت بعضهم فوزعهم على المناطق ، وألقى القبض على رؤسائهم فقتل البعض ، وعزل الآخر . (٢) فقد فكر في استئناف الجهاد لأنه تأكد أن ترك الإنكشارية دون عمل ستكون عاقبته وخيمة على السكان والأمن العام ، فهم لا يتورعون عن ارتكاب أي فعل وهكذا قرر إكتساح بلاد المجر وفتح مدنها ، ونشر الإسلام بها . (٣)

وما أن أعلن الشتاء والتلوج نهايته ، وبدأت الأعشاب تغطي الأراضي حتى دقت طبول الحرب مرة أخرى ، وبهذا لم يكن أمام السلطان سليمان حل إلا إشغالهم في حرب جديدة . (٤) وفي نفس الوقت فرصة لإعادة مجد الفتوحات العثمانية وإحياء لحركة الجهاد ونجد هنا أن تمردهم كان لطلب المال ، فقد حاول السلطان امتصاص رغبتهم الدائمة في الحرب والثورة ، عن طريق إشراكهم في حرب جديدة ، ليحول تفكيرهم عن التمرد إضافة إلى أن هذا العمل سيجعل وقتهم غير كافي لتدبير حركات تمرد ، إضافة إلى قوة شخصية السلطان سليمان ، وقد عاد هذا بالنفع على الدولة العثمانية حيث امتدت الفتوحات في شرق أوروبا . (٥)

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٣ ، راجع عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٢) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ .

(٣) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٩ .

(٤) هارولد لامب : مرجع سابق ، ص ١٠٢ .

(٥) عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٩١ .

وفي حرب المجر أصدر السلطان سليمان أوامر صارمة بأن لا تمس مدينة بودابست التي فتحها، والمحافظة على سلامة جنود النمسا في وقت انسحابهم ، وهذا وفق الاتفاق المبرم بين الطرفين ، لكن الأمر لم يع الإنكشارية ودخلت المدينة وانقضت على من فيها بالقتل والنهب ، ولم تهتم للأمان الذي منحه السلطان للجنود . (١)

وهناك تمرد آخر وقع من الإنكشارية في أثناء حملة فيينا عام ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م ، حيث قامت الإنكشارية بمطالبة السلطان بزيادة الرواتب ، وقد توسط الوزير إبراهيم باشا بينهم وبين السلطان لكنهم تعدوا عليه وشتموه وثاروا عليهم . (٢) ويلاحظ القارئ أن الإنكشارية أصبحت في حالة ثورة مستمرة في السلم أرادت الحرب ، وأثناء الحرب لم يهتموا بأمان المدن التي تسلم نفسها ، ومن هذه الفترة يبدأ الخطأ فيهم وفي السلاطين فلو تعاملوا منذ البداية معهم بحزم لما وصلوا إلى درجة أنهم يكونوا من أسباب ضعف الدولة العثمانية . (*)

أما عن تمردات الإنكشارية في الشمال الإفريقي في عهد سليمان، نجد أنه زاد نفوذهم مع ازدياد انتصاراتهم العسكرية التي أحرزوها في المنطقة كما صار لهم اليد الطولى في التحكم في الأمور فقد عارضوا مثلاً دخول بكربك إلى الجزائر ٩٦٤هـ /

(١) محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(٢) إسماعيل حقي أوزن : مرجع سابق ، ص ٥٠٨ .

(*) في عهد هذا السلطان زادت تمرداتهم كلها بسبب زيادة الأعطيات والرواتب وأخذ الهبات من السلطان فتكالبت عليه المحن و استهانوا بشخصيته نظراً لضعفها ، وصار همهم بدل الحرب والجهاد وفتح البلاد ونشر الإسلام ، أخذ العطايا من السلطان . وهذا كان مؤشراً مبكراً جداً لفسادهم .

١٥٥٦م بل وقتلوه حين دعمه مجاهدوا البحر ، كما قاموا بأسر
الوالي ٩٧٠هـ / ١٥٥٦م " حسن باشا " وهو ابن خير الدين
بربروسا وأرسلوه إلى إستانبول مصفد بالسلاسل بحجة أنه حاول
تجنيد القبائل في الجيش واتهموه بمحاولة الاستقلال . (١)

كذلك حدث أن تمردوا في عهد سليم الثاني ، فأظهر محمد
باشا الصدر الأعظم حزمًا ونشاطاً في مجازاة المتسببين في
الاختلال ، وإيقاف كلاً عند حده ، وكان سبب تمردهم تأخر
رواتبهم ، لفراغ خزانة الدولة من الأموال ، وقد واجهت
الإنكشارية لعدم صرف رواتبها صعوبات في أثناء تواجدهم في
الأسطانة ، ولكن حدث ما قضى على هذا التمرد إذ أنه تصادف
وصول أحد القادة العسكريين من إيطاليا محملاً بالغنائم ، فصرفت
لهم الدولة رواتبهم من هذه الغنائم . (٢)

كان الوضع كذلك في طرابلس ، ومع أن الدولة حاولت
التصدي لهم وردعهم إلا أنهم مارسوا سلطتهم من خلال ديوان
الإنكشارية . وقد صارت لهم كثير من الامتيازات في الجزائر ضد
مجاهدي البحر وسيطروا عليها خلال النصف الثاني من القرن
السادس عشر الميلادي (٣) .

وكانت لهم تمردات في بلاد الشام ، ولكنها لم تبلغ حد العنف
بالنسبة للثورات الأخرى ، ولم يكن لهم طمع في الزعامة بقدر ما

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٦ .

(٢) إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص ٩٧ .

(٣) عبد الكريم رافق : المرجع السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

هو ابتزاز الفلاحين فقط .^(١) ويعتبر عهد سليم الثاني بداية إزدياد المشاكل من الإنكشارية ، إذ أصروا على عدم الخروج للحرب ، إلا إذا كان السلطان سليم على رأس الحملة .^(٢) كما صارت عاداتهم عندما يثوروا لا تخمد الثورة إلا بتوزيع الأموال .^(٣)

عندما حدث تمرد في بلاد الحجاز على الحكم العثماني ٩٧٦هـ / ١٥٦٩م ، وخلص أهل الحجاز طاعة العثمانيين ، وأخرجوهم من الأماكن المقدسة ، وبقوا هم فيها ، كانت هذه فرصة للسلطان سليم الثاني للتخلص من الإنكشارية ، فأرسلهم إلى تلك البلاد البعيدة ، لإخضاع الثورة ، فأخضعوها بسهولة ويسر ، وعادوا مرة أخرى إلى إستانبول بشكل لم يتوقعه السلطان نفسه ، وقد توجس الصدر الأعظم منهم خطراً ، فأشار على السلطان سليم الثاني أن يقوم بالجهاد وفتح بلاد جديدة ، ووقع اختياره على قبرص والتي كانت تحت سيطرة البنادقة ، فجهز مئتي سفينة على متنها عشرون ألف من الإنكشارية واستقبلهم أهل الجزيرة بالترحاب ، لأنهم ملوا حكم البنادقة الظالم ، فضربوا حصاراً على " نيقوزيه " مدة ليست قصيرة ، وفتحوها ، وهنا يأتي دور الإنكشارية في الشغب ، حيث قاموا بقتل أهل المدينة حتى وصل عدد القتلى إلى خمسة عشر ألف ، وهم بذلك أثبتوا عدم جدارتهم بثقة أهل الجزيرة بهم واستقبالهم بالترحاب ، فأهملوا هذه المشاعر وقاموا بما أملت به

(١) عبدالكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٤١ .

(٢) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٤٨٤ .

(٣) يوسف أصف : مرجع سابق ، ص ٤٨ .

عليهم طبيعتهم الثورية . أما مدينة فمغوسطه (*) فقد قاومتهم لمدة أربعة شهور حتى استسلمت في النهاية ، فنهبتها الإنكشارية وعاثوا فيها فساداً وأوتقوا كل من لاقوه . (١) ثم سارت الجيوش الإسلامية إلى جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا منازلها ، ثم اتجهوا إلى جزيرة كورفس ، وهي مفتاح بلاد البنادقة ، وحاصروها لعدة أيام ثم دخلوها وعاثوا فيها فساداً ونهباً وسلباً ، وكانت هذه أعمالهم في كل الجزر والمدن التي فتحوها في هذه المنطقة ، وطالت إقامتهم في البحر حتى قابلهم العدو . (٢) ويتضح مما سبق أن هذا صار منهجهم في الفتوحات ، وطريقهم النهب والسلب.

ثم جاءت معركة ليبانتو (**) البحرية لتفضح الإنكشارية وتنظيمهم المخل حيث خسرت الإنكشارية كثير من رجالها وخسرت الدولة العثمانية المعركة بسبب ضعف تنظيم الإنكشارية. (٣)

(*) فمغوسطه : مدينة تقع في شرق جزيرة قبرص ، ميناء جيد ، دخلها الأتراك عام ٩٧٩هـ /

١٥٧١م. س- موستراس : مرجع سابق ، ص ٤٥٢ .

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) أحمد زيني لحلان : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .

(**) معركة ليبانتو البحرية : وقعت في عهد السلطان سليم الثاني ١٧ جماد الأولى ٩٧٩ هـ - ١٧ أكتوبر ١٥٧١م ، حيث اشتبك الأسطول العثماني الإسلامي مع الأسطول المسيحي ، ولكن شاءت إدارة الله هزيمة الأسطول العثماني ، وقد كانت أول هزيمة للعثمانيين منذ أوائل ق ١٥م فرحت بها أوروبا ، وكانت إيذاناً بزوال السيادة العثمانية عن البحر المتوسط . انظر علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

وليبانتو : تقع في الطرف الشمالي الغربي لخليج كورنث في اليونان حالياً . علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

(٣) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٩-٢٠ .

وعندما تولى مراد الثالث الحكم ، استهل حكمه بمنع شرب الخمر، ربما يعود ذلك لأنه لاحظ أن هناك فئات من الإنكشارية انخرطت في شرب المسكر مما يعيق القوة العسكرية ويؤثر عليها . ولم يستطع مراد الثالث أن يحد من هذا الأمر كثيراً ، وذلك يدل على ضعف قوة الدولة العثمانية وعدم استطاعتها مجابهة منع الخمر وإقامة شرع الله عليهم ^(١) ، وهذا يدل على انحراف الإنكشارية عن خطها الإسلامي في الجهاد والشوق للشهادة . ^(٢)

وعهد السلطان مراد الثالث يعتبر فاتحة جبروت الإنكشارية وهو أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الإنكشارية بعد أن أدرك أنهم أصبحوا مركز قوة خطير في الدولة وتجاوزوا اختصاصهم كمحاربين بالتعدي على السلطان وتنفيذ أوامرهم ^(٣) وقاموا بتمردات أثناء التدريبات والتلفظ بألفاظ غير مناسبة ، حيث كان يوقع عليهم العقاب اللازم. ^(٤)

هذا الكرم من السلطان مراد الثالث لم يمنعهم من الثورة والتمرد مرة أخرى ، حيث أخذت طابع العنف أكثر من ذي قبل ، وأصبح أساس التمرد سوء الأوضاع الاقتصادية وانخفاض قيمة العملة التي كانوا يستلمون بها وراتبهم مما أدى إلى أنهم أصبحوا ميالين إلى السلب والنهب.

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٣ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٥٩ .

(٢) علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

(٣) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٠ .

(٤) أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة رقم ١٩٣٧١ خط همايوني H.H .

في عام ٩٩٠هـ / ١٥٨٢م بدأت الحملات العسكرية على بلاد فارس اتخذ الإنكشارية هذه الحملات وسيلة لجمع الأموال والسلب والنهب وتقسيم الغنائم فيما بينهم . كما أنهم لم يفوتوا فرصة للتمرد على قادتهم ، وانفقوا مع أشقياء جورجيا في أرمينيا والقفقاس على نهب وسلب البلاد التي يدخلوها واقتسام الغنائم فيما بينهم^(١).

وفي عام ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م تم عقد الصلح بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية ، تنازل بموجبه الفرس عن إقليم الكرج وبشروان ولورستان وجزء من أذربيجان وهدأت الأحوال في البلاد خلال عام ٩٩٤هـ وهدأت الحروب في أنحاء الدولة ، وقد أزعج هذا الأمر الإنكشارية والتي اعتادت على الاستمرار في الحروب نظراً لما تدره عليها من غنائم ، فقاموا بثورات حتى يزيدوا من دخلهم .^{(٢) (*)}

كانت الإنكشارية تتمرد إذا انقطعت الحروب وترتكب فظائع الأعمال ، في البلاد المفتوحة بل وفي الأستانة ذاتها ،^(٣) إذ أنه عندما تقع فتنة عظيمة أو حروب وسفك دماء ، ينحصر هذا في الإنكشارية وأفعالها .^(٤)

(١) محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص ١٣٣ - ١٣٤ . انظر علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٣٣ .

(٢) لقد قامت السباهية بثورات ولكن لو أتحدت مع الإنكشارية لكانت عواقبها وخيمة على حياة الدولة من الداخل والخارج . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٦٩ .

(٣) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٣٩ .

(٣) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٦٤ .

(٤) حسين بن كمال : ورقة ١٤ .

والسبب الحقيقي لتمردهم هو حرمانهم من الحرب وأغنامها ، وقد سولت لهم أنفسهم الجشعة القيام بتمرد جديد لجني المزيد من الأموال والغنائم ، على الرغم من أنه ليس هذا السبب وراء كل تمرداتهم فبعضها كان بسبب رغبتهم في إنهاء الحرب ، مثلما حدث في عهد سليم الأول في حربه مع الدولة الصفوية ، وهذا يدل على عدم ثباتهم واختلاف آراءهم وعدم معرفتهم ماذا يريدوا .

كذلك وصلت درجة فسادهم في عهد مراد الثالث إلى أنهم كانوا يتدخلون في تعيين أمراء منطقة الروملي ، وقد نجحوا فعلاً في عام ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م أن يعينوا أمير منطقة بغداد بالرشوة ، بعد أن أخفوه في ثكنتهم لمدة من الزمن .^(١)

ومما يؤكد عدم ثبات مطالبهم أنه عندما طال أمد السلم ، ولم تدخل الدولة في حروب جديدة بدأت تظهر الثورات في كل مكان من العاصمة وبودابست والقاهرة^(٢) وتبريز وغيرها من المدن ، مطالبين بالحرب والجهاد ، فاضطر سنان باشا^(**) الصدر الأعظم

(١) إسماعيل حقي أوزون ، مرجع سابق ، ص ٤٨٣ .

(٢) سيأتي الحديث عن ثورات القاهرة .

(**) سنان باشا : أحد أهم رجال الدولة العثمانية ، ١٥٢٠ - ١٥٩٦م ، من أصل ألباني تربى في الدوشرمة ، ترقى في المناصب بفضل وجود أخيه إياس آغا عين قائد على اليمن برتبة وزير ، قام خلالها بأعمال جليلة في ربط اليمن بالدولة العثمانية ، ثم عين أمير أمراء مصر ، ثم قائد أعلى للقوات البرية والبحرية . وفي عام ١٥٥٢م صار صدرأ أعظماً . قام بأعمال مهمة من أجل رفع مستوى الأقجة وأمر بفتح دور لسك العملة في أنحاء من الدولة العثمانية ، وأعظم مبادرة له مشروع قناة صقاريا لأهميته في تلبية حاجة القوات من الأخشاب ، ومن ناحية التجارة والاقتصاد ، لكن الحساد لم يمهله وعزل من الصدارة ، ثم عاد مرة أخرى وتوجه إلى إيران لإخضاعها ، ولم يستطع ، وعزل مرة أخرى وعاد للمنصب في عهد محمد الثالث ومات تاركاً ثورة طائفة خلفه ، اشتهر بالشجاعة مع قليل من الغرور . الموسوعة التركية : ج ٢٩ ، د . ط ، أنقرة ، ١٩٨٠م ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

إلى إدخالهم في حرب طاحنة ضد بلاد المجر ، رغم أنه متيقن من ضعف الاستعداد الحربي عند الدولة وحاجتها الماسة للراحة .^(١) وأكد على ذلك جميع الوزراء الذين رأوا أن من حسن السياسة إشغال الإنكشارية بحروب خارجية ، فأوعز السلطان مراد الثالث إلى حسن باشا^(٢) والي البشناق والهرسك بشن غارة على بلاد النمسا وإفتيال حرب حتى يُلتهى الإنكشارية بها^(٣).

وقد أدى عدم كفاية الاستعداد الحربي إلى سقوط عدد من القلاع العثمانية بأيدي النمسا التي ساندت المجر ، كما هزم حسن باشا والي الهرسك وقتل والي بودابست العثماني^(٤) وإذا نظرنا إلى إلحاحهم في دخول الحرب ، لا يوجد سبب مقنع إذ أن استعدادهم العسكري كان ضعيفاً ، فلماذا الحرب هل للغنائم ؟ واستمرت هذه الحرب خمسة عشر عاماً ، زلزلت أركان الدولة العثمانية الداخلية ، رغم ما حققته من بعض الانتصارات.^(٥)

وكانت هذه الحرب هي أولى مساوئ تدخل الإنكشارية في مسائل السياسة العليا ، إذ أنها ترغم السلطان على افتعال الحرب ،

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٦٤ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٤ .

(٢) حسن باشا : من أصل ألباني . جاء عن طريق الدوشرمة . شارك مع الجيش في حرب المجر تحت قيادة سنان باشا ، ثم عين أغا للإنكشارية ، ثم عين أمير أمراء شبروان ، وأثناء ذلك هاجم الروس وهزمهم وكبدهم خسائر فادحة . أصلح عملة الأقحاح عين صدرأ أعظم بناء على رغبة والده السلطان ، تزوج من ابنة السلطان محمد الثالث كان له دور عظيم في حرب النمسا . وقد ولي الهرسك ، وتم قتله أثناء الحرب في حديقته . الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني التركي ، د.ط ، إستانبول : ١٩٩٧م ، ج ١٦ ، ص ٣٤٣ .

(٣) إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٥١ .

(٤) علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٠٧ . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص ٤٦٩ .

(٥) علي حسون : مرجع سابق ، ص ١١٣ .

مما يعتبر مؤشر خطير يهدد كيان الدولة العثمانية الداخلي ، حيث فقدت هذه الدولة بعض أراضيها بسبب تمردات الإنكشارية وهذا دليل واضح على أن الإنكشارية كانت من أسباب ضعف الدولة العثمانية ومن ثم سقوطها.

ونتيجة للفوضى التي عمت البلاد في عهد مراد الثالث ، لم يعد حكام الولايات التابعة للدولة العثمانية يهتموا بالأوامر التي تصدر لهم ، وذلك لعدم وجود رقيب عليهم ^(*) ، وكان أشدهم وطأة والي قرمانية والذي أعلن العصيان على إستانبول ، فسار له الصدر الأعظم ليصده عن إستانبول التي أراد مهاجمتها . ^(١)

لقد كانت لهم عدة ثورات في الأقاليم في عهد مراد الثالث ففي تونس مثلاً كان لهم نفوذ واسع ، حاول الوالي العثماني مواجهة هذا النفوذ والتصدي له ، ولكنه لم يفلح ، وقد ضمت الإنكشارية في جنبااتها عناصر غير تركية ، برز خلالها مسلمون من أصل مسيحي وهؤلاء قاموا بثورات عديدة ، حتى صار لهم ديوان خاص بهم ينفذ رغباتهم ، ولقبوا رئيس الديوان بالداي وأسسوه سنة ١٠٠٠هـ / ١٥٩١م وقاموا بقتل بعض من أعضاء الديوان القديم . ^(٢)

وعلى نقيض ثورات العساكر في شمال إفريقيا في عهد مراد الثالث ، كانت ثورات مصر نتيجة لظروف اقتصادية وسياسية ، فقد

^(*) عندما كانت الدولة ترسل مفوضين معهم خط شريف يأمر بضرب عنق أحد الولاة ، كان الولاة لا يهتمون بهذا الأمر ويقوموا بالقبض على الرسول وقتله دون خوف من السلطان . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٣ .

^(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٣ .

^(٢) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

قامت الإنكشارية بسلسلة من التمردات في ٢ شوال ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م وحتى ١٠ ذي القعدة ١٠١٧هـ / ١٦٠٩م اتصفت هذه التمردات بالعنف والبطش ، ففي أول تمرد هاجمت الإنكشارية الوالي العثماني " أويس باشا " وهو في الديوان ، كما اقتحموا بيت قاضي القضاة الحنفي العثماني، وقتلوا عدداً من اتباعه ، كما بدعوا بسلب ونهب الحوانيت في القاعدة ، وهجموا على بيوت الأعيان وخاصة السكان المحليين ، ونهبوا الكثير منها ، ولم يهدأ التمرد إلا حين وافق " أويس باشا " على قبول طلباتهم، وكانت تتلخص في السماح بأخذ ما يسمى الطلبة ، وهي مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين وأصحاب الأتليان في الريف.(*)^(١)

أما عن الإنكشارية في دمشق ، فقد دخلت فيها عناصر من أصل محلي أي غير تركي ، كما حدث في كثير من الولايات الأخرى ، وذلك للاستفادة من الامتيازات الكثيرة التي تتمتع بها هذه الفرقة ، وهذا يدل على بدأ تسوس أنظمة الإنكشارية الصارمة ، والتي كانت لا تسمح لغير الأروام الانتساب إليها ، وبهذا اختلطت الإنكشارية مع السكان ، وصاروا تجاراً وتعاطوا الربا ، ودخلوا في الحرف ، وعاشوا خارج القلعة ، وقد أحس السلطان مراد الثالث

(*) وقد ذكر محمد بن أبي السرور البكري الأخباري المعاصر ، أنهم كانوا يأخذوها دون وجه حق ، ويذكر أن بلداً بالمنوفية كان مقدار الضرائب الذي يؤخذ منها مائة ألف ونصف فضة ، ولكن بالطلبة غرمت ضعف المبلغ ، وقد طلبت الإنكشارية النائرة منع أولاد البلد المحليين من الانتساب إلى الطوائف العسكرية ، ومنع دخول المماليك البيض أنظر عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٩ -

بخطر هذا الأمر فأصدر فرماناً في جمادى الأولى ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م موجهاً إلى حاكم دمشق يأمره فيه أن يعين في الوظائف الموجودة في الإنكشارية إناساً من رومي ، وليس من السكان المحليين أو الغرباء مثل الأكراد . ولكن صدور هذا فرمان جاء متأخراً إذ أن انتساب غير الأورام إلى الإنكشارية في دمشق بدأ قبل تاريخ هذا فرمان ، ولم يتوقف بصدوره ، بل ازداد شدة ، وعمت الفوضى بين صفوف الإنكشارية ، وكثر تحديهم للسلطات القائمة بل وأمتد تسلطهم خارج دمشق .^(١) وكانت في الفتن والتمردات تكثر مظالمهم وإجرامهم في البلاد .^(٢)

على أنه أبرز ثوراتهم في دمشق ما حدث في عام ٩٨٧هـ / ١٥٧٩م عندما قام أحد الجلادين بإعدام أحد مشايخ دمشق ، أثار ذلك العمل نفوس الإنكشارية ونقمتهم فقاموا بالقبض على هذا الجلاد وقطعوه بالسكاكين وقد ساعد على هذا الشغب سوء الأوضاع الاقتصادية في الدولة والتضخم المالي الذي نتج عنه ، فأدى ذلك إلى انخفاض مرتباتهم^(*) وتحت ضغط هذه الأوضاع بدأ أفراد هذه الحاميات العسكرية في الخروج من ثكناتهم ومشاركة الأهالي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية .^(٣)

ومن كثرة فسادهم أنهم كانوا لا يستمعون إلى نصائح القائد العام للجيش ففي سنة ١٠٠٣هـ / ١٥٩٤م ، تركوا مواقعهم التي

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٤١-١٤٢ .

(٢) حسين بن كمال : ورقة ٢٢ .

(٣) انخفاض القيمة الشرائية لمرتباتهم الثابتة .

(٣) نوفان رجا الحمود : مرجع سابق ، ص ١٣٣-١٣٤ .

حددها لهم القائد سنان باشا ، وذهبوا إلى إستانبول ، وعندما أمرهم السلطان مراد الثالث بالذهاب مرة أخرى إلى الجبهة ، وقد أمرهم السلطان بذلك وهو في قصره ، لكنهم رفضوا الطلب واشتروا خروج السلطان معهم ، وأخذ الهبة من السلطان.

ولم يتحرك الجند إلا بعد أن توسل لهم أغا الإنكشارية ، ليتحركوا لجبهة القتال ، وفي الطريق توقفوا مرة أخرى في جورلو ، وقالوا للأغا أنه المسئول عن صرف المنحة التي طلبوها ، فرد عليهم الأغا أنه عبد مثلهم ولا يملك حق منح المال ، هذا الحق يملكه فقط السلطان مراد الثالث وتقدم للمسير ، لكنه عاد واقترح عليهم أن يرسلوا رسالة للسلطان يذكره بهذه المنحة ، وذهب قائد فرقة المشاة للسلطان وذكره فقال له السلطان هل يريدوني أنا أم يريدون خزائني ؟ فرد قائد المشاة أن الإنكشارية لن تتحرك إلا بعد صرف الأجور لهم المتأخرة سنة ، وبالفعل أرسل لهم السلطان في اليوم التالي ستمائة ألف قطعة ذهبية على عربة يجرها اثنا عشر حصاناً .^(١)

منذ أواخر عهد مراد الثالث أصبحت الإنكشارية من أهم أدوات التخريب ، وكثرت اعتداءاتهم على الرعية ، إذ حاول الولاة تخفيف حدة غلوائهم ، إما لكي يستأثروا بالقوة دونهم ، أو يخففوا عن عاتق الأمة بعض شرورهم ، ولكن هذه الأعمال لم تأت إلا بشرور أكثر على الناس ، وصارت الحوادث مليئة بالدماء.^(٢)

(١) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .

(٢) محمد كرد : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وزادت حركات الطغيان في إستانبول وخارجها من الإنكشارية في عهد محمد الثالث ، وتكررت الحركات الخارجة (*) عن طاعة الدولة في الأقاليم ، ^(١) ولكنها كانت تحدث على فترات متباعدة ، ولم تبلغ درجة خطورة حركات الإنكشارية ، ^(٢) وأيضاً في عهد السلطان محمد الثالث صارت الإنكشارية تنهرب من القتال ، وهنا حدث تغير في ثوراتهم ، كانت في بعض الأحيان تقوم طلباً للحرب ، والغنائم ، ولكن في عهد محمد الثالث ، صاروا يميلون لحياة السلم والرفاهية ، ويتهربوا من الحروب . عندما عزم محمد الثالث على الحرب في إحدى المرات ، تهرب من الإنكشارية ما يقرب من عشرة آلاف جندي ، وكذبوا بشكل صريح جداً ، وقدموا ما يثبت أنهم غير مؤهلين للحرب ، مع العلم بأن عدد الإنكشارية في ذلك الوقت كان لا يتجاوز الأربعين ألف جندياً ^(٣) لدرجة أنه في بعض الأحيان كانوا يهربون من معسكرات التدريب حتى لا يدخلوا المعركة ^(٤)

وعندما تأكد محمد الثالث من ضعفهم وتخاذل حالهم ، خرج بنفسه للحرب وقيادة الجيش ، فدبت الحمية الدينية في الإنكشارية ، وساروا إلى بلغراد ودمروا جيوش النمسا ، وعادت إلى الأذهان

(*) يطلق عليها الحركة الجلالية ، للاستزادة الرجوع نوفان رجا الحمود : مرجع سابق ، ص ١٣٤-١٣٥ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ١٩٣٠٤ . خط همايوني عبد العزيز الشناوي :

مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٣ .

(٣) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص ٤٨٢ .

(٤) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : وثيقة رقم ١٢٧٢ : خط همايوني H.H .

صورة الفتوحات في عهد سليمان القانوني ، وعاد السلطان غانماً إلى العاصمة ، ويقول إبراهيم أفندي في تاريخه وكان حاضراً تلك الموقعة ، لو أن الجنود الإنكشارية ثبتت أكثر وأمضت الشتاء على الحدود ، ولم تصر على العودة ، وتقدمت في الربيع ، لتمكن العثمانيون من فتح مدينة فيينا .^(١) كذلك حدث أثناء القتال مع الأفلاق والبغدان ، تمردات مما اضطرهم للتقهقر لعدم ثباتهم ومجاهرتهم بالعداء .^(٢)

أما عن تمرداتهم في الأقاليم نجد أنه في أواخر القرن السادس عشر الميلادي دخل نفوذ الإنكشارية ولاية حلب ، فكان يذهب كل سنة قسم منهم لغرض الخدمة ، حيث يقومون بتحصيل أموال القرى ، أي الضرائب ، وفي سبيل ذلك كثيراً ما مارسوا الظلم والجور وابتزاز الأموال ، حتى ضجت الناس منهم ، واستفادت الإنكشارية^(*) من قتال الحركات الجبلية، ووطدت نفوذها في شمال حلب ، وعندما زاد الأمر عن حده ، اضطروا ولاية حلب إلى قتالهم وإخراجهم بالقوة ، وإجبارهم على مغادرة حلب بمساعدة علي باشا جانبلاط^(**) ^(٣)

(١) علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٣١ . إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ١٣١ .

(٢) يوسف همام أصاف : مرجع سابق ، ص ٧٢ .

(٣) أشهر من إنكشارية دمشق عدة أسماء مثل : خاوردي ، أق ياق ، قره ياق ، وحمره الكردي ، وتدل أسماءهم على أنهم في الأصل غرباء عن دمشق . انظر عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

(**) حكمت أسرة جانبلاط كلس وحلب ، ومن هنا جاء العداء بين هذه الأسرة وبين الإنكشارية ، حيث رفضت أسرة جانبلاط تسلط الإنكشارية وجبروتها على الأهالي في دمشق وحلب ، ومما أدى إلى وقوع صدام شديد بينهم . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٤٢ .

(٣) مرجع سابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد تجاوز الإنكشارية الحدود في الاعتداء على الرعية والتسلط على فقرائها بحجة جباية الأموال ، فأعدم والي حلب سبعة عشر رجلاً منهم^(١).

وإذا دققنا النظر في تمردات الإنكشارية في داخل استانبول أو خارجها نجد أنها من الإنكشارية القليلي العدد الموجودون داخل المدن ، وهذا يعني أن الأغلبية كانت في الحروب الدائرة بين الدولة العثمانية ، والنمسا والمجر ، وهذا يبرر إرجاع بعض المؤرخين إلى أن قلة الثورات في عهد محمد الثالث تعود إلى انشغال الدولة العثمانية وبالتالي الإنكشارية ، بالحرب الطاحنة على حدود النمسا والمجر ، ولكن هذا الانشغال لم يعوقهم عن التدخل والقيام ببعض التمردات في عهد محمد الثالث .^(٢)

أما عن تمرداتهم داخل القاهرة في عهد محمد الثالث ، فقد زادت بسبب تخاذل أويس باشا ، وبلغت جراتهم في عام ١٠٠٦هـ / ١٥٩٨م أن اجتمعوا واعترضوا طريق حاكم مصر محمد باشا ، قرب قلعة القاهرة ، وأطلقوا النار عليه ، فهرب من طريقهم والتجأ إلى القلعة وأصبحت السلطة الفعلية في يد العساكر ، وأبطلت أحكام هذا الوزير ، وقتل الناثرون كثير من كبار الأمراء والموظفين والأعيان ممن كان يعارضون مصالحهم ، وتتبعوا أولاد البلد الأصليين من لهم مناصب عليا وقتلوه ، ربما بهدف الحيلولة

(١) محمد كرد : مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٥ .

دون تسرب هؤلاء للطبقة الحاكمة . (١)

ومع تولي أحمد الأول الحكم زاد عصيانهم خاصة في البلاد العربية ، أما في إستانبول فقد ثاروا أثناء حرب احمد الأول مع الشاه عباس ، وإخراجه من البلاد التي اغتصبها ، فثارت الإنكشارية مطالبة بالعطايا فاضطر السلطان أحمد إلى الرجوع لإستنبول متداركاً لثورتهم حيث ألف مجلساً حربياً وحكم بالإعدام على المتسببين في التمرد . (٢)

أما عن الأقاليم العربية ففي مطلع القرن السابع عشر الميلادي زادت سيطرتهم على شمال إفريقيا ، وساعدهم في ذلك ظهور ديوان لهم يمثلهم ، ويمثل طلباتهم وكان الولاة تبعاً يمشون على قرارات هذا الديوان وشيئاً فشيئاً زادت سيطرة هذا الديوان على الأهالي . (٣)

وقد استتب الأمر داخل استانبول للإنكشارية في عهد أحمد الأول ، وسارت الأمور وفق هواهم ، فلا نكاد نسمع عن ثورات داخل إستانبول، أما في البلاد العربية فنجد أنها تعددت في بغداد ودمشق والقاهرة .

ففي القاهرة كان أجراً عمل قاموا بعمله هو قتل حاكم مصر إبراهيم باشا ، في ١ جمادى الأولى ١٠١٣هـ / ٢٥ سبتمبر

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) يوسف همام أصناف : مرجع سابق ، ص ٧٤ .

(٣) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

١٦٠٤م ، وعرف بالمقتول ، وكان مكلفاً بالقضاء على تمرد العساكر ، وإزالة الطلبة ، وقد نصبت الإنكشارية مكانه قائم مقام . هذا التحدي الصارخ جعل الدولة العثمانية تبطش بالمتمردين وقتل عدد منهم ، في عام ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥م . لكن حركة التطهير هذه لم تؤت فائدة ، فإن القضاء عليهم نهائياً جاء في عهد محمد باشا^(١) ، الذي أبطل الطلبة ، مما أثار الإنكشارية ، فتجمعوا عند مقام أحمد البدوي^(*) ، وتحالفوا على عدم رفع الطلبة ، وتقاسموا حارات القاهرة لنهبها ، لكن قوات محمد باشا ، استخدمت المدافع ، وهزمت الثائرين في موقعة إسمها الخانقاه في ١٠ ذي القعدة ١٠١٨ هـ / ١٤ فبراير ١٦٠٩ فبرابر وقد قتل عدد كبير منهم ، والباقي نُفي إلى اليمن . (**)(٢)

وقد اشتركت مع الإنكشارية السباهية وبعض من المماليك الشراكسة وقد كانت مهمتهم الأساسية ، الحفاظ على الأمن ،

(١) أحد أهم الصدور العظام في عهد أحمد الأول ، وله دور في تهدئة الأوضاع في مصر ، تولى خلال حياته عدة مناصب أهمها أمير أمراء البوسنة . الموسوعة الإسلامية ، العالم الإسلامي ، قاموس التاريخ والجغرافيا والأنتوغرافيا والسير الذاتية ، ج٧ ، إستانبول : دار المعارف ١٩٨٨م ، ص ٥٨٥ .

(*) الواقع في مدينة طنطا بمصر .

(**) ويعلق على ذلك ابن أبي السرور أنه الضم العثماني لمصر في عهد الدولة العثمانية ، وهذا يدل على أهمية القضاء على الثائرين بالنسبة لهيئة الدولة العثمانية . وقد وضع كتاب لهذا الحدث أسماه " تفريج الكربة بدفع الطلبة " وأطلق على محمد باشا عدة ألقاب مثل معمر مصر ومبطل الطلبة وقول قيران أي محطم المماليك . وقد قام محمد باشا بالعديد من الإصلاحات أهمها تنظيم الضرائب ، والعمل بمقتضى دفتر التربيعة الذي أحله العثمانيون ، محل دفتر الشراكسة ، وكان المماليك قد عادوا إلى العمل بدفتر الشراكة للاستفادة من امتيازاتهم القديمة . وأمر بدفع الرواتب بكاملها يوم ٢٨ من كل شهر . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) مرجع سابق ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

وحماية الفلاحين ، والمساعدة في جمع الضرائب ، التي بدأ عليها الاختلال بوضوح ، منذ عهد علي باشا الصوفي .^(١)

على أنه لو تأملنا هذا التمرد نجد أنهم خلعوا السلطان ونصبوا مكانه سلطاناً آخر ، وهذا ما حدث فعلاً فكان هذا التمرد تحويل لأفكارهم . أما في دمشق فقد برزت أسماء لزعماء من الإنكشارية كان لهم دور كبير فيها أمثال حسن التركماني وبعض أفراد أسرته ، وذلك في عام ١٠١٥هـ / ١٦٠٦م ، كما حفل سجلهم بالخزيا ضد المعنيين.^(٢)

أما ولاية بغداد فقد كانت تمرداتهم أكثر عنفاً من الولايات العربية الأخرى ، وربما يرجع ذلك إلى مركز العراق الاستراتيجي أمام أعدائها الصفويين ، مما استلزم وجود قوة عسكرية عثمانية كبرى لحمايتها ، وساعد على ظهور زعامات عسكرية لم تشهد مثلها القاهرة أو بلاد الشام. كما وأن تعدد القبائل البدوية والكردية المتعددة الأجناس والولاء ، ووقوع العراق على أطراف الدولة العثمانية ، كل هذه العوامل ساعدت على ظهور ثورات أكثر عنفاً . لقد فرضت الإنكشارية نفوذها على العراق في مطلع القرن السابع عشر وتحبوا الوالي حسن باشا ، فخرج هارباً من بغداد عندما ثاروا عليه ، لأنهم تصوروا أنه أثار عليهم السلطان ، وأقام بالموصل ، واستمر يحاربهم حتى عزل ، ويبدو أن هذا ساعد على تشجيع الإنكشارية للقيام بأعمال أكثر جرأة ، حيث أحسوا أن

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) مرجع سابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

السلطان أعترف ضمناً بنفوذهم ، وكانت هذه أولى مراحل ازدياد نفوذهم ، إذ قاموا بثورات بعد ذلك ، حاول السلطان أحمد الأول إخضاعهم فأرسل جيشاً بقيادة والي ديار بكر نصوح باشا ، (*) الذي استطاع إخضاعهم فترة من الزمن (١)

وفي عهد مصطفى الأول ، يقوم باشا أرضوم بعصيان ضد السلطان ويزحف إلى أنقرة ، فتنضم الناس إليه في كثير من بلاد الأناضول كرهاً للإنكشارية . (٢)

وسنرى أنه في خلال حكم ثلاث سلاطين مصطفى الأول وعثمان الثاني ومراد الرابع ، تصبح اليد الطولى للإنكشارية ، في كل أمور الدولة ، ويعتبر عثمان الثاني مثال متجسد لطغيان الإنكشارية وجبروتها.

وضعوا عثمان الثاني في الحكم في سن مبكرة ، فقد أطلق عليه لقب كنج أي الحدث صغير السن ، وكان توليه العرش في هذا السن المبكر حدث غير مسبوق ، وأيضاً أطلق هذا اللقب عليه ليميزه عن عثمان الأول مؤسس الأسرة والدولة . (٣)

(*) أحد رجال الدولة العثمانية ، وهو ابن أحد الألبان المسيحيين الذين أتوا إلى الديوشمة ، ثم نشأ في القصر الهمايوني ، عين على إمارة زيلة ، ثم عُزل برغبة الإنكشارية عين على ولاية مصر ثم عين قائم مقام الصدر الأعظم ، وفي عام ١٦١١م عين صدر أعظم وقام بعمل مباحثات مع الصفويين الشاه عباس ، في ديار بكر وحددت في هذه المباحثات الحدود بين الدولتين ، كان على عداء مع خوجه زاده أفندي شيخ الإسلام ، ونتيجة لتمرده أمر السلطان أحمد الأول بإعدامه . ومن أشهر ابنائه المؤرخ محمد جلبي . الموسوعة التركية : ج ٢٤ ، د . ط ، أنقرة : ١٩٧٧م ، ص ١٣٩-١٤٠ .

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

(٢) شكيب أرسلان : مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٣ .

ولكن بعد أن وضعته الإنكشارية ، بدأت تتفر منه لكثير من الأسباب (*) ، ومما زاد من نفورهم أن الصدر الأعظم ، عزل قائم مقام الصدارة ، وهو أغا الإنكشارية ، الذي عاد من الأراضي الفارسية منتصراً .^(١)

كما أعلن السلطان عثمان الثاني الجهاد على بولونيا (**) لأنها تدخلت في شؤون إمارة البغدان ،^(٢) وقاد جيش كبير العدد عبر نهر بروث وهزم البولونيين المتجمعين عند نهر دينستر (***) ، وكان لهذه المعركة وقعا مؤثرا في نفوس المسيحيين حيث أدت إلى الخوف والرغبة في قلوبهم ، ولكن الإنكشارية تمردت ، وأضاعت هذا النصر وجعلته غير حاسم .^(٣) فقد طلبت ، عدم الاستمرار في الحرب ، لأنها متعبة ومرهقة منها ، فغضب السلطان منهم

(*) تم ذكر الأسباب بالتفصيل في المبحث السابق من نفس الفصل .

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(**) ذكر مصدر آخر أن سبب الحرب كان لتلبية دعوة قرال ترنسلوانية ، الذي رغب في محاربة ملك النمسا، منتهزا فرصة الشقاق الذي أحدثه في أوروبا ، كما أن انتشار الآراء الدينية الجديدة كان لها أكبر الأثر في ذلك ، وأختلف المرجع في نهاية المعركة حيث ذكر أن المعركة انتهت بانتصار البولونيين ، بزعامة ولا ديسلاس ابن ملك بولونيه . انظر حبيب السيوفي مرجع سابق ، ص ٢٧ .

لكن الدراسة ترى أن العثمانيين انتصروا لأننا نرى أن بولونيا تطلب الصلح فإذا كانت منتصرة فلماذا تطلب الصلح ، إضافة إلى أنها ما هي نتائج انتصارهم ؟ لم يورد النتائج في سياق كلامه .

(٢) علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص ٤٨٧ .

(***) نهر دينستر ، أحد روافد نهر جوسا ، الذي يصب في البحر الأدرياتيكي س . موستراس :

مرجع سابق ، ص ٥٨ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٣ .

وأغتاظ لميلهم للراحة ^(١). كما منع التدخين وصار السلطان عثمان يخرج بنفسه ليعاقب المخالفين ^(٢).

وعندما طلبت بولونيا عقد الصلح معه عام ١٠٢٩هـ / ١٦٢٠م ^(٣) استخف به الإنكشارية لأن ذلك يتعارض مع تقاليدهم في حب الحرب ، ولأنهم جنوداً محترفين ، المفروض أن مهنتهم الحرب وليس التكاسل والميل للراحة ، ولا بد أن تكون أفئدتهم تهوى القتال ، و نغمت عليه الإنكشارية وقررت وضع خطة للتخلص منه . وعقد السلطان الصلح دون أن يحقق جميع أهدافه ، من هذه الحرب ، ^(٤) ونتيجة لذلك عزم السلطان عثمان على التخلص منهم وإبادتهم ، ولأجل هذا الأمر الخطير بدأ في الاستعداد لضرب الإنكشارية وذلك بحشد قوات جديدة في آسيا وأهتم بتدريبها وتنظيمها . ^(٥)

وبعد أن استقر في إستانبول ، قرر التوجه للحج عام ١٠٣١هـ / ١٦٢١م ^(*) وأن يجمع في الطريق عسكرياً من الشام ومصر من رجال العرب ، خاصة وأنه سيمر على الشام عن طريق البر ويعسكر هناك ، وهؤلاء الرجال يكونوا مطيعين له طوع

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٨ .

(٢) محمد جميل بيهيم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ٢٨ .

(٣) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٨ . انظر علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص ٤٨٧ .

(٤) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٣ - ٥١٤ .

(٥) علي محمود الصلابي : مرجع سابق ، ص ٤٨٧ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥١ .

(*) عزم على أداء فريضة الحج ولكن السياسة لم تحقق أمنيته .

لقد تم الحديث عن هذا الأمر بالتفصيل من المبحث السابق من نفس الفصل .

البنان ، ويقضي بهم على الإنكشارية ويمحي أثرهم ، ^(١) خاصة وأن السلطان عزم على إخماد ثورة الدروز في جبل لبنان بجيش يجمع من مصر ، ^(٢) وهنا تأكدت الإنكشارية أنه عازم على الغدر بهم ، وقد سعى العلماء ليثتوا السلطان عثمان الثاني عن السفر ، كما طلبوا من الإنكشارية العفو عن السلطان ، وأبلو غهم بعدول السلطان عن السفر إلى الحجاز ، فأمر بتسريح الرجال الذين جهزوا في القاهرة وأجتمع معهم العلماء في فسحة آت ميدان ^(*) ولكن ظلوا ثائرين وهجموا على بيوت الوزراء متسلحين ونهبوها ، وقتلوا عدد كبير منهم ، ونهبوا من خزائن الدولة . ^(٣)

وانتهى الأمر بهم إلى التخلص من السلطان عثمان في عام ١٠٣١هـ / ١٦٢١م . ^(٤)

وهكذا أصبح السلطان عثمان الثاني أول ضحاياهم البارزين ، وبعد قتله مارسوا التدخل في السياسة العليا بمنتهى الحرية ، فلم يعد هناك من يقف أمامهم في تحقيق رغباتهم وانتهى الأمر بهم أن رغبوا في التخلص من السلطان عثمان الثاني وتمكنوا من إعدامه في سنة ١٠٣١هـ / ١٦٢١م .

(١) يوسف أصف : مرجع سابق ، ص ٧٧ . أنظر إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص ١٢٢-١٢٣ .

حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٢٨ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٣ .

(٣) للاستزادة عن أخبار صراع الإنكشارية مع عثمان الثاني الرجوع إلى أحمد زيني دحلان : مصدر

سابق ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٤) يوسف أصف : مرجع سابق ، ص ٧٧ .

(٤) محمد مختار : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦٧ .

وبهذا الإثم العظيم والجرأة على السلاطين ، صارت نقطة انطلاق جديدة للإنكشارية للتمادي في طغيانهم والتحكم بالسياسة العليا، وكان لإعدامه أصداء بعيدة ، حيث انتشرت الرهبة في دوائر الحكومة وبين العامة .^(١) كما أن الولايات صارت في حالة ترقب دائمة وحاول بعض الولاة الأخذ بثأر عثمان الثاني والانتقام له ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل مثل محاولة والي أرضروم أباطة باشا الذي حاول دخول إستانبول والانتقام من قتلة عثمان^(٢).

هذه الجرأة قوبلت باستياء عام بين الناس والجند حتى أن طائفة منهم أنكرتها ، خاصة عندما بدأوا بتبديد الثروات وأموال الخزينة العامة، ولم يحفلوا بأي شخص ، وزادوا في تمردهم .^(٣) لقد صار لهم شأن سياسي ، وأضحوا أداة في يد أهل الفتن الذين فضلوا اللعب من خلف الستار ،^(٤) فنجد أنه منذ ثورتهم على عثمان الثاني حتى ثورتهم على سليم الثالث تمت بصورة واحدة متكررة من حيث الأسباب والأحداث والنتائج .^(٥)

وقد أعادوا السلطان مصطفى الأول مرة أخرى للحكم ، لأنه كان ضعيف الشخصية ، ولم تحدث حروب أو فتوحات في عهده لقصر المدة، ولأن الإنكشارية سيطروا تماماً على مقاليد الأمور .

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٤ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٢ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٩ .

(٣) محمد جميل بيه : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٤ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : مجلد الخامس ، مكتبة الشعب ، ص ١١٥ .

(٥) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٣ .

وهكذا نجد أن مصير كثير من الذين يحاولون الإصلاح ،
تتسلط عليهم الجيوش الفاسدة ، فدمرهم .^(١) وفي عهده تم تغيير
الوزراء والصدور العظام سبع مرات في خلال عام واحد وأربعة
شهور ، وارتكبت كافة المظالم .^(٢)

وبتولي مراد الرابع الحكم أصيبت الدولة بحالة من الارتباك
والفوضى لصغر سن السلطان ، فقد كان في الحادية عشر من
عمره ، وقد وضعوه لحدائثة سنه حتى لا يجدوا معارضة في أعمالهم
الاستبدادية ، ولا يضعف نفوذهم الذي اكتسبوه بقتل سلطان وعزل
الآخر ، وقد ساروا في طريق الطغيان لمدة العشر سنوات الأولى
من حكمه ، فكانوا أصحاب الأمر والنهي في سياسة الدولة ، حيث
واصلوا الثورات والسلطان خاضع لرغباتهم ، لا يجد مفر من
تحقيقها ، فبدلوا الوزراء والصدور العظام على حسب أهوائهم .^(٣)
وقد أدى شغب الإنكشارية وعبثهم غير المسئول إلى قفز
الطامعين في السلطة إلى المراكز الحساسة ، حيث استثمر البعض
جو الضعف في الدولة بسبب التمردات المتتالية من الإنكشارية ،
ومن ضمنهم قائد شرطة بغداد " بكير أغا " ^(٤) الذي تمرد على

(١) علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

(٢) علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص ٤٨٨ .

(٣) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٨٠ . انظر علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٠٦ -

١١٣ . انظر عمر الإسكندري : مرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٤) بكير الصويشلي : والي بغداد ، كان له فرقة عسكرية خاصة به تتألف من ١٢٠ ألف جندي ،
جمع ثروة طائلة ، استولى على ولاية بغداد إثر قتله للنقيب محمد الوالي السابق ، وكان له جولات
مع الصوفييين للاستيلاء على بغداد ، وقد دخلها الصوفييين بناء على خيانة محمد بن بكير لأبيه =

الوالي واستبد بالحكم ، فأرسلت له الدولة جيشاً بقيادة " حافظ باشا " الذي حاصر بغداد (*) ، فاستجد بكير أغا بالشاه عباس الصفوي ، الذي وجد أن هذه فرصة سانحة لتوسيع ممتلكاته ، ودخول بغداد ، وفعلاً عادت من جديد بغداد تحت الحكم الصفوي . (١)

وكان هذا أخطر عمل قامت به الإنكشارية إذ هي مهدت السبيل لضياع بغداد من حوزة الدولة العثمانية الأمر الذي أدى إلى فتح الباب لضياع البلاد من تحت حكم الدولة العثمانية الواحدة تلو الأخرى .

وعندما أراد حافظ أحمد (**) باشا استرداد بغداد ، وقام بحصارها ، وثارَت الإنكشارية لطول الحصار ، مما أرغم حافظ باشا على رفع الحصار والعودة إلى الموصل ، ومن ثم إلى ديار بكر ، ولكن الإنكشارية عادت إلى التمرد مرة أخرى ، فتم تعيين

= ونفي بكير إلى مدينة زفر، وأحتل الصفويين بغداد وعذبوا أهل السنة كثيراً . الموسوعة التركية : ج٦ ، د. ط ١ ، إستانبول ، د. ت ، ص ٢٩ .

وتذكر أيضاً بثورة بكر الصوباشي ، وهو من أصل رومي ، ينتسب إلى إنكشارية بغداد ، تدرج في المراتب العسكرية ، حتى صار هوباشي ، ثم نصب نفسه والياً ، ولذلك لقب بالصوباشي واعتمد في الأساس على الإنكشارية . عبد الكريم رافق : ص ١٣٧-١٣٨ .

(*) وقد حاصرها الشاه عباس لمدة ثلاثة شهور ، بعد أن تم الصلح مع الجيش العثماني ووافق الشاه عباس على منح بكير أغا الولاية . وعادت بغداد للصفويين . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٧٣ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

(**) حافظ أحمد باشا ولد عام ٩٧١هـ / ١٥٦٤م في مدينة فيلبه . أبوه مؤذن . تميز بصوته الحسن وقد عاصر ولاية بكير لبغداد ، وقُتل في استرداد بغداد من الفرس ، وقد سلمه خسرو باشا للإنكشارية الذين قتلوه . الموسوعة التركية للشؤون الدينية ، ج ١٥ ، د. ط ، إستانبول : ١٩٩٧م ، ص ٨٤-٨٥ .

خسرو باشا (*) في الصدارة العظمى في أثناء ثورات الإنكشارية المتتالية في إستانبول. (١)

أما خسرو باشا فقد ظلم الأهالي كثيراً وأعدم الكثير وبطش بيد من حديد ، فقد كان نموذج لشخصية الوزير المستبد برأيه ، واعتمد في استبداده على الإنكشارية بزعامه داماد رجب باشا ، وكان هذان الوزيران ، يقومان بكافة الأعمال التي من شأنها إخافة السلطان مراد الرابع ، حيث كانوا على استعداد للقيام بأي حركة تمرد ، ضد السلطان لأنهم أرادوا سلطاناً مطيعاً فاقد العزيمة . (٢)

وقد أراد الصدر الأعظم خسرو باشا دخول بغداد واستردادها ، لكن الإنكشارية لم تطعه ، لأنهم كانوا قد تعودوا على حياة الراحة والهدوء ، ولا يريدوا حرب ، لأن ضياع ممتلكات الدولة لم يعد يهمهم سوى تنفيذ رغباتهم وآرائهم .

لقد تمردوا على خسرو باشا لأنه أراد استرداد بغداد ، وهو زعيمهم وقائدهم ومع ذلك ثاروا عليه ، هذا يدل على أنهم صاروا

(*) خسرو باشا : يقال أنه ولد عام ١٧٥٦م واسمه محمد خسرو ، من أهل منطقة أباطة تم إحضاره إلى إستانبول في سن صغيرة ، تدرج في الوظائف ، وحارب ضد الفرنسيين لإخراجهم من مصر ، وكلف بالذهاب لحرب الدولة العثمانية وروسيا في عام ١٨٠٦م وكان له دور الحياة السياسية في بغداد . الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني لتركيا ، د . ط ، مجلد ١٩ ، إستانبول ، ١٩٩٩م ، ص ٤١-٤٤ . تولى قبله عدة وزراء المنصب مثل جركس محمد باشا ، وحافظ أحمد باشا ، و خليل باشا ثم عين خسرو باشا . بسام العسلي : مرجع سابق ، ص ١٧٣-١٧٤ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٣ - ١٧٤ . انظر محمد سهيل طقوس : مرجع سابق ، ص ٢٦٧ .

(٢) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٤٧٠

صراع خسرو باشا مع محمد علي في مصر وقضاء الأخير على نفوذ الإنكشارية انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٢٥٥، ٢٥٦ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٩٠ .

فرقة ضالة لا تعترف إلا بالراحة وتفضل مصلحتها وحياتها الشخصية على مصلحة الدولة ، ولم يكن تمرد الإنكشارية على خسرو باشا هو الحادثة الأولى التي جعلت إحساسهم بالفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام يخف تدريجياً حتى كاد أن يختفي لأن هذا الأمر اتضح منذ بداية خلعهم للسلطين وتولية آخرون وتفضيل مصلحتهم الشخصية على مصلحة الدولة والإسلام .

ونتيجة لفشل خسرو باشا في فتح بغداد ، فقد عزله السلطان مراد الرابع ، وأعاد حافظ باشا إلى منصب الصدارة العظمى . لكن خسرو باشا لم يرض بهذا العزل ، وحاول أن يوقع بين السلطان ، ورؤساء الإنكشارية وأن يكيد للسلطان ، فاتصل برؤساء الإنكشارية وأوهمهم بأن السلطان عزله من منصبه ، لأنه كان ينفذ رغبات الإنكشارية ويطيعهم ، فثارت الإنكشارية وطالبت بعودة خسرو باشا إلى منصبه ، ولكن السلطان مراد الرابع أصر على موقفه ، فصارت فتنة في إستانبول، وقتلت الإنكشارية حافظ باشا ، بعد أن فشل السلطان في حمايته ، وقرر السلطان مراد الرابع قتل خسرو باشا على أساس أنه محرك الفتنة، وعين مكانه من يدعى بيرام (*) محمد باشا . (١)

ومنذ ذلك الحين أظهر عزماً شديداً على مواجهة الإنكشارية والقضاء على رؤوس الإنكشارية وإبانتهم ، ثم وسع عمليات القتل

(*) الكلمة بيرم وليس بيرام : كلمة تركية ومعناها اللغوي عيد فكما أن الناس يسمون شعبان ورمضان ورجب وغيرها من أسماء الشهور كذلك يسمون عيداً . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ،

ص ٢٨٢ .

(١) مصدر سابق ، ص ٢٨٢ .

لتشمل كل من يثبت عليه أنه شارك في الفتنة التي أشعلوها . (*)
وبذلك دخل الرعب إلى قلوبهم ووقعته مهابة في قلوبهم ، فخافوا
منه ، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهم من تعدي الإنكشارية
عليهم ، وسادت السكينة في إستانبول . (١)

وعندما رأت الإنكشارية هذه القوة من السلطان مراد الرابع
لجأت إلى خداعه وتظاهرت بأنها تلتزم بالقواعد والانضباط
العسكري ، وأنهم يقدروا السلطان وينفذون أوامره ويطيعوه .
ولكن ذلك لم يكن إلا تمويهاً حتى يوقف عمليات القتل والمذابح التي
أمر بها ، وبيتوا أمراً آخراً . (٢)

فلم يمض شهران حتى قاموا بحركة عصيان جديدة بقيادة
داماد باشاه إلا أن السلطان مراد الرابع أمر بقتله وإلقاء جثته من
شباك السرايا للإنكشارية حتى تهدأ ثورتهم ، وفعلاً عرفت
الإنكشارية أنها أمام سلطان قوي ، لا يستطيعون التغلب عليه
بسهولة ، وفرض هيئته على الجميع وبسط نفوذه في الداخل
والخارج ، وتولى إصلاح وقيادة الجيوش بنفسه ، وقام بإصلاح
الإنكشارية وإبعاد زعماء الإنكشارية والأفراد المشبوهين ،
والمشكوك في أمرهم ، (٣) وهكذا استطاع مراد الرابع مواجهة

(*) لقد قيل أن رؤوسهم تكست على ضفاف البسفور وقد قيل أن من قتلوا في هذا الحادث يبلغون

مائة ألف أو يزيدون . انظر عمر الإسكندري : مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٨٣ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٥ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ،

ص ٢٥٢ .

(٣) بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٧٤ . انظر محمد جميل بيه : فلسفة التاريخ العثماني ،

ص ١٣٤-١٣٥ .

الإنكشارية بكل حزم وقوه ، أن يوقف لمدة محدودة تدخلهم في المسائل السياسية العليا ، ويضع حداً لتصرفاتهم الهوجاء ، على الرغم من أن السنوات العشر الأولى من حكمه تميزت بالضعف والانحلال إلا أنه لم يلبث أن أعاد السيطرة على الدولة ، وفرض الأمن والاستقرار في وقت كانت الدولة في أشد الحاجة له . (*)

أما في عهد السلطان إبراهيم الأول نجد أن الإنكشارية عادت لسيرتها الأولى في التدخل في المسائل السياسية ، وكثر طغيانهم ، حتى أنهم كانوا يوجهون إلى السلطان انتقادات علناً لسياسته . (١)

غير أنه مع ذلك استطاع كبح جماح ثورتهم لمدة طويلة ، لكنه لم يستطع اقتلاع الفساد من رؤوسه ، فأراد التخلص منهم وقتل قادتهم ولكنهم اكتشفوا هذا الأمر ، وتآمروا عليه ، وتم عزله ، وتولية ابنه محمد الرابع ، الذي لم يكمل عامه السابع ، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بخنقه والتخلص منه ، خوفاً من عودته للسلطة . (**)(٢)

(٢) وقد كان لثورات الإنكشارية نتائج سلبية على الأقاليم فديوان الإنكشارية في شمال إفريقيا ، أصبحت له كل السلطات في التعيين والترقية منذ عام ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م ، وتم ذلك بموافقة السلطان مراد الرابع ، وصار بذلك له قوة القانون في البلاد ، حتى أنهم وصلوا إلى تعيين القبطان باشا وتحديد مرتبة ، وهذا كله تحكم فيه أغا الإنكشارية رئيس الديوان . وفي عهد السلطان مراد الرابع أيضاً زادت سلطة الولاة ، بسبب نشاط الإدارة في إستانبول فقد قتل ولاة الشام في عهده عدداً كبيراً من زعماء الإنكشارية في الشام ، أمثال ابن الصباغ ، وعلى بن الأرناؤوط، ونفوذ هؤلاء الزعماء في الشام سواء في الإنكشارية أو لدى شعب دمشق، يمثل حلقة في سلسلة الصراع على النفوذ في دمشق بين الولاة وزعماء الإنكشارية عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٢٨ - ١٤٤ .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

(٢) محمود شاكر : مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١٣٥ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص ١٨٠ .

(**) أما عن الحال في الشام فقد زادت مدة الصراع بين الولاة وزعماء الإنكشارية ، وزادت حوادث القتل بين الفريقين ، وأبلغ دليل على ازدياد نفوذ زعماء الإنكشارية ، ضغطهم على الدولة العثمانية لتعين بعض أفرادهم أمراء لقاقله الحج الشامي ، للمحافظة عليها . مما يدل بوضوح على مدى =

أما السلطان محمد الرابع فقد أمتدت مدة حكمه ٤٠ سنة وعدة أشهر^(١)، توالى خلالها ثورات الإنكشارية ، وتمردات الأهالي من تسلط الجنود عليهم ، واستبداد الإنكشارية حتى اختل النظام ، وصار عدم النظام سمة من سمات الدولة .^(٢)

وعادت الإنكشارية لممارسة نشاطاتهم بحرية تامة ، فزاد عبثهم بالناس وزاد فسادهم ، وانتقلت عدوى التمرد وعدم الانضباط إلى البحرية، مما أدى إلى ضعف الروح القتالية في البحرية ،^(٣) ومن ثم طبعاً التخاذل أمام العدو ، إذ أنه عندما تقابلت سفن الدولة العثمانية مع سفن البنادقة في الدردنيل ، تمردت الإنكشارية ، وأحجمت عن مهاجمة سفن العدو وهربت الإنكشارية بسفنها ،^(٤) وبالتالي هزم الأسطول العثماني في هذه الموقعة بالقرب من مدينة فوقيه^(٥) عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩م^(٥)

= سيطرتهم على القرار السياسي في الدولة العثمانية. وقد حدثت لهم فتنة كبيرة في حلب حيث كان السبب أن الإنكشارية طلبت من رؤسائها أن يصرفوا لهم الرواتب بالقروش وليس بالأفجات ، وطلبوا عزل وكيل رئيسهم وكاتبه ، ف وقعت فتنة نتيجة لرفض هذه المطالب فقتل منهم عدداً كبيراً ، ثم صارت فتنة بينهم وبين رجال الصدر الأعظم وقتل فيها نحو خمسين رجلاً من الطرفين وانتهت الثورة بانتصار الإنكشارية وقتل الوكيل وكاتبه . محمد كرد : ج ٢ ، المصدر السابق ، ص ٢٧٠ . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص ١٤٤-١٤٥ .

(١) مخطوط تاريخ آل عثمان : مؤلف مجهول ، ورقة ٣ .

(٢) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

(٣) بسام العسلي : المرجع السابق ، ص ١٨٠ .

(٤) علي حسون : مرجع سابق ، ص ١١٤ .

(٥) فوقيه أو خوسيه مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط ، تقع شمال أزمير ، وتبعد عنها حوالي ٤٢ كيلو متراً ، وهناك فوقية الجديدة ، تقع شمال فوقيه الأولى . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ،

ج ٥ ، ص ١٨٠ .

(٥) مرجع سابق : ص ١٨٠ .

وقد استفاد أسطول البندقية (*) من غياب الانضباط في البحرية العثمانية ، وقيام الإنكشارية بكثير من التمردات ، وهاجم أسطول البنادقة، الأسطول العثماني أثناء تواجده في بوغاز الدردنيل عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م أثناء حرب الدولة العثمانية مع البنادقة ، فقامت الإنكشارية بعمل تمرد مع الملاحين بحجة أن سفن العدو أكبر وأمتن من سفنهم مما أدى إلى احتلال البنادقة لمدينتي تينيدوس (**) وجزيرة لمنوس (***) وغيرهما ، وتمرداتهم هذه أدت إلى شيء مهم ، وهو اختلال النظام الاقتصادي ، والذي سبب ارتفاع أسعار القمح والشعير وسائر أصناف المأكولات ، حيث منع البنادقة وصول السفن الحاملة لهذه البضائع من الوصول إلى إستانبول ، (١) وهكذا أصبحت مالية الدولة سيئة جداً ومنخفضة ، لصرفها الأموال في حل المشكلات الداخلية ، إضافة إلى التصدي للحروب الخارجية . (٢)

(*) حرب البنادقة اشتدت في عهد محمد الرابع ، لأن الدولة كانت تعاني من الاختلال والفساد في الإدارة والحكم ، فانتهز البنادقة هذه الفرصة وأرسلوا عمارة لتهديد مضيق الدردنيل . ولما أتت هذه العمارة حصل بينها وبين العثمانيين عدة وقائع ، ولما رأت الدولة أن سفن البنادقة قوية وأن معظم سفنها ببناء صغيرة، بادر الصدر الأعظم صوفي محمد باشا بإرسال أوامره إلى دار صناعة السفن ببناء سفن كبيرة من نوع الغليون لتكون عمادة العثمانيين على درجة من القوة . انظر إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١، ص ١٥٧ .

(**) تينيدوس : جزيرة صغيرة تقع عند مدخل الدردنيل .

(***) لمنوس : جزيرة صغيرة تقع إلى الغرب من تينيدوس . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ،

ص ١٨١ .

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٩٠ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص ١٨١ .

(٢) علي حسون : مرجع سابق ، ص ١١٤ .

ومما زاد خطورة الأمور اندلاع ثورة بآسيا الصغرى في نفس العام ، بقيادة رجل يدعى قاطرجي أوغلي (*) ، لكن التمرد انتهى بالعفو عن قاطرجي أوغلي وتعيينه والي على القرماني ، وهكذا انتهى التمرد ، لكن ناراها ظلت تحت الرماد ، فقد كانت الإنكشارية ، تغذي نار الثورة أحيانا ، وفرسان السباهية هم من يعملون على إيقاءها . (**) (١)

وقد استمر الموقف على التدهور ، لا نظام ولا أمن ولا استقرار ، ولا حكومة ثابتة ، حتى قويض لها الله سبحانه في منصب الصدارة محمد باشا الشهير بكوبرلي (***) (٢) لقد برز آل كوبرلي في وقت كانت النعمة عمت على الناس جميعاً ، عرفت هذه الأسرة بإخلاصها في العمل، وقد تمكنوا من كسر شوكة الإنكشارية بفرض النظام والانضباط عليهم ، وإخضاعهم وقد بادر محمد باشا منذ

(٢) قاطرجي أوغلي أحد زعماء قطاع الطرق الجالبيين ، الذين ظهروا في منطقة " جوهر " في القرن السابع عشر الميلادي، ينسب لقبيلة جميل التركمانية ، وعائلته كرن وهي من الأسر الإقطاعية في تركستان ، اشتهر منذ صغره بالفروسية والمحاربة ، تولى زعامة الأشقياء وقطاع الطرق في سن مبكرة ، وانتشر نفوذه بين أنيون وباشهر، وعندما تم القبض عليه وإرساله إلى إستانبول ، أعلن توبته وخدم مع محمد كوبرلي باشا ، وصار من مشاهير القادة وفي عام ١٦٥١م عين قائد للجيش العثماني . دائرة المعارف التركية : ج ٢١ ، د.ط ، أنقرة ، ١٩٧١م ، ص ٤٠٠ .

(**) انضم إليه رجل يدعى كورجي بني ، ولكن وقع خلاف بينهما قبل الوصول إلى العاصمة ، فافترق عنه ، فحاربه الجند ، وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى إستانبول . بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

(١) مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ١٨٠ .

(***) الكوبرو : هو الجسر ومعناها صاحب الجسور ، أو صانع الجسور ، وما زال الناس يستخدمون هذا اللفظ على الجسر ، وقد كان لهذه الأسرة شأن في الدولة العثمانية . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٠ .

تولي الصدارة العظمى إلى تأديب الإنكشارية في أعقاب تمرد حدث منهم ، وأمر بإلقاء جثثهم في البحر ، حتى قيل أنها بلغت أربعة آلاف جثة ، وبهذه الشدة التي عوملوا بها هدأت ثوراتهم وقصر طغيانهم . (١)

ولكن نجد أن الإنكشارية لعبت دوراً كبيراً عند أسوار فينا ، حيث طلب الصدر الأعظم الإذن من السلطان محمد الرابع ، بالسفر إلى بلاد النمسا وافتتاح مدينة فينا ونشر الإسلام فيها ، وفعلاً تم التجهيز (*) لهذا الأمر ، وبدأ المسير إلى قلعة بج ، وأطلق الصدر الأعظم أمره بنهب القلاع وحرق المزارع وقد سعدت الإنكشارية بهذا الأمر فنفذته على أكمل وجه ، ونهبت ما لا يحصى من الغنائم ، ولكنها تجاوزت الحدود وتعدت على النساء والرجال العاجزين عن الحركة ، وسبوا كثيراً من النساء ، وتعدوا على حرقات البيوت ، واستولوا على الأموال ، وعلى طول الطريق إلى فيينا كانوا يقومون بكافة الأعمال البشعة ، حتى وصلوا إلى فينا وكانت محصنة بشكل جيد ، فضربوا حولها الحصار ورموها بالمدافع ، وكان قد هرب منها الأهالي ، وعندما ضاق الخناق على الناس المتبقية بداخلها طلبوا أن يسلموها طوعاً ، ولكن الوزير خاف من الإنكشارية ونهبها للمدينة ، وعندما راجعه الوزراء والعسكر في الدخول صلحاً رد عليهم أنهم إذا ضمنوا عدم فساد الإنكشارية

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

(٢) للاستزادة عن التجهيزات العسكرية في الجيش العثماني . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص ٢٠٩ .

بها ، وافق على الصلح واستمرت المفاوضات ثلاثة أيام ، وطال الحصار ، حتى تكالبت(*) جيوش أوروبا وتجمعت على الجيوش العثمانية،^(١) ومنيت السلطنة بهزيمة وإنكسار فطيع حول أسوار فينا في عام ١٠٩٨هـ — / ١٦٨٧م، ^(٢) على الرغم أنهم كانوا أحد الأسباب الرئيسية لعدم فتح فينا إلا أنهم نسوا ذلك وسارعوا بالتمرد للتخلص من السلطان والصدر الأعظم وفي أثناء حرب العثمانيين مع جيوش النمسا ، ألتحم الجيشان في معركة كبيرة في سهل موهاكز ^(**) في ٣ شوال ١٠٩٨هـ — / ١٢ أغسطس ١٦٨٧م ، وبعد أن دارت رحى المعركة ، انقلبت على العثمانيين وهزموا هزيمة نكراء وبدأت الجيوش النمساوية في جميع ما معهم من مدافع وسلاح وموّن ونخائر ، وعندما وصلت الأنباء للإنكشارية الموجودة في العاصمة هاجت وماجت وثار، وأرسلت للإنكشارية الموجودة مع الصدر الأعظم سليمان باشا في ساحة المعركة، وطلبت منهم إشهار العصيان والتمرد ، وفعلاً تم ذلك ، ولولا هروب الصدر الأعظم لبلغراد لأعدموه ، وانتهت هذه الثورة بعزل السلطان محمد الرابع في ٢ محرم ١٠٩٩هـ — / ٨ نوفمبر ١٦٨٧م ^(٣) واضطر حسين باشا الذي كان يُحاصر مدينة كنديا في

(*) للاستزادة عن استعدادات ملوك أوروبا لقتال العثمانيين . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص ص ٢٠٩-٢١١ .

(١) مصدر سابق ، ص ٢٠٩-٢١١ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٩٥-٢٩٦ .

(٢) محمد جميل بينهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

(**) تقابل العثمانيون في هذا السهل من قبل مع المجريين وانتصروا نصراً عزيزاً مجيداً قبل هذا

التاريخ بـ ١٦٠ عام . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٠٣ .

(٣) مصدر سابق ، ص ٣٠٣ .

كريت ، وأن يرفع الحصار عنها ، بسبب التمرد الذي أثارته
الإنكشارية .^(١)

وهكذا نرى أنها تحكمت في حركة المعارك ونهايتها طوال
عهد محمد الرابع .

تولى سليمان الثاني الحكم ، وأغدق العطايا والهبات على
الإنكشارية خوفاً منهم ،^(٢) إلا أن حالة الهياج والثورة لا زالت
مستمرة .

وفي خضم هذه الأحداث كانت الدولة تعاني الأمرين من
جاء الحرب الطاحنة بينها وبين الدول المتعاونة عليها : النمسا
وبولونيا والبندقية ، وفي الوقت الذي كانت ترجو فيه من الإنكشارية
الهدوء ضاعفت هذه الأخيرة مشاكلها الداخلية ،^(٣) وللأسف هذه
الأعمال التي قامت الإنكشارية بها لم تفيدهم ، ولم تفيد الدولة ، فقد
استغل أعداء الدولة العثمانية انصرافها في حل مشاكلها الداخلية ،
وبدأوا باحتلال أجزاء من أراضيها .

وهاجم أعداء الدولة العثمانية ممتلكاتها في النمسا والمجر
وبلاد اليونان والصرب ،^(٤) وكانت هذه بداية ضياع ممتلكات
الدولة العثمانية وهذه من أخطر نتائج تمرد الإنكشارية المستمر .

(١) محمود شاكر : مرجع سابق ، ج ٨ ، ص ١٣٥ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٧ . يوسف أصف : مرجع سابق ، ص ٩٤ ،

٩٥ .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ .

(٤) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٧ .

وقد اغتتمت النمسا هذه الفرصة من ارتباك الدولة العثمانية وزحفت بجنودها على ولايتي البوسنة والهرسك واستولت عليها ،^(١) واستولت على قلعتي أرلو (*) ولييا (**) وغيرهما ، إضافة إلى احتلال البنادقة لمدينة ليبه في بلاد اليونان بقيادة موروزيني ، كما أحتلوا كافة سواحل دالماسيا وأودالمانيا سنة ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧ م ، وفي السنة التي تلتها سقطت مدائن سمندرية وقلومباز (***) وبلغراد ، وكان ذلك في سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٨ م . ثم فقدت الدولة العثمانية في سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٩ م مدينتي نيش وودين في بلاد الصرب .^(٢)

وإزاء هذه الأخطار الجسيمة التي واجهت الدولة العثمانية ، قام سليمان الثاني بعزل مصطفى باشا من الصدارة العظمى ، لعدم كفاءته وضعفه في مواجهة العدو ، وعين كوبريلي مصطفى باشا ، الذي كان يتمتع بكفاءة أبيه ، فقام بكسب ود الإنكشارية ، وحرز بذلك الانتصارات في الحروب التي خاضها .^(٣)

(١) يوسف أصف ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٢) أرلو : مدينة صغيرة ببلاد المجر ، تقع شمال شرق مدينة بودابست ، اشتهرت في التاريخ العثماني بصد هجمات العثمانيين ، وإلزامهم وضع الحصار عنها في سنة ١٥٥٢ م ، ولكنها فتحت عنوة ١٥٩٦ م . وبعد صلح سنة ١٦٠٦ م ، صارت تتبع النمسا تارة وترانسلفانيا تارة أخرى ، وتسمى بلغة المجر إيجر والآن إيكير .

(**) لييا : في بلاد المجر تقع قرب إيكير ، شمال شرق بودابست . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٤١-٢٩١ .

(***) يطلق عليها كولمباز : محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٠٥ .

(٢) مصدر سابق ، ص ٣٠٥ ، انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص ١٩٥ . انظر سعيد برجاي ، مرجع سابق ، ص ١٦٩ .

(٣) محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

وقد استخدم معهم سياسة اللين تارة والشدة تارة أخرى كما صرف لهم ما هو متأخر لهم من رواتب ^(١) ، من أموال الأوقاف ، حتى لا يكون لهم حجة في اختلاس أموال الناس ، ومنعهم من اغتيال الأهالي ، وبذلك انتظمت أمور الجيش نوعاً ما . ^(٢)

وبعد سليمان تولى أحمد الثاني الحكم ، ولكن لم يذكر أن للإنكشارية تدخلات في السياسة العليا ، أو حتى يذكر التاريخ أحداثاً مهمة فقد اقتصر الأمر على مناوشات حربية خفيفة في عهده . ^(٣) أما عهد مصطفى الثاني ، فقد تميز بهدوء الإنكشارية ، نظراً لأن آل كوبريلي كانوا في الصدارة العظمى ، فسارت الدولة في طريق الانتصارات إلا أنها منيت بسوء الحظ نتيجة استشهاد مصطفى باشا كوبريلي في حربه مع النمسا ، وكادت الجنود تتشتت لولا أن مصطفى الثاني تولى قيادة الجيش بنفسه ، ولكن الهزائم التي منيت بها الدولة كثيرة ، أمام عصبة الأمم الأوروبية ، النمسا - روسيا - البندقية - بولونيا حيث انتصروا على الجيش العثماني لافتقاره التنظيم وتمرد الإنكشارية مما أضعف الدولة العثمانية أمام التحالف الصليبي واضطراره إلى التوقيع على معاهدة كارلوفتس ^(*) وبناءً على شروط المعاهدة انسحب العثمانيون من بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا وتركوها للنمسا وتركوا أزاق لروسيا وتنازلت لبولونيا عن كامليك وللبندقية عن دلمانيا . وحاول السلطان

(١) بسام العسلي : مرجع سابق ، ص ١٩٥ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٠٥ .

(٣) مصدر سابق ، ص ٣٠٧ .

(*) كارلوفتس : بلدة يوغسلافيا على نهر الدانوب .

مصطفى الثاني التصدي لتدخلات الإنكشارية في السياسة ، مما نتج عنه عزله عن الحكم ، وتولية أحمد الثالث .^(١)

كما كان من أسباب عزله أيضاً ، أنه عين رامي محمد باشا في الصدارة ، والذي سار على خطى آل كوبريلي في إبطال تمرداتهم ومعاقبة المتسببين فيها ومنع المظالم ، ومعاقبة المرتشين ، إلا أن أصحاب المصالح والغايات ثاروا ، فثارت معهم الإنكشارية لميلهم للسلب والنهب ، وطلبوا عزل الصدر الأعظم ، وعندما لم يوافق السلطان، ثاروا أكثر ، فأرسل لهم فرقة من الجنود لتحاربهم ، فانضمت إليهم ، إضافة إلى أن عقد السلطان للصلح مع النمسا وفرنسا وإنجلترا أثار حفيظة الإنكشارية فقررت عزله في ٢ ربيع الآخره ١١١١هـ / ١٥ أغسطس ١٧٠٣م .^(٢) وبعد جلوس أحمد الثالث على أريكة الحكم العثماني ، ثارت الإنكشارية عليه وأرغمته على تعيين نيشانجي أحمد باشا^(٣) في الصدارة ، وبدأوا في عزل أعظم رجال الدولة واستبدلوهم بمن أرادوا .^(٣) على أن السلطان أحمد الثالث، بقي متذكراً ما فعلوه ، فانتظر حتى هدأت الأحوال ، وحاول إيقافهم عند حدهم ، وفرض هيئته عليهم

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٠ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ . محمد علي الصلابي : مرجع سابق ، ص ٤٩٦ .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١١ ، انظر حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ٣٢ .
(٣) أحمد باشا : والدته من " ألبانيا " نشأ بجوار عمه الوزير " الحاج أبو بكر باشا ، عمل في إستانبول في منصب القيادة ، عين قائداً للرمية ، ولقى كثيراً من التقدير أثناء ذلك ، عين والي على حلب وديار بكر وبغداد ، وعين في الصدارة العظمى أثناء عهد أحمد الثالث توفي أثناء ولايته حلب . الموسوعة التركية : وقف الديانة بتركيا ، ج ٢ ، د. ط. د. ت ، ص ١١٤ .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٦ . يوسف أضاف : مرجع سابق ، ص ١٠٠ .

مدة من الزمن ، لكنهم ظلوا يتحينون الفرصة لاسترداد نفوذهم ، ووجدوا الفرصة سانحة في عزم الدولة العثمانية عقد صلح مع دولة فارس ، فتارت ثائرتهم.^(١)

لقد نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في عهد كلاً من أحمد الثالث وطهماسب الثاني ، وكان سببها ^(*) عدم رغبة الدولة العثمانية في إعادة ما أخذته من الدولة الصفوية ، من بلاد أجداده على حد قول طهماسب ، وعندما رفضت الدولة العثمانية ، أغار على حدودها ، فرأى السلطان أحمد الثالث أن من مصلحة الدولة العثمانية عقد صلح مع الدولة الصفوية ، ^(٢) خاصة وأن السلطان أحمد كان عزوفاً عن الحرب ، ورغب في تسوية النزاع القائم بين الدولتين بالطرق السلمية، ولكن الإنكشارية ثارت وتمردت عليه ، ^(٣) مستثيرة حماس المواطنين^(٤).

وكانت حجتهم أن وقف الحرب سوف يحول بينهم وبين الغنائم ، كما أن نهب البلاد المفتوحة سيتوقف ، وتزعّم ثورة الإنكشارية بطرونا خليل ^(**) الذي طالب السلطان بتسليم شيخ

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٦ .

(٢) لمزيد من المعلومات عن أسباب حرب الدولة العثمانية مع الدولة الصفوية الرجوع إلى بسام

العسلي : مرجع سابق ، ص ٢٠٨ .

(٣) بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٨ .

(٤) عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥١٧ .

(٥) بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص ٢٠٨ .

(**) ينطق أيضاً بطرونا خليل . عبد العزيز الشناوي : ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٥١٧ .

الإسلام والصدر الأعظم وقائد البحرية قبودان باشا ، بحجة أنهم مؤدين للصلح مع الدولة الصفوية.^(١)

رفض السلطان الاستجابة لطلبهم في بادئ الأمر ، لكنه تراجع عن قراره حين تأكد من إصرارهم على قتلهم طوعاً أو كرهاً ، وخشي على نفسه منهم ، فسلم لهم الصدر الأعظم والقبودان باشا ^(*) وسمح لهم بقتلهم وتم قتلهم وإلقاء جثثهما في البحر ، لكنه طلب الإبقاء على حياة شيخ الإسلام خوفاً من إثارة الرأي العام وقبلت الإنكشارية هذا الحل على مضض .^(٢)

لكن انصياع السلطان جرأهم على الثورة عليه وعصيانه ، فأعلنوا عزله في مساء نفس اليوم الذي قتلوا فيه الصدر الأعظم والقبودان باشا ١٥ ربيع الأول ١١٤٣هـ / ٢٨ سبتمبر ١٧٣٠م ونادوا بابن أخيه محمود الأول سلطاناً على الدولة وأذعن أحمد الثالث ^(**) لرغبتهم بدون معارضة وتنازل عن الحكم .^(٣)

وهنا نلاحظ أن ثورات الإنكشارية أخذت جميع الاتجاهات ثورة للنهب والسلب وللتعدي على السلطان ، وأخرى للتدخل في السياسة العليا، وهكذا أصبحت الأحوال داخل الدولة ضعيفة جداً نتيجة للتخبط في هذه الأروقة ، كما وأن السلاطين صاروا ألعبوبة

(١) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

(٢) أي أميرال الأساطيل البحرية . محمد فريد المحامي ، المصدر السابق ، ص ٣١٨ .

(٣) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥١٨ .

(**) لم تقتله الإنكشارية ، وإنما بقي معزولاً إلى أن وافته المنية في سنة ١١٤٩هـ . محمد فريد

المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٩ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣١٨-٣١٩ .

في يد الإنكشارية يحركوهم كيفما شاعوا ، مما زاد ضعف الدولة العثمانية على الصعيد الداخلي .

وهنا نرى أنهم أصبحوا كالنار يأكلون بعضهم ، فأعمالهم العدوانية، لم تقتصر على السلاطين والصدور العظام وكبار رجال الدولة ، بل امتدت إلى زعمائهم ، حيث لم يكن للسلطان محمود الأول من السلطة إلا اسمها ، ^(١) ولم يكن سوى صورة لسلطان يجلس على عرش الدولة فلم يصدر قرارات ولم يُقد جيوشاً . وقد تبوأ الدولة وكان عمره خمسة وثلاثون عاماً ، وكانت الأحوال في إستانبول مضطربة بسبب تمرد الإنكشارية . ^(٢)

وقد استأثر بالسلطة الفعلية والنفوذ بترونا خليل رئيس الإنكشارية وقائد الانقلاب ضد السلطان أحمد الثالث ، فكان هذا الأخير يولي في مناصب من يريد ويعزل من لا يريد ، وأصبح كبار رجال الدولة يتمنون رضاه عنهم ، وزاد استبداده ، حتى بدأت الإنكشارية تنقم عليه ، فقد تحركت الأطماع داخلهم ، وطالبوه بتحسين أوضاعهم المادية ، ولكنهم اكتشفوا عكس ذلك ، إذا أنه كان سيتولى على جزء من مخصصاتهم المالية ، فقرروا التخلص منه ، معتمدين على كثرة عددهم ، وتم قتله دون أن يدافع أحداً عنه وبمقتله ، عادت السكينة والهدوء إلى استنبول، وأمن الأهالي على أرواحهم وأموالهم ، وبدأ السلطان في سياسة حربية نشيطة ضد

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٨ .

(٢) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في دول البحار ، ج ١ ، ص ٦٢٢ .

الدولة الصفوية ثم ضد النمسا وروسيا . (١)

وعندما تولى عثمان الثالث الوضع لم يتغير وبقي التحكم في يد الإنكشارية .

أما مصطفى الثالث فقد تجنب الاحتكاك بالإنكشارية ، وأراد أن يكون حكمه آمناً ، حتى لا يصيبه ما أصاب خلفه ، وقام بعدة إصلاحات في الجيش لكنها لم تثمر لأنها لم تمتد إلى الإنكشارية (٢) إلا أن بقيت الحروب متصلة مع الفرس تارة ومع روسيا والنمسا تارة أخرى ، وقد استمرت الحرب مع روسيا ، وقد كلفت الدولة العثمانية الكثير . (٣)

وفي أثناء الحرب مع روسيا كان الجيش بقيادة الصدر الأعظم ، وبعد عدة معارك ، ثارت الإنكشارية ، وكانت العساكر قد كُتبت من الحروب وشقت عصي الطاعة على قائدها ، وتركوه في ساحة المعركة وعادوا إلى إستانبول وعندما علم السلطان بذلك وجد أنه لا مفر من عقد الصلح مع روسيا ، وعرفت هذه المعاهدة باسم كوتشك قينارجة (٤) (*)

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٢ - ٣٢٠ . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥١٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥١٩ .

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص ١٣٦ .

(٤) عقدت معاهدة كوتشك قينارجة بعد أن انتقل السلطان مصطفى الثالث إلى الرفيق الأعلى ، وقد عقد في ٩ شوال ١١٨٧هـ / ٢٤ ديسمبر ١٧٧٣م ، وأبرمت في مستهل حكم أخيه السلطان عبد الحميد الأول . عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥١٩ .

(٤) يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص ١١٠ ، انظر أحمد زيني حلان : مصدر سابق ، ص ٢٢٨ .

لقد سيطرت على الفترة السابقة رؤوس متعصبة تبغي المنفعة والسلطة وأفكار محدودة الأفق لا ترتبط بمصلحة الدولة بل كانت الدولة ضحيتها ، فقد صارت الدولة نطاق مليء بالعصيان ، وهذا العصيان يحدث ثقب و ثغرات في جسم الدولة مما يهددها بالزوال .^(١)

لقد كانوا أحد الأسباب غير المباشرة في عقد صلح كوتشك قينارجه وهذه المعاهدة كانت مجحفة في حق الدولة ، ولكن الدول اضطرت لها نظراً لهروب جيشها من ساحة المعركة .

وظل الحال كما هو في عهد عبد الحميد الأول من تدخل في السياسة خاصة وأن الحرب مع روسيا كانت مستمرة ، لكن لم يذكر في المصادر التاريخية تدخل الإنكشارية مباشرة في السياسة العليا ، ولكن هذا لا يمنع عدم تواجدهم على الساحة السياسية .

لقد حفل تاريخ الإنكشارية في هذه الفترة بشتى أنواع التخريب والدمار فقد تحولوا من أداة بناءة تحافظ على الدولة ، إلى معول هدم وتخريب ، ومن قوة حربية عالية الكفاءة ، إلى ما يشبه اللصوصية ، وقطع الطريق ، وسلب الأرواح والأموال ، وخير دليل ما حدث في دمشق وبلاد الصرب . فمثلاً في دمشق نجد أن صراع الإنكشارية مع الشعب حول دمشق إلى ساحة لطغيان الإنكشارية وتخبط موقف باشوات الشام في الانضمام إلى الإنكشارية أو الوقوف ضدها في بعض الأحيان انضمت إلى الإنكشارية وفي أحيان أخرى إلى الدروز وظلوا يهددون دمشق

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٤ . منقولاً عن مقدمة رفيق

فترة من الزمن بالإغارة عليها وصارت بينهما عدة مصادمات ،
كان من نتائجها ضياع المال والأرواح من الأهالي . (١)

أما ما حدث في الصرب فهو خير دليل على الصورة
السابقة ، فبعد فتح بلاد الصرب أعطيت كافة أراضيها إلى
الفرسان على شكل إقطاعات ، وعندما نشبت الحرب بين الدولة
العثمانية والنمسا وروسيا في ١٢٠٣هـ / ١٧٨٨م في عهد عبد
الحميد الأول ، استطاعتا إنزال الهزائم المتلاحقة بالدولة العثمانية و
هاجر كثير من أهالي الصرب إلى النمسا وبلاد المجر ، حيث
انضموا إلى سلك الجندية النمساوية ، أملاً في أن تنتهي الحرب
بهزيمة ساحقة للدولة العثمانية ، لكن نشوب الثورة الفرنسية
١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م ، أدى إلى نهاية الحرب ، وتم عقد صلح مع
النمسا في ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م ثم تلتها معاهدة مع روسيا . (٢)(*)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل قامت الإنكشارية بحركات
عصيان ضد أهالي الصرب ، وبالتالي أفسدوا سياسة الدولة العليا،
وبعد نهاية الحرب ، عاد الصربيون الذين انخرطوا في سلك الجندية
النمساوية، إلى بلادهم ، وبدأت الإنكشارية التعرض لهم ، بالقتل
بوحشية لم يسبق لها مثيل ، والسلب ، والنهب ، (٣) وكانت حجتهم

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٥ .

(٢) احتفظت في المعاهدة روسيا ببعض الأقاليم التي كانت قد استولت عليها أثناء الحرب انظر عبد

العزیز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٠ .

(٢) مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٠ . انظر فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٨٣ . انظر محمد

سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٥٣ .

(٣) عبد العزیز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٠ .

في ذلك أن هؤلاء رفعوا السلاح ضد دولتهم ، ووقفوا مع أعداء الدولة العثمانية ، فلا بد من التتكيل بهم والتخلص منهم ، فقامت بنهب قرى الصرب ، والتعدي عليهم بكل أنواع الإهانة . (١)

وقد كان هذا تبريراً يتسترون به على غرضهم الحقيقي ، وهو تحقيق منافع شخصية وعاجلة لهم ، وطبعاً هذه الأعمال أخرجت الدولة العثمانية وسياستها العليا ، حيث نصت الفقرة الثانية من المادة الأولى من معاهدة الصلح ، أن يمنع حصول التعدي والإهانة من أحد الطرفين على الآخر ، ويتم العفو عن كل من اشترك في الحرب ، خاصة أهالي الصرب والبوسنة والجبل الأسود والأفلاق والبغدان ، بحيث يعودوا إلى أوطانهم ويتمتعوا بجميع حقوقهم وأموالهم ، دون أن يتعرض أحداً لهم بالأذى أو المساءلة أو العقاب . (٢)

وقد أرسلت الدولة العثمانية تعليمات سريعة إلى الوالي العثماني في بلغراد ، تستتكر فيها تصرفات الإنكشارية ضد الصربيين ، وقضت التعليمات بأن يتم تنبيه الإنكشارية إلى أنه أصدر عفواً عاماً لأهل الصرب، إضافة إلى أن يمنع اعتدائهم على الصربيين ، إلى أن الإنكشارية ضربت بهذه الأوامر عرض الحائط ، واستمرت في اعتدائها . (٣)

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣٨٣ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢١ .

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : رقم الوثيقة ٣٩٤٦ تصنيف HAT.H عبد العزيز الشناوي :

المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢١ .

وقد توالى شكايات الأهالي من ظلم الإنكشارية ، فأمرت الدولة الوالي بمعاقة الإنكشارية وإخراجهم من أراضي الصرب ، فلم يمتثلوا لهذه الأوامر ، فحاربهم الوالي بمساعدة السباه " الفرسان الإقطاعيين" وتغلب عليهم وأخرجهم من بلغراد بعد أن قتل رئيسهم " ولي أحمد " ^(١) وهكذا نجد أن بلاد الصرب عانت منهم الكثير ، لقد فسد فيها الإنكشارية لدرجة أن أصبحوا من الأسباب التي أدت إلى استقلال الصرب عن حكم العثمانيين .

وقد أرسل السلطان يهدد الإنكشارية بأنه سيرسل لهم جيشاً من ديانة أخرى ليحاربهم ، ففسرت الإنكشارية ذلك القول أن السلطان يقصد الصربيين فقاموا بعمل مذبحه رهيبة بالصربيين مما أدى إلى تأزم الوضع . ^(٢)

وبعد ذلك التجأت الإنكشارية إلى بازوند أوغلي ^(*) ، وهو أحد المغامرين الثائرين ، وقد شق عصا الطاعة على الدولة العثمانية ، وأخذ من ولاية ودين ^(**) مقراً له ، وجمع حوله قطاع الطرق ، والإنكشارية الثائرة ، وقد حاربت الدولة عدة مرات ،

(١) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٦ .

(*) يرد ذكر اسمه في بعض المصادر : باسبان أوغلي ، بازوانت أوغلي ، بازواند زاده عثمان . عبد

العزير الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٢ .

(**) ودين تقع في بلغاريا ، ويرد ذكر اسمها أحياناً فيدين ، وهي مدينة حصينة تقع على نهر الدانوب وذات موقع استراتيجي ، واكتسبت شهرتها في الدولة العثمانية لأنها مقر بازواند أوغلي . انظر

المرجع السابق ، ص ٥٢٢ .

ولكنها فشلت في التخلص منه ، فأرسلت حسين باشا (*) لمحاربته ،
والذي خاف من أن يحذو حذوه حكام الولايات العثمانية في البلقان ،
ويقوموا بتمردات ضد الدولة العثمانية، فاقترح على سليم الثالث أن
يعطيه حكم ولاية ودين طوال حياته، وفعلاً تم هذا الأمر ، وقد
انضوت تحت لواء الإنكشارية ، وقد توسط لهم عند الباب العالي
حتى يعودوا لبغراد ، بشرط أن يلتزموا الهدوء وعدم التعدي على
الأهالي ، إلا أنهم لم يلبثوا أن حاصروا بلغراد ودخلوها عنوة ، ولم
يرجعوا عن غيهم ، واستمروا في النهب وسلب البلاد مرة أخرى ،
ونشروا الفساد في المدينة . (١)

وعندما فاض الأهالي ، من أفعال الإنكشارية ، قرروا الدفاع
عن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، ورأوا ضرورة استخدام القوة
لردع الإنكشارية ، وانتخبوا رئيساً لهم جورج بتر وفتش (**) أو قره
جورج ، أي جورج الأسود ، وبدأ الصربيين في مطاردة الإنكشارية
حتى أبعدهم عن القرى ، وأحكموا حولهم الدائرة حتى حصروهم

(*) يعد حسين باشا من أعلام العسكريين العثمانيين . وكان الذراع الأيمن للسلطان سليم الثالث وقد نفذ
فكرة تطوير القوات المسلحة العثمانية ، ورأى ضرورة التخلص من الإنكشارية ، وتم تعيينه قبودانا
عاماً . المرجع السابق ، ص ٥٢٢ .

(١) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٣٨٣ . انظر المرجع السابق ، ص ٥٢٢-٥٢٣ .
(**) ولد هذا الثائر في بلغراد سنة ١٧٧٠ م ، وكان يلقب بقره جورج أي الأسود ، وهو أول من جمع
الصربيين على مقاومة الدولة العثمانية وطلب الاستقلال ، في سنة ١٨٠٦م نال بعض الامتيازات التي
عادت وسحبها الدولة العثمانية عام ١٨١٣م وطردته فهاجر إلى روسيا حيث عين هناك قائداً
لجيوشها وفي سنة ١٨١٧م حاول الرجوع إلى الصرب لإثارة الفتن فقبض عليه ميلوش وقتله
وأرسل رأسه إلى إسطنبول علامة على ولائه . وينسب إليه أنه قتل أباه وأخاه عندما أحس ميلهم
للعثمانيين . انظر محمد فريد المحامي ، المصدر السابق ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

في المدن ، وسكان هذه المدن كانوا على أهبة الاستعداد للانقضاض على الإنكشارية إذا ما قاموا بأعمال سلب أو نهب . (١)

وهنا أدركت الدولة العثمانية خطورة الموقف ، نتيجة تصرفات الإنكشارية في الصرب ، فخافت أن تتقلب ثورة الصربيين ضد الإنكشارية وتصبح ضد الوجود العثماني في الصرب ، فأرسلت إلى والي البوسنة بكير باشا تطلب منه الزحف على بلغراد وطرد الإنكشارية منها، وقد نجح هذا في دخول بلغراد وتنفيذ المهمة التي أرسل من أجلها وتم طرد الإنكشارية من بلغراد . (٢)

وكان هذا يدل على مدى فساد الإنكشارية ، وأنها صارت عالية على الدولة العثمانية ، لدرجة أنها تتعاون مع الصربيين لطردهم والتخلص من شرورهم ، وهذا يوضح مدى فقد الدولة العثمانية لزام السيطرة على الإنكشارية ومن ثم عدم قدرة الدولة العثمانية السيطرة عليها . (٣)

ومع كل هذه الجهود المهددة من قبل الدولة العثمانية لم تخضع الإنكشارية ولم تقدر وضع الدولة العثمانية التي كان أعدائها من الروس والنمسا يتربصون بها .

فقد عادت الإنكشارية لسيرتها الأولى ، وجمعوا فلولهم ، وبدأوا في ممارسة أعمالهم العدوانية مرة أخرى ، فقامت صربيا بزعامة قرة جورج عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٤م وقاوتت الحامية

(١) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٣٨٣، ٣٨٤ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص ٨٦ .

العثمانية في بلغراد ، وأعملت فيها مذبحه رهيبة ، على اعتبار أنها المسؤولة عن أعمال الإنكشارية الإجرامية وعن ابتعادهم عن القواعد العسكرية . وقد انتشحت هذه الحرب بمذابح دموية ، وأخيراً بعد حرب ثمانية سنوات ، وحصلوا على وعد بالاستقلال الذاتي في المعاهدة العثمانية الروسية عام ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م^(١)

ويتضح من تمردات الإنكشارية في بلاد الصرب ، أن شرورهم وصلت إلى البلقان ولم تقتصر على إستانبول والبلاد العربية ، وأنهم كانوا مقدمة لاستقلال الصرب ، حيث أن حرب الإنكشارية تطورت إلى حرب ضد الوجود العثماني . ونجد أن أول شعب سعى للخروج عن الدولة العثمانية هم شعب الصرب ، على الرغم من أنهم كانوا أكثر خضوعاً للعثمانيين من شعوب منطقتي مولدافيا و ولاشيا ، وكان ضعف الدولة وتباطؤها في معاقبة الإنكشارية في صربيا وقتاً مناسباً لقيام شعوب البلقان بحركات انفصالية .^(٢)

ومع بداية حكم السلطان سليم الثالث ، قامت الإنكشارية بحركات عصيان في مصر ضد الوالي العثماني هناك بسبب رغبتهم في أخذ المكافأة والعودة إلى بلادهم حيث لم يصبروا حتى يرد أذن سفرهم واستعجلوا الرحيل فما كان من الوزير إلا أن حبسهم في القلعة حتى يرد الإذن بإنهاء للتمرد^(٣)

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٥ .

(٢) مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٥٢٦ .

(٣) أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة رقم ٦٦٣٣ HAT.H .

وقد قامت الإنكشارية بتمرد على السلطان سليم الثالث وعزلوه ، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى قتله ، وكان من نتائج قتل سليم الثالث أن قام تمرد عارم في جميع الأوساط ، أصبح الوضع غير محتمل ، خاصة وأن الدولة العثمانية تعاني من عدة جبهات مفتوحة عليها.

ولم يتوقف شغب الإنكشارية في عهد مصطفى الرابع إذ أنهم تمردوا على السلطان عندما أقال شيخ الإسلام عطالله أفندي ، لأنه كان يحرضهم على الأعمال العدوانية ، فتمردوا عند إقالته وأعادوه إلى منصبه مرة أخرى فطغى واستبد بالأمر وزادت الأحوال تكدراً .^(١) في أثناء ذلك كانت الحرب دائرة بين الدولة العثمانية وروسيا عند نهر الطونة ، فوصلت أخبار إبطال النظام الجديد إلى الإنكشارية في ساحة المعركة ، فسعدوا بذلك كثيراً وشملهم السرور ، وعندما أحسوا من القائد العام الصدر الأعظم حلمي إبراهيم باشا ، عدم ارتياحه لما حدث من إلقاء النظام الجديد ، قاموا بقتله ، وتعيين جلي مصطفى باشا مكانه ، وبالتالي فشلت الجيوش العثمانية في الاستمرار في الحرب ، ولو أن جيوش روسيا متكاملة في مواجهة الدولة العثمانية لكانت نتائج هذه الحروب وخيمة على الدولة العثمانية ، فقد كانت أغلب جيوش روسيا تواجه الإمبراطور نابليون بونابرت .^(٢)

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ ، ص ٢٦١ .

(٢) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٣٩٤ .

لقد عمت الفوضى في صفوف الإنكشارية ، لدرجة أنهم يقتلوا قائدهم العام ، وفي وسط حرب ، لمجرد أنه لم يستحسن إلغاء النظام الجديد ، لقد وصلوا إلى درجة كبيرة من الاستهتار والفوضى.

إن وصول الفتن والحروب والخروج عن القانون ، وحدث الخصومات أدت إلى تزايد الكروب على الناس وكثر الظلم والجور وكل ذلك بسبب شغب الجنود والعساكر الإنكشارية .^(١) أما عهد محمود الثاني فقد كثرت تمرداتهم في الأقاليم وتعيدهم على أمن الأهالي ، بل وتعدى ذلك بتعيدهم على الوالي العثماني في الأقليم.

فعلى سبيل المثال نجد أنهم تعرضوا لمصطفى باشا الوالي العثماني في البوسنة ، بالإفتراء والاعتداء ، ونشروا حوله الأكاذيب كما تعدوا على قاضي محكمة ترافنيك ، حتى فر من أيديهم ، وكان هدفهم من هذا التمرد مدّة حتى يصل إلى أستانبول .^(٢)

كما زادت تمرداتهم في محافظة خربوت ، على الرغم من أن أغا الإنكشارية هناك أظهر الطاعة ، إلا أن الجنود كانوا على العكس ، كثرة اعتداءاتهم ، مما سبب صدمة للدولة العثمانية حيث رأت أنه لا يجوز أن تترك المنطقة على هذا الحال ، لأن الإنكشارية بدأت تتدخل في السياسة العامة ، فقررت الدولة العثمانية

(١) عبد الغني النابلسي : الكشف الشافي والبيان الوافي في معرفة حوادث الزمان في دولة آل عثمان ، مخطوط محفوظ في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، تحت رقم ٢٠٦٦٦ ، ورقة ٨.

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ٢١٨١٣ HAT.H .

عزل الأغا وتعيين مكانه آخر ، وأمر السلطان بإعدام المتسببين في هذه التمردات . (١)

كما كثر تعديهم على مزارع الأهالي في بلاد الشام وخاصة قسبة سلوري ، وكانوا يعتدون على المزارعين في منازلهم ويهتكوا الأعراض ، وأظهروا القوة والخشونة ، مما دفع بنائب سلوري الاستتجاد بإستانبول لإرسال ضباط لحفظ الأمن في المنطقة من تعديات الإنكشارية . (٢)

ومن العرض السابق يتضح لنا أنهم تسببوا في ضياع كثير من ممتلكات الدولة العثمانية ، كما وأنهم تسببوا في توقف حركة الفتوحات في بعض الأحيان ، ومما لا شك فيه أن تدخلهم في المسائل السياسية العليا كان له أبلغ الأثر في إرهاب الدولة داخلياً ، وجعلها دائماً في حالة ترقب لهم ولأعمالهم ، مما جعلها مشغولة في أمورها الداخلية ، الذي أدى بدوره إلى إنقضااض الأعداء عليها من كل الجهات .

لا شك أن ضعف شخصية السلاطين ساعد على ظهورهم بشكل كبير على مسرح الأحداث السياسية ، وبلغوا من القوة أنهم قضوا على أي سلطان قوي ، أو محاولة إصلاح جادة ، وهم بذلك وقفوا موقفاً عدائياً من الإصلاح والنظم الحديثة ورفضوا أي استخدام للأسلحة الحديثة، مما عطل من تطويرهم ومن ثم خسرانهم أغلب المعارك التي دخلوها .

(١) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : رقم الوثيقة ١٦٦٧٣ ، خط همايوني H.H .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : رقم الوثيقة ١٧١٠٧ HAT.H .

ومن هذا العرض السابق يتضح لنا أنهم تسببوا في ضياع كثير من ممتلكات الدولة العثمانية بسبب شغب الجنود والعساكر الإنكشارية.^(١)، كما وأنهم تسببوا في توقف الفتوحات في بعض الأحيان ، ومما لا شك فيه أن تدخلهم في المسائل السياسية العليا كان له أبلغ الأثر في إرهاب الدولة داخلياً ، وجعلها دائماً في حالة ترقب لهم ولأعمالهم مما جعلها مشغولة في أمورها الداخلية ، مما أدى إلى انقضااض الأعداء عليها من كل الجهات ، لا شك أن ضعف شخصية السلاطين ساعد أيضاً على ظهورهم بشكل كبير على مسرح الأحداث السياسية ، وبلغوا من القوة ، لدرجة أنه عند اعتلاء أريكة الحكم العثماني سلطان قوي ، وأراد الإصلاح قاموا بخلعهِ وقتله ، وبذلك وقفوا موقفاً معادياً من الإصلاح والنظم الحديثة ورفضوا أي استخدام للأسلحة الحديثة ، مما عطل في تطويرهم ومن ثم خسرانهم أغلب المعارك التي دخلوها .

(١) عبد الغني النابلسي : الكشف الشافي والبيان الوافي في معرفة حوادث الزمان في دولة آل عثمان ، ورقة ٨.